د. فــؤاد زكــريا

التفكير العلمي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الأعمال الفكرية

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

التفكير العلمي

د. فؤاد زكريا



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

التفكير العلمى

لوحة الغلاف
للفنان جمال قطب

تصميم الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

على سبيل التقديم . . .

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

مقدمة

ليس التفكير العلمى هو تفكير العلماء بالضرورة . فالعالم يفكر فى مشكلة متخصصة ، هى فى أغلب الأحيان منتمية إلى ميدان لا يستطيع غير المتخصص أن يخوضه ، بل قد لايعرف فى بعض الحالات أنه موجود أصلا . وهو يستخدم فى تفكيره وفى التعبير عنه لغة متخصصة يستطيع أن يتداولها مع غيره من العلماء ، هى لغة إصطلاحات ورموز متعارف عليها بينهم ، وإن تكن مختلفة كل الاختلاف عن تلك اللغة التى يستخدمها الناس فى حديثهم ومعاملاتهم المألوفة . وتفكير العالم يرتكز على حصيلة ضخمة من المعلومات ، بل إنه يفترض مقدما كل ماتوصلت إليه البشرية طوال تاريخها الماضى فى ذلك الميدان المعين من ميادين العلم .

أما التفكير العلمى الذى نقصده فلا ينصب على مشكلة متخصصة بعينها ، أو حتى على مجموعة المشكلات المحددة التى يعالجها العلماء ، ولايفترض معرفة بلغة علمية أو رموز رياضية خاصة ، ولا يقتضى أن يكون ذهن المرء محتشدا بالمعلومات العلمية أو مدربا على البحث المؤدى إلى حل مشكلات العالم الطبيعى أو الإنسانى ، بل إن مانود أن نتحدث عنه إنما هو ذلك النوع من التفكير المنظم ، الذى يمكن أن نستخدمه فى شئون حياتنا

اليومية ، أو فى النشاط الذى نبذله حين نمارس أعمالنا المهنية المعتادة ، أو فى علاقاتنا مع الناس ومع العالم المحيط بنا . وكل مايشترط فى هذا التفكير هو أن يكون منظما ، وأن يبنى على مجموعة من المبادىء التى نطبقها فى كل لحظة دون أن نشعر بها شعورا واعيا ، مثل مبدأ استحالة تأكيد الشىء ونقيضه فى آن واحد ، والمبدأ القائل أن لكل حادث سببا ، وأن من المحال أن يحدث شىء من لاشىء .

هذا النوع من التفكير هو ذلك الذى يتبقى فى أذهاننا من حصيلة ذلك العمل الشاق الذى قام به العلماء ، ومازالوا يقومون به ، من أجل اكتساب المعرفة والتوصل إلى حقائق الأشياء . فبناء العلم يعلو طابقا فوق طابق ، وكل عالم يضيف إليه لبنة صغيرة ، وربما اكتفى بإصلاح وضع لبنة سابقة أضافها إليه غيره من قبل . ولكن الأغلبية الساحقة من البشر لاتعرف تفاصيل ذلك البناء ، ولاتعلم الكثير عن تلك الجهود المضنية التى بذلت حتى وصل إلى ارتفاعه هذا . وهى تكتفى بأن تستخدمه وتنتفع منه ، دون أن تعرف إلا أقل القليل عن الطرق المستخدمة فى تشييده . وهذا أمر طبيعى لأن العلم قد تحول ، على مر العصور ، إلى نشاط يزداد تخصصا بالتدريج ، ولا تقدر على استيعابه إلا فئة من البشر أعدت نفسها له إعدادا شاقا ومعقدا . ولكن هل يعنى ذلك أن جمهرة الناس لم تتأثر بشىء مما زودها به العلم ، فيما عدا تطبيقاته ؟ وهل يعنى أن العلم لم يترك أثرا فى أية عقول فيما عدا عقول العلماء المشتغلين به ؟ الواقع أن العلم ، وإن كانت تفاصيله وأساليبه الفنية مجهولة لدى أغلبية البشر ، قد ترك فى عقول الناس آثارا لاتمحى ، أعنى أساليب معينة فى التفكير لم تكن ميسورة للناس قبل ظهور عصر العلم ، وكانت فى المراحل الأولى من ذلك العصر مختلطة بأساليب أخرى مضطربة مشوشة وقفت حائلا دون نمو العقل الإنسانى وبلوغه

مرحلة النضج والوعى السليم . وهذه الأساليب التى تركها العلم فى العقول ، حتى لو لم تكن قد اشتغلت به أو أسهمت بصورة مباشرة فى تقدمه ، هى ذلك النوع من التفكير العلمى الذى نود هنا أن ندرسه . فبعد أن يقدم العلماء إنجازاتهم ، قد لا يفهم هذه الإنجازات حق الفهم ، ويشارك فى استيعابها ونقدها ، إلا قلة ضئيلة من المتخصصين ، ولكن « شيئا ما » يظل باقيا من هذه الإنجازات لدى الآخرين ، أعنى طريقة معينة فى النظر إلى الأمور ، وأسلوبا خاصا فى معالجة المشكلات . وهذا الأثر الباقى هو تلك « العقلية العلمية » التى يمكن أن يتصف بها الإنسان العادى ، حتى لو لم يكن يعرف نظرية علمية واحدة معرفة كاملة ، ولو لم يكن قد درس مقررا علميا واحدا طوال حياته . إنها تلك العقلية المنظمة التى تسعى إلى التحرر من مخلفات عصور الجهل والخرافة ، والتى أصبحت سمة مميزة للمجتمعات التى صار للعلم فيها « تراث » يترك بصماته على عقول الناس .

موضوعنا إذن هو التفكير العلمى ، أو العقلية العامية ، بهذا المعنى الواسع ، لابمعنى تفكير العلماء وحدهم . على أننا لن نتمكن من إلقاء الضوء على هذه الطريقة العلمية فى التفكير إلا إذا ألممنا بشىء عن أسلوب تفكير العلماء ، الذى انبثقت منه تلك العقلية العلمية فى مجتمعاتهم . فتفكير العلماء هو مصدر الضوء ، ومن هذا المصدر تنتشر الإشعاعات فى شتى الاتجاهات ، وتزداد خفوتا كلما تباعدت ، ولكنها تضىء مساحة أكبر فى عقول الناس العاديين كلما كان المنبع الأصلى أشد نصاعة ولمعانا . ومن هنا كان لزاما علينا أن نعود ، من حين لآخر، إلى الطريقة التى يفكر بها مبدعو العلم ، لا فى تفاصيلها الفنية المتخصصة ، بل فى مبادئها واتجاهاتها العامة ، التى هى الأقوى تأثيرا فى تفكير الناس العاديين .

***

وفى اعتقادى أن موضوع التفكير العلمى هو موضوع الساعة فى العالم العربى . ففى الوقت الذى أفلح فيه العالم المتقدم ـ بغض النظر عن أنظمته الاجتماعية ـ فى تكوين تراث علمى راسخ امتد ، فى العصر الحديث ، طوال أربعة قرون ، وأصبح يمثل فى حياة هذه المجتمعات اتجاها ثابتا يستحيل العدول عنه أو الرجوع فيه ، فى هذا الوقت ذاته يخوض المفكرون فى عالمنا العربى معركة ضارية فى سبيل إقرار أبسط مبادىء التفكير العلمى ، ويبدو حتى اليوم ، ونحن نمضى قدما إلى السنوات الأخيرة من القرن العشرين ، إن نتيجة هذه المعركة مازالت على كفة الميزان ، بل قد يخيل إلى المرء فى ساعات تشاؤم معينة أن احتمال الانتصار فيها أضعف من احتمال الهزيمة .

وفى هذه المضمار لا أملك إلا أن أشير إلى أمرين يدخلان فى باب العجائب حول موقفنا من العلم فى الماضى والحاضر :

الأمر الأول هو أننا ، بعد أن بدأ تراثنا العلمى ، فى العصر الذهبى للحضارة الإسلامية ، بداية قوية ناضجة سبقنا بها النهضة الأوربية الحديثة بقرون عديدة ، ما زلنا إلى اليوم نتجادل حول أبسط مبادىء التفكير العلمى وبديهياته الأساسية . ولو كان خط التقدم ظل متصلا ، منذ نهضتنا العلمية القديمة حتى اليوم ، لكنا قد سبقنا العالم كله فى هذا المضمار إلى حد يستحيل معه أن يلحق بنا الآخرون . ومع ذلك ففى الوقت الذى يصعدون فيه إلى القمر ، نتجادل نحن عما إذا كانت للأشياء أسبابها المحددة ، وللطبيعة قوانينها الثابتة . أم العكس .

وأما الأمر الثانى فهو أننا لا نكف عن الزهو بماضينا العلمى المجيد ، ولكننا فى حاضرنا نقاوم العلم أشد مقاومة . بل إن الأشخاص الذين يحرصون على تأكيد الدور الرائد الذى قام به العلماء المسلمون فى العصر

الزاهى للحضارة الإسلامية ، هم أنفسهم الذين يحاربون التفكير العلمى فى أيامنا هذه . ففى أغلب الأحيان تأتى الدعوة إلى الدفاع عن العناصر اللاعقلية فى حياتنا ، والهجوم على أية محاولة لاقرار أبسط أصول التفكير المنطقى والعلمى المنظم ، وجعلها أساسا ثابتا من أسس حياتنا ـ تأتى هذه الدعوة من أولئك الأشخاص الذين يحرصون ، فى شتى المناسبات ، على التفاخر أمام الغربيين بأن علماء المسلمين سبقوهم إلى كثير من أساليب التفكير والنظريات العلمية التى لم تعرفها أوروبا إلا فى وقت متأخر، وما كان لها أن تتوصل إليها لولا الجهود الرائدة للعلم الإسلامى الذى تأثر به الأوروبيون تأثرا لاشك فيه .

ومن الجلى أن هذا الموقف يعبر عن تناقض صارخ : إذ أن المفروض فيمن يزهو بإنجازاتنا العلمية الماضية أن يكون نصيرا للعلم ، داعيا إلى الأخذ بأسبابه فى الحاضر ، حتى تتاح لنا العودة إلى تلك القمة التى بلغناها فى عصر مضى . أما أن نتفاخر بعلم قديم ، ونستخف بالعلم الحديث أو نحاربه ، فهذا أمر يبدو مستعصيا على الفهم .

وتفسير هذا التناقض يكمن ـ من وجهة نظرى ـ فى أحد أمرين : فمن الجائز أن أولئك الذين يفخرون بعلمنا القديم إنما يفعلون ذلك لأنه « من صنعنا نحن » ، أى أنهم يعربون بذلك عن نوع من الاعتزاز القومى ، ومن ثم فهم لايأبهون بالعلم الحديث مادام « من صنع الآخرين » . ومن الجائز أيضا أن تأكيدهم لأمجاد العرب فى ميدان العلم إنما يرجع إلى اعتزازهم «بالتراث » ، أيا كان ميدانه ، ومن ثم فإن كل مايخرج عن نطاق هذا التراث يستحق الإدانة أو الإستخفاف فى نظرهم . وسواء أكان التعليل هو هذا أو ذاك ، فإن العلم الذى وصلنا إليه فى الفترة الزاهية من الحضارة الإسلامية لا يمجد لأنه « علم » ، بل لأنه واحد من تلك العناصر التى تتيح

للعرب أن يعتزوا بأنفسهم ، أو بتراثهم .

ولكننا ، إذا شئنا أن نكون متسقين مع أنفسنا ، وإذا أردنا أن نتجاوز مرحلة اجترار الماضى والتغنى بأمجاد الأجداد ، وإذا شئنا ألانبدو أمام العالم كما يبدو أولئك العاطلون الذين لارصيد لهم من الدنيا سوى أن أجدادهم القدامى كانوا يحملون لقب « الباشا » أو « لورد » أو « بارون » ، فعلينا أن نحترم العلم فى الحاضر مثلما احترمناه فى الماضى ، وأن نعترف بأن هذا الأسلوب فى التفكير ، الذى كان مصدرا لاعتزازنا بأجدادنا فى الماضى ـ أعنى الأسلوب العلمى ـ ينبغى أن يكون هدفا من أهدافنا التى نحرص عليها فى الحاضر بدوره ، وأن المعركة التى يشنها الفكر المتخلف على كل من يدعو إلى المنهج العلمى فى التفكير ، ستقف عائقا فى وجه جهودنا من أجل اللحاق بركب العصر ، بل ستلقى ظلالا من الشك حول مدى إخلاصنا فى التغنى بأمجاد « ابن حيان » و « الخوارزمى » و « ابن الهيثم » و « البيرونى » . الذين كانوا يقفون فى الصف الأول من العقول التى تفكر بالأسلوب العلمى فى عصورهم .

***

والحق أن أية محاولة لاعتراض طريق التفكير العلمى ، في عصرنا الحاضر ، إنما هى معركة خاسرة . فلم يعد للسؤال : (هل نتبع طريق العلم أم لا ؟) مجال فى هذا العصر ، بل إن الدول التى تحتل اليوم موقع الصدارة بين بلاد العالم قد حسمت هذا السؤال منذ أربعة قرون على الأقل ـ ولم تعد هذه المشكلة مطروحة أمامها منذ ذلك الحين . وصحيح أن طريق التفكير العلمى كان فى بدايته شاقا ، وأن المقاومة كانت عنيفة ، والمعركة دامية سقط فيها شهداء كثيرون ، ولكن العلم اكتسح أمامه كل عناصر المقاومة ، وأصبحت القوى المعادية له ، والتى كانت فى وقت من الأوقات

تمسك بزمام السلطة فى جميع المبادين ، أصبحت هى التى تبحث لنفسها عن مكان فى عالم يسوده العلم . ومنذ اللحظة التى بدأ فيها عدد محدود من العلماء يكتشفون حقائق جديدة عن الكون بأسلوب منطقى هادىء ، وبناء على شواهد قاطعة وبراهين مقنعة لاسبيل إلى الشك فيها ـ منذ هذه اللحظة أصبحت سيادة العلم مسألة وقت فحسب ، ولم يعد فى وسع أية قوة أن تقف فى وجه هذه الطريقة القاطعة فى اكتساب المعارف الجديدة .

ذلك لأن العلم ليس قوة معادية لأى شىء ، ولامنافسة لأى شىء ، والعالم شخص لايهدد أحدا ، ولايسعى إلى السيطرة على أحد . وكل المعارك التى حورب فيها العلم والعلماء كانت معارك أساء فيها الآخرون فهم العلم ، ولم يكن العلم ولا أصحابه هم المسئولون عنها . وأعظم خطأ يرتكبه المدافعون عن مبدأ معين ، أو عن ضرب من ضروب النشاط الروحى للإنسان ، هو أن يعتقدوا أن العلم مصدر خطر عليهم ، ويضعوا مبدأهم أو نشاطهم الروحى فى خصومة مع العلم . فعلت هذا الكنيسة الأوربية فى مطلع عصر النهضة ، فقام رجالها يحاربون العلم الوليد ويضطهدون رواده ، ولم يكن ذلك منهم إلا عن جهل بطبيعة العلم أو بطبيعة الدين أو كليهما معا ، وربما كان فى بعض الاحيان خوفا على نفوذ أو دفاعا عن مصالح يعتقدون أن أسلوب المعرفة الجديدة كفيل بتهديدها . فماذا كانت النتيجة آخر الأمر ؟ ظل العلم يسير فى طريقه بهدوء وثقة ، ويحرز الانتصار تلو الانتصار ، وتعاقب ظهور العلماء الأفذاذ ، الذين كان معظمهم أشخاصا مخلصين فى عقيدتهم الدينية ، ولم يكن أحد منهم يتصور أن الجهد الذى يبذله من أجل بسط سيطرة العقل على الطبيعة وتحقيق النفع لإخوته فى الإنسانية يمكن أن يغضب أحدا ، لاسيما إذا كان من رجال الدين . واضطرت الكنيسة الأوربية آخر الأمر إلى التراجع أمام قوة الحقيقة التى لا يستطيع أن

ينكرها عقل سليم ولكن تراجعها ربما كان قد أتى بعد فوات الأوان ، إذ أن الكثيرين يعزون موجات الإلحاد التى اجتاحت أوروبا ، منذ القرن الثامن عشر بوجه خاص ، إلى تلك الخصومة التى لم يكن لها داع ، والتى افتعلتها الكنيسة ضد العلم .

كلا ، إن العلم لايهدد أحدا ، وإنما هو فى أساسه منهج أو أسلوب منظم لرؤية الأشياء وفهم العالم . وكل ماوجه إلى العلم من اتهامات إنما هو فى واقع الأمر راجع إلى تدخل قوى أخرى لاشأن للعلم بها ، تفسد تأثير العلم أو تسيء توجيه نتائجه ـ وهو أمر سنتحدث عنه فى ثنايا هذا الكتاب بالتفصيل .

وعلى العكس من ذلك ، فإن كل تقدم أحرزته البشرية فى القرون الأخيرة إنما كان مرتبطا ـ بطريق مباشر أوغير مباشر ـ بالعلم . وإذا كان من المعترف به أن وجه الحياة على هذه الأرض قد تغير، خلال الأعوام المائة الأخيرة ، بأكثر مماتغير خلال ألوف الأعوام السابقة ، فان الفضل الأكبر فى ذلك إنما يرجع إلى المعرفة العلمية ، ويرجع ـ قبل ذلك ـ إلى وجود شعوب تعترف بأهمية هذا اللون من المعرفة وتقدم إليه كل ضروب التشجيع .

واليوم ، لا يملك أى شعب يريد أن يجد له مكانا على خريطة العالم المعاصر إلا أن يحترم أسلوب التفكير العلمى ويأخذ به . وكما قلت من قبل ، فليس التفكير العلمى هو حشد المعلومات العلمية أو معرفة طرائق البحث فى ميدان معين من ميادين العلم ، وإنما هو طريقة فى النظر إلى الأمور تعتمد أساسا على العقل والبرهان المقنع ـ بالتجربة أو بالدليل ـ وهى طريقة يمكن أن تتوافر لدى شخص لم يكتسب تدريبا خاصا فى أى فرع بعينه من فروع العلم ، كما يمكن أن يفتقر إليها أشخاص توافر لهم من المعارف العلمية حظ كبير ، واعترف بهم المجتمع بشهاداته الرسمية .

فوضعهم في مصاف العلماء . ولعل الكثيرين منا قد صادفوا على سبيل المثال ذلك النمط من التجار الذين لم يكن لهم من الدراسة العلمية المنظمة نصيب ، ولكنهم يدبرون شئونهم ، في حياتهم العملية وربما في حياتهم الخاصة أيضا ، على أساس نظرة عقلانية منطقية إلى العالم و إلى القوانين المتحكمة فيه ، دون أن يكون لديهم أي وعي بالأسس التي تقوم عليها نظرتهم هذه . وفي الوجه المقابل لذلك فلقد رأيت بنفسي أشخاصا يعدهم المجتمع من العلماء ، منهم من وصل في الجامعة إلى كرسي الأستاذية ، يدافعون بشدة عن كرامات ينسبونها إلى أشخاص معينين (ليسوا من الأولياء ولا ممن عرفت عنهم أية مكانة خاصة بين الصالحين) ، تتيح لهم أن يقوموا بخوارق كاستشفاف أمور تحدث في بلد آخر دون أن يتحركوا من موضعهم ، أو تحقيق أمنياتهم بصورة مادية مجسمة بمجرد أن تطرأ على أذهانهم هذه الأمنيات ، وفي أحيان معينة ، عبور البحر سيرا على الأقدام ! تلك بالطبع حالات شاذة متطرفة ، لايمكن أن تعبر عن وجهة نظر « فئة » كاملة ، ولكنها في تطرفها تساعد على إثبات مانقوله من أن التفكير العلمي شيء وتكديس المعلومات العلمية شيء آخر .

أما على مستوى المجتمعات البشرية ، فقد أصبحت النظرة العلمية ضرورة لاغناء عنها في أي مجتمع معاصر لايود أن يعيش في الظل بين سائر المجتمعات . وحسبنا أن نشير إلى أن مبدأ التخطيط ، وهو مبدأ أساسي حاولت بعض الأنظمة الاجتماعية إنكار أهميته في بادىء الأمر ولكنها اضطرت إلى تطبيقه على نطاق واسع فيما بعد ـ هذا المبدأ إنما هو تطبيق مباشر لمفهوم التفكير العلمي المنهجي من أجل حل مشكلات المجتمع البشري . ولقد أصبح من المألوف في عالمنا المعاصر أن نسمع تعبيرات كالتخطيط الاقتصادي أو الخطة الاقتصادية) والتخطيط الاجتماعي ،

والتخطيط التربوى والعلمى ، والتخطيط الثقافى ، وكلها تعبيرات تدل على اعتراف المجتمع الحديث بأن ميادين أساسية للنشاط البشرى ، كالاقتصاد والشئون الاجتماعية والتربية والعلم والثقافة ، أصبحت توجه بطريقة علمية منظمة ، بعد أن كانت تترك لتنمو على نحو تلقائى ، أو تخضع لتنظيمات مؤقتة تغيب عنها الصورة الشاملة للميدان بأكمله ، وتسرى خلال وقت محدود فحسب . وكل نجاح يحرزه التخطيط فى عالمنا المعاصر إنما هو نجاح للنظرة العلمية فى تدبير شئون الإنسان .

بل إن العلم تغلغل إلى ميادين ظل الناس طويلا يتصورون أنها بمنأى عن التنظيم المنهجى والتخطيط المدروس . فنحن نسمع اليوم عن دعاية سياسية « علمية » استطاعت بفضلها الدول أن تنشر المبادىء والأفكار التى ترى من مصلحتها نشرها ، إما بين أفراد شعبها وإما بين أفراد الشعوب الأخرى ، بطريقة مدروسة تؤدى إلى تيسير قبول العقول لهذه المبادىء أضعاف قدرتها على مقاومتها بالتدريج . ومنذ الوقت الذى افتتح فيه « جوبلز » ، الوزير النازى المشهور ، عهد الدعاية « العلمية »، لم تعد هناك دولة حديثة إلا وتلجأ ، بصورة أو بأخرى ، إلى تلك الأساليب المنظمة المدروسة فى الإقناع وتشكيل العقول .

وقل مثل هذا عن أعمال التجسس ونشاط أجهزة المخابرات التى أصبحت لها مدارس ومناهج منظمة ، بعد أن كانت تعتمد على الاجتهاد الفردى ، وأصبحت تستعين بأحدث الكشوف العلمية وبأكبر عدد من العلماء المتخصصين كيما تؤدي عملها على نحو فعال .

وإذا كان العلم فى الميدانين السابقين يستخدم على نحو قد يتعارض أحيانا مع القيم الإنسانية الشريفة ، فإنه فى ميادين أخرى يستخدم على نحو يثرى روح الإنسان أو يزيد من قدراته الروحية الجسمية . ففى ميدان

الفنون أتيح للأجيال التى تعيش فى القرن العشرين أن تتلقى دروسا وتدريبات ـ فى ميادين الإبداع أو الأداء الفنى ـ لم تكن متاحة إلا على نطاق ضيق للأجيال السابقة . وكان من نتيجة ذلك اتساع ثقافة الفنان وإلمامه بأصول فنه ، وبلوغ الفنون الأدائية (كالموسيقى والرقص والتمثيل) مستويات تصل أحيانا إلى حد الإعجاز. كذلك أصبحت الرياضة البدنية علما بالمعنى الصحيح ، بعد أن كانت تعتمد على الاجتهاد الشخصى ، وتمكن الإنسان بفضل التدريب المنهجى المدروس من بلوغ نتائج كانت تدخل من قبل فى باب المستحيلات .

وهكذا أصبحت حياة المجتمعات الحديثة ، فى سياستها وحربها وسلمها وجدها ولهوها ، منظمة تنظيما علميا منضبطا ودقيقا . ولم يعد فى وسع مجتمع لديه أدنى قدر من الطموح أن يسير فى أموره بالطريقة العفوية التى كانت سائدة فى عصور ماقبل العلم . وإذا كنا ـ فى الشرق بوجه خاص ـ نسمع بين الحين والحين أصواتا تحن إلى العهد التلقائى ، فى أى ميدان من الميادين ، فلنكن على ثقة من أن أصحاب هذه الدعوات إما مغرقون فى رومانسية حالمة ، وإما مدفوعون بالكسل إلى كراهيه التنظيم العلمى الذي لاينكر أحد أنه يتطلب جهدا شاقا . وسواء أكان الأمر على هذا النحو أو ذاك ، فقد آن الأوان لأن نعترف ، فى شجاعة وحزم ، بأن عصر التلقائية والعشوائية قد ولى ، وبأن النظرة العلمية إلى شئون الحياة فى ميادينها كافة هي وحدها التى تضمن للمجتمع أن يسير فى طريق التقدم خلال القرن العشرين ، وهى الحد الأدنى الذى لا مفر من توافره فى أى مجتمع يود أن يكون له مكان فى عالم القرن الحادى والعشرين ، الذى أصبح أقرب إلينا مما نظن .

وإذا كان بعض من يعيشون معنا فى الربع الأخير من القرن العشرين

غير مقتنعين حتى اليوم بجدوى الأسلوب العلمي في معالجة الأمور ، وإذا كانوا لايزالون يضعون العراقيل أمام التفكير العلمي حتى اليوم ، فليفكروا لحظة في أحوال العالم في القرن القادم ، الذى سيعيش فيه أبناؤهم . ومن هذه الزاوية فإني أعد هذا الكتاب محاولة لإقناع العقول ـ في عالمنا العربي ـ بأن أشياء كثيرة ستفوتنا لو امتثلنا للاتجاهات المعادية للعلم ، وبأن مجرد البقاء في المستقبل ، دون نظرة علمية وأسلوب علمي في التفكير ، سيكون أمرا مشكوكا فيه .

فؤاد زكريا

مارس ١٩٧٧

الفصل الأول
سمات التفكير العلمى

لم يكتسب التفكير العلمى سماته المميزة ، التى أتاحت له بلوغ نتائجه النظرية والتطبيقية الباهرة ، إلا بعد تطور طويل ، وبعد التغلب على عقبات كثيرة . وخلال هذا التطور كان الناس يفكرون على أنحاء متباينة ، يتصورون أنها كلها تهديهم إلى الحقيقة ، ولكن كثيرا من أساليب التفكير اتضح خطؤها فأسقطها العقل البشرى خلال رحلته الطويلة ، ولم تصمد فى النهاية إلا تلك السمات التى تثبت أنها تساعد على العلو ببناء المعرفة وزيادة قدرة الإنسان على فهم نفسه والعالم المحيط به . وهكذا يمكننا أن نستخلص مجموعة من الخصائص التى تتسم بها المعرفة العلمية ، أيا كان الميدان الذى تنطبق عليه ، والتى تتميز بها تلك المعرفة عن سائر مظاهر النشاط الفكرى للإنسان ، ونستطيع أن نتخذ من هذه الخصائص مقياسا نقيس به مدى علمية أى نوع من التفكير يقوم به الإنسان . فما هى هذه السمات الرئيسية ؟

(١) التراكمية :

العلم معرفة تراكمية . ولفظ « التراكمية » هذا يصف الطريقة التى يتطور بها العلم والتى يعلو بها صرحه . فالمعرفة العلمية أشبه بالبناء الذى

يشيد طابقا فوق طابق ، مع فارق أساسى هو أن سكان هذا البناء ينتقلون دواما إلى الطابق الأعلى . أى أنهم كلما شيدوا طابقا جديدا انتقلوا إليه وتركوا الطوابق السفلى لتكون مجرد أساس يرتكز عليه البناء .

وقد يبدو هذا الوصف أمرا طبيعيا بالنسبة إلى أى نوع من النشاط العقلى أو الروحى للإنسان . ولكن قليلا من التفكير يقنعنا بأن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى أنواع متعددة من هذا النشاط . فقد عرف الإنسان منذ العصور القديمة نوعا من النشاط العقلى قد يبدو مشابها للمعرفة العلمية إلى حد بعيد ، هو المعرفة الفلسفية . ولكن هذه المعرفة الفلسفية لم تكن تراكمية ، بمعنى أن كل مذهب جديد يظهر فى الفلسفة لم يكن يبدأ من حيث انتهت المذاهب السابقة ، ولم يكن مكملا لها ، بل كان ينتقد ما سبقه ويتخذ لنفسه نقطة بداية جديدة . ومن هنا فإننا إذا استخدمنا التشبيه السابق ، كان في وسعنا أن نقول إن البناء الفلسفى لا يرتفع إلى أعلى ، بل أنه يمتد امتدادا أفقيا . وفضلا عن ذلك فإن سكان هذا البناء لا يتركون طوابقه القديمة ، بل يظلون مقيمين فيها مهما ظهرت له من طوابق جديدة . ذلك لأن افتقار المعرفة ، فى ميدان الفلسفة ، إلى الصفة التراكمية ، يجعل المشتغلين بالفلسفة يجدون فى تياراتها القديمة أهمية لا تقل عن أهمية التيارات الحديثة ، ومن ثم تظل موضوعا دائما لدراستهم .

ومثل هذا يقال عن الفن ، فالفن ينمو أفقيا ، بمعنى أننا نظل نتذوق الفن القديم ، ولا نتصور أبدا أن ظهور فن جديد يعنى التخلى عن أعمال الفنانين القدماء أو النظر إليها بمنظور تاريخى فحسب . وبطبيعة الحال فإن هذا النمو الأفقى لا يعنى أن أى اتجاه جديد فى الفن كان يمكن أن يظهر فى أى عصر سابق ، إذ أن ظهور الاتجاهات الفنية مرتبط ارتباطا وثيقا بمجموع الأوضاع الإنسانية التى يظهر فيها كل اتجاه منها ، أعنى بالأوضاع

الاجتماعية والثقافية والروحية والمادية ، الخ ... بحيث لا يمكن أن يفهم هذا الاتجاه حق الفهم إلا في سياقه التاريخي الذي ظهر فيه . ولكن الذي يعنينا هو أن تذوقنا لفن معاصر لا يمنعنا من أن نتذوق فنون العصور الماضية ، وأن الروح الإنسانية التي تجد متعة في أعمال فنية حديثة تجد متعة مماثلة في أعمال السابقين ، ولا تحاول أبدا أن تنسخ القديم لأن هناك جديدا ظهر ليحل محله .

أما في حالة المعرفة العلمية ، فإن الأمر يختلف ، إذ أن كل نظرية علمية جديدة تحل محل النظرية القديمة ، والوضع الذي يقبله العلماء في أي عصر هو الوضع الذي يمثل حالة العلم في ذلك العصر بعينه ، لا في أي عصر سابق . والنظرية العلمية السابقة تصبح ، بمجرد ظهور الجديد ، شيئا « تاريخيا » أي أنها تهم مؤرخ العلم ، لا العالم نفسه. ومن هنا فإن سكان البناء العلمي ، كما قلنا من قبل ، هم في حالة تنقل مستمر ، ومقرهم هو أعلى الطوابق في بناء لايكف لحظة واحدة عن الارتفاع .

وتكشف لنا سمة « التراكمية » هذه عن خاصية أساسية للحقيقة العلمية ، هي أنها نسبية . فالحقيقة العلمية لاتكف عن التطور ، ومهما بدا في أي وقت أن العلم قد وصل في موضوع معين إلى رأي نهائي مستقر ، فإن التطور سرعان مايتجاوز هذا الرأي ويستعيض عنه برأي جديد .

وهكذا بدا للناس ، في وقت معين ، أن فيزياء « نيوتن » هي الكلمة الأخيرة في ميدانها ، وأنها تعبر عن حقيقة مطلقة ، ودام هذا الاعتقاد مايقرب من قرنين من الزمان ، ثم جاءت فيزياء أينشتين فابتلعت فيزياء نيوتن في داخلها ، وتجاوزتها وأثبتت أن ما كان يعد حقيقة مطلقة ليس في الواقع إلا حقيقة نسبية ، أو حالة من حالات نظرية أوسع منها وأعم .

هذا المثل يكشف لنا عن طبيعة التراكم المميز للحقائق العلمية . ففى بعض الحالات تحل النظرية العلمية محل القديمة وتنسخها أو تلغيها . ولكن فى معظم الحالات لا تكون النظرية الجديدة بديلا يلغى القديمة ، وإنما توسعها وتكشف عن أبعاد جديدة لم تستطع النظرية القديمة أن تفسرها أو تعمل لها حسابا . وهكذا يكون القديم متضمنا فى الجديد ، ولا يكون العالم ، كالفيلسوف ، عقلا يبدأ طريقه من أول الشوط ، وإنما يستمد نقطة بدايته من حيث توقف غيره .

ولكن ، إذا كانت الحقيقة العلمية نسبية على هذا النحو ، فكيف جاز للبعض أن يصفوها بأنها « مطلقة » ؟ إننا نصف مشاعرنا الانفعالية وأذواقنا الفنية بأنها « نسبية » ونعنى بذلك أنها تختلف من فرد لآخر ، وأنه ليس من حق أحد أن يفرض ذوقه ، مثلا ، على الآخرين . ولكننا نقول عن الحقيقة العلمية أنها « مطلقة » بمعنى أنها تتجاوز نطاق الاختلافات بين الأفراد ، ولا تتقيد بظروف معينة بل تتخطى الحدود الجزئية لكل عقل على حدة ، لكى تفرض نفسها على كل عقل إنسانى بوجه عام . وهذه التفرقة بين طريقة حكمنا على عمل فنى وطريقة اقتناعنا بالحقيقة العلمية هى تفرقة صحيحة . فكيف إذن نوفق بين الاعتقاد ـ الذى قلنا أنه صحيح ـ بأن الحقائق العلمية مطلقة ، وبين ماقلناه منذ قليل من أنها نسبية ؟

الواقع أن الحقيقة العلمية ، فى إطارها الخاص ، تصدق على كل الظواهر وتفرض نفسها على كل عقل ، وبهذا المعنى تكون مطلقة . فحين نقول أن الماء يتكون من أكسيجين وهيدروجين بنسبة ١ إلى ٢ ،لانعنى بذلك كمية الماء التى أجرينا عليها هذا الاختبار ، بل نعنى أية كمية من الماء على الإطلاق ، ولا نوجه هذه الحقيقة إلى عقل الشخص الذى أجرى أمامه هذا الاختبار فحسب ، بل إلى كل عقل بوجه عام . ولكننا قد نكتشف فى يوم

ما أملاحا فى الماء بنسبة ضئيلة ، أونصنع « الماء الثقيل » (المستخدم فى المجال الذرى) فيصبح الحكم العلمى السابق نسبيا ، لا بمعنى أنه يتغير من شخص إلى آخر ، بل بمعنى أنه يصدق فى إطاره الخاص ، وإذا تغير هذا الإطار كان لا بد من تعديله ، وهذا الإطار الخاص قد يكون هو المجال الذى تصدق فيه الحقيقة العلمية ، كما هى الحال فى أوزان الأجسام ، التى يظل مقدارها صحيحا فى إطار الجاذبية الأرضية ، ولكنها تختلف إذا نقلت إلى مجال القمر . كما قد يكون هذا الإطار زمنيا ، بمعنى أن الحقيقة التى تعبر عن المستوى الحالى للعلم تظل صحيحة وتفرض نفسها على الجميع فى حدود معرفتنا الراهنة . وبذلك لا يكون هناك تعارض بين الطابع النسبى للحقيقة ، وبين قولنا أنها مطلقة . بل إن الحقيقة المطلقة كثيرا ما يعبر عنها بعبارات نسبية ، كما يحدث عندما نقول أن ضغط الغاز يتناسب تناسبا عكسيا مع درجة حرارته مقيسة بمقياس كلفن . « فالنسبة » ذاتها تصبح فى هذا القانون مطلقة ، وأن كانت قيم الضغط والحرارة مختلفة فيها باستمرار. وهكذا فإن صفة « التراكمية » فى التفكير العلمى تجمع بين الطابع النسبى والطابع المطلق للعلم دون أى تناقض .

هذه السمة « التراكمية » التى يتسم بها العلم هى التى تقدم إلينا مفتاحا للرد على انتقاد يشيع توجيهه ، فى بلادنا الشرقية على وجه الخصوص ، إلى العلم ، وهو الانتقاد الذى يستغل تطور العلم لكى يتهم المعرفة العلمية والعقل العلمى ، بالنقصان . فمن الشائع أن يحمل أصحاب العقليات الرجعية على العلم لأنه متغير، ولأن حقائقه محدودة ، ولأنه يعجز عن تفسير ظواهر كثيرة ، وهم بذلك يفتحون الباب أمام أنواع أخرى من التفسير الخارجة عن نطاق العلم أو المعادية له . وواقع الأمر أن هذا ليس اتهاما للعلم على الإطلاق . فإذا قلت أن العلم متغير، كنت بذلك تعبر

بالفعل عن سمة أساسية من سمات العلم ، وإذا اعتبرت هذا التغير علامة نقص فإنك تخطئ بذلك خطأ فاحشا : إذ تفترض عندئذ أن العلم الكامل لابد أن يكون « ثابتا » ، مع أن ثبات العلم فى أية لحظة ، واعتقاده أنه وصل إلى حد الاكتمال ، لايعنى إلا نهايته وموته ، ومن ثم فإن الثبات فى هذا المجال هو الذى ينبغى أن يعد علاقة نقص . إن العلم حركة دائبة ، واستمرار حيويته إنما هو مظهر من مظاهر حيوية الإنسان الذى أبدعه ، ولن يتوقف هذا العلم إلا إذا توقفت حياة مبدعه ذاته . والتغيير الذى يتخذ شكل « التقدم » والتحسين المستمر هو دليل على القوة ، لا على الضعف . ومن المؤكد أن هذا هو طابع التغير العلمى ، بدليل أن النظرية الجديدة فى كثير من الحالات تستوعب القديمة فى داخلها وتتجاوزها ، وتفسر الظواهر على نطاق أوسع منها ، كما قلنا من قبل .

ومجمل القول إن المعرفة العلمية متغيرة حقا ، ولكن تغيرها يتخذ شكل « التراكم » ، أى إضافة الجديد إلى القديم ، ومن ثم فإن نطاق المعرفة التى تنبعث من العلم يتسع باستمرار، كما إن نطاق الجهل الذى يبدده العلم ينكمش باستمرار . ومن هنا لم يكن انتقال العلم إلى مواقع جديدة على الدوام علامة من علامات النقص فيه ، بل إن النقص إنما يكمن فى تلك النظرة القاصرة التى تتصور أن العلم الصحيح هوالعلم الثابت والمكتمل .

ولكن ، فى أى اتجاه يسير هذا التراكم الذى تتسم به المعرفة العلمية ؟ إنه ، فى واقع الأمر ، يسير فى الاتجاهين ، الرأسى والأفقى ، أعنى اتجاه التعمق فى بحث الظواهر نفسها ، واتجاه التوسع والامتداد إلى بحث ظواهر جديدة .

أما عن الاتجاه الأول ، الذى نستطيع أن نسميه اتجاها رأسيا أو عموديا ، ففيه يعود العلم إلى بحث نفس الظواهر التى سبق له أن بحثها،

ولكن من منظور جديد ، وبعد كشف أبعاد جديدة فيها . فالبحث الفيزيائى والكيميائى فى المادة ، مثلا ، بدأ بخصائص المواد كما نتعامل معها يوميا ، أى على مستوى إدراك حواسنا العادية . وبازدياد تقدم العلم ازداد مستوى الأبحاث فى الظواهر نفسها تعمقا ، فكشفت مستويات جديدة للمادة ألقت مزيدا من الضوء على ظواهر العالم الفيزيائى والكيميائى ، وانتقل البحث إلى مستوى الجزيئات والذرات وثم إلى مستوى دون الذرى ، أى مستوى أدق مكونات الذرة نفسها ، وما زال العلم يتعمق ، فى هذا الميدان الهام ، إلى مستويات تزداد دقة وتتيح لنا مزيدا من السيطرة على العالم المادى . وينطبق هذا على العلوم الإنسانية بدورها ، إذ يمكن القول على سبيل المثال إن التحليل النفسى عند فرويد هو محاولة للتغلغل إلى أبعاد فى النفس البشرية أعمق من تلك التى كان يقتصر عليها علم النفس التقليدى ، الذى كان يتناول سلوك الإنسان وفقا لمظاهره الخارجية ، ويقتنع بالتعديلات والتبريرات الواعية التى تقدم لهذه السلوك دون أن يدرك أن من وراء هذا التبرير « الواعى » دوافع لاشعورية خفية ، لا يريد الإنسان أن يفصح عنها ، وإنما تُستخلص بعملية تحليل متعمقة .

وأما الاتجاه الثانى ، وهو الاتجاه الذى يمكن أن يسمى أفقيا ، فهو اتجاه العلم إلى التوسع والامتداد إلى ميادين جديدة . ذلك لأن العلم بدأ بنطاق محدود من الظواهر ، هى وحدها التى كان يعتقد أنها خاضعة لقواعد البحث العلمى ، على حين أن ميادين كثيرة كانت تعد أعقد ، أو أقدس ، من أن يتناولها العلم . وحسبنا أن نشير فى هذا الصدد إلى أن آخر العلوم فى ترتيب الظهور كانت مجموعة العلوم التى تدرس الإنسان بطريقة منهجية ، مثل علم الاجتماع وعلم النفس ، اللذين ظهرا فى القرن التاسع عشر ، أما قبل ذلك فكانت دراسة الإنسان متروكة للتأملات الفلسفية ،

التى كانت تزودنا ـ بغير شك ـ بحقائق عظيمة القيمة عن الإنسان ، ولكن هذه الحقائق كانت تتخذ شكل استبصارات عبقرية ولا ترتكز على دراسة منهجية . والسبب الرئيسى لذلك هو الاعتقاد الذى ظل سائدا طويلا بأن العلم لايستطيع أن يقترب من مجال الإنسان ، وأن هذا المجال له حرمته وقداسته الخاصة التى لايصح أن « تنتهك » بالدراسة العلمية .

والواقع أن مسألة الترتيب الذى ظهرت به العلوم الطبيعية والإنسانية هو موضوع له من الأهمية مايجعله جديرا بأن نستطرد فيه قليلا . ذلك لأن أول مايتبادر إلى الذهن فى هذا الصدد ، هو أن الإنسان عندما يبدأ فى ممارسة المعرفة العلمية يبدأ بمعرفة نفسه ، على أساس أن هذا هو أقرب الميادين إليه ، وهو الميدان الذى تكون فيه الملاحظة مباشرة بحق . وبعد أن تكتمل دراسته لنفسه يصبح لديه من النضج ما يسمح له بدراسة العالم الخارجى . وربما كان يعزز هذا الرأى أن الآداب والفلسفات والعقائد والتشريعات ، التى تعد شكلا قديما وهاما من أشكال معرفة الإنسان ، قد ظهرت قبل العلم التجريبى بزمن طويل .

ولكن حقيقة الأمر هى أن هذا الشكل الأولى الذى اتخذته معرفة الإنسان لنفسه كان بعيدا عن الطابع العلمى ، ولم يكن من الممكن بالفعل أن يبدأ العلم بدراسة الإنسان ، بل كان المعقول أن يبدأ بدراسة الطبيعة الخارجية . ولقد كان هذا هو ماحدث بالفعل فى التاريخ . ففى العالم القديم كانت المذاهب الفلسفية الأولى مذاهب « طبيعية » ، ولم تظهر المذاهب التى تتناول الإنسان إلا فى وقت متأخر . وهكذا بدأت الفلسفة بالمدرسة الإيونية والذرية ألخ ، التى تركزت أبحاثها على العالم الطبيعى ، قبل أن يظهر السفسطائيون وسقراط وأفلاطون ، الذين جعلوا الإنسان موضوعا هاما لفلسفاتهم . وفى العصر الحديث بدأت النهضة العلمية بدراسة الطبيعة

بطريقة مكثفة ، ولم تلحقها دراسة الإنسان علميا إلابعد قرنين على الأقل .
وهذا أمر غير مستغرب إذ أن دراسة الإنسان ، وإن كانت تبدو أقرب وأسهل منالا لأنها تتعلق بمعرفة الإنسان لنفسه على نحو مباشر ، هي في واقع الأمر أعقد بكثير من دراسة الطبيعة ، لأنها تمس أمورا نعتبرها مقدسة في كياننا الداخلي ، ولأن العلاقة بين الأسباب والنتائج فيها شديدة التعقيد والتشابك ، على عكس الحال في دراسة الطبيعة ، حيث تسير هذه العلاقة دائما في خط واحد قابل للتحديد .

وعلى أية حال فإن التطور في الاتجاهين ـ أعني اتجاهي دراسة الطبيعة ودراسة الإنسان ـ كان متداخلا ، ولم يكن الفاصل بين الميدانين قاطعا : ففي المحاولات الأولى التي بذلها العقل البشري من أجل فهم الطبيعة ، كان الإنسان يلجأ إلى تشبيه الطبيعة بنفسه ، وفهمها من خلال مايحدث في داخله، فيتصور أن أحواله النفسية والحيوية لها نظير في حوادث الطبيعة ، وكأن الطبيعة تسلك كما يسلك الإنسان . وفي العصر الحديث دار الزمن دورة كاملة : فبعد أن كانت الظواهر الطبيعية تفسر على مثال الظواهر البشرية ، أصبحت دراسة الإنسان ـ في كثير من الاتجاهات الحديثة ـ تتم على مثال الطبيعة ، وظهر ذلك في تصور « أوجست كونت » وخلفائه للظواهر الاجتماعية كما لو كانت ظواهر طبيعية ، كما ظهر عند « السلوكيين » والمدارس التجريبية في علم النفس بوجه عام ـ حيث يفسر السلوك الإنساني كما لو كان سلسلة من ردود الأفعال الطبيعية . وهكذا أصبحت الظواهر المتعلقة بكائن له حياة ونفس أو روح (أعني الإنسان) تدرس كأنها ظواهر تنتمي إلى الطبيعة الجامدة ، بعد أن كانت ظواهر الطبيعة الجامدة ، في العصور القديمة ، تفسر كما لو كانت ذات حياة ونفس أو روح .

والذى يعنينا من هذا كله هو أن العلم يتوسع ويمتد رأسيا وأفقيا ، وأنه يقتحم على الدوام ميادين كانت من قبل متروكة للخرافات أو للتفسيرات اللا عقلية . فحتى القرن الثامن عشر كانت أوروبا ذاتها تنظر إلى المرض العقلى على أنه ناتج عن تسلط روح شريرة على الإنسان ، وكانت تعامل المريض بقسوة شديدة بهدف إخراج هذه الروح الشريرة منه . وفى كثير من الحالات كانت هذه القسوة تؤدى إلى موته . وبالتدريج أخذ العلم يقتحم هذا الميدان بدوره ، ميدان العقل البشرى فى صحته وفى مرضه ، وامتدت رقعة المعرفة العلمية إلى أرض جديدة كانت محرمة على العلم من قبل . والأمثلة على ذلك عديدة ، وكلها تثبت أن العلم يتوسع فى جميع الاتجاهات .

ومرة أخرى نقول إن هذا التوسع يتضمن ردا مفحما على أولئك الذين يجدون متعة خاصة فى اتهام العقل البشرى بالقصور، على أساس أن هناك ميادين كثيرة لم يستطع هذا العقل حتى الآن أن يقتحمها . ذلك لأن هؤلاء لو تأملوا مسار العقل فى تاريخه الطويل بنظرة شاملة ، لاتقتصر على اللحظة التى يعيشون فيها وحدها ، لأدركوا أن عصورا كثيرة قبلنا كانت تؤمن إيمانا قاطعا بعجز العقل العلمى عن اقتحام ميادين معينة ، ولكن التطور سرعان ما أثبت لهم خطأهم . وهذا درس ينبغى أن يستخلصوا منه عبرة بليغة : وهى أن التوسع فى المعرفة البشرية يسير باطراد ، وأن كثيرا من الميادين التى نتصور اليوم أنها بعيدة عن متناول العلم سوف تصبح موضوعا للدراسة العلمية المنظمة فى المستقبل القريب أوالبعيد .

(٢) التنظيم :

فى كل لحظة من حياتنا الواعية يستمر تفكيرنا ، ويعمل عقلنا بلا انقطاع . ولكن نوع التفكير الذى نسميه « علميا » لا يمثل إلا قدرا ضئيلا من هذا التفكير الذى يظل يعمل دون توقف . ذلك لأن عقولنا فى جزء كبير

من نشاطها لا تعمل بطريقة منهجية منظمة ، وإنما تسير بطريقة أقرب إلى التلقائية والعفوية ، وكثيرا ما يكون نشاطها مجرد رد فعل على المواقف التي تواجهها ، دون أي تخطيط أو تدبير . و بل إننا حين ننفرد بأنفسنا ونتصور أننا « نفكر » ، كثيرا ماننتقل من موضوع إلى موضوع بطريقة عشوائية ، وتتداعى الأفكار فى ذهننا حرة طليقة من أى تنظيم ، فنسمى هذا شرودا أو حلم يقظة ، ولكنه يظل مع ذلك شكلا من أشكال التفكير . ومثل هذا التفكير الطليق ، غير المنظم ، سهل ومريح ، ولذلك فإننا كثيرا مانستسلم له هربا من ضغط الحياة ، أو تخفيفا لمجهود قمنا به ، أو نجعل منه « فاصلا » مريحا بين مراحل العمل العقلى الشاق .

أما التفكير العلمى فمن أهم صفاته التنظيم ، أى أننا لا نترك أفكارنا تسير حرة طليقة ، وإنما ترتبها بطريقة محددة ، وننظمها عن وعى ، ونبذل جهدا مقصودا من أجل تحقيق أفضل تخطيط ممكن للطريقة التى نفكر بها . ولكى نصل إلى هذا التنظيم ينبغى أن نتغلب على كثير من عاداتنا اليومية الشائعة ، ويجب أن نتعود إخضاع تفكيرنا لإرادتنا الواعية ، وتركيز عقولنا فى الموضوع الذى نبحثه ، وكلها أمور شاقة تحتاج إلى مران خاص ، وتصقلها الممارسة المستمرة .

ولكن إذا كان العلم تنظيما لطريقة تفكيرنا أو لأسلوب ممارستنا العقلية ، فإنه فى الوقت ذاته تنظيم للعالم الخارجى . أى أننا فى العلم لانقتصر على تنظيم حياتنا الداخلية فحسب ، بل ننظم العالم المحيط بنا أيضا . ذلك لأن هذا العالم ملىء بالحوادث المتشابكة والمتداخلة ، وعلينا فى العلم أن نستخلص من هذا التشابك والتعقيد مجموعة الوقائع التى تهمنا فى ميداننا الخاص . وهذه الوقائع لا تأتى إلينا جاهزة ، ولا تحتل جزءا منفصلا من العالم ألصقت عليه بطاقة اسمها « الكيمياء » أو « الفيزياء »

بل إن مهمتنا فى العلم هي أن نقوم بهذا التنظيم الذى يمكّننا من أن ننتقى من ذلك الكل المعقد ، مايهمنا فى ميداننا الخاص (وينطبق ذلك على ميدان العلوم الإنسانية مثلما ينطبق على ميدان العلوم الطبيعية . فحين يؤلف المؤرخ كتابا فى التاريخ ، وليكن مثلا كتابا عن تاريخ العالم العربى فى القرن العشرين ـ تكون أمامه مهمة شاقة هى أن يختار من بين الواقع شديد التعقيد ، مايهمه فى مجال بحثه . ذلك لأن مهمة المؤرخ هى إعادة الحياة إلى فترة ماضية ، ولكنه لايستطيع أن يعيد الماضى كاملا وبكل ما فيه من تعقيدات . فحين يعود بذهنه إلى وقائع حياة العالم العربى فى الفترة التى يتناولها بحثه ، يجد ألوفا من الظواهر المعقدة المتشابكة : حياة الناس اليومية ، طريقة ملبسهم ومأكلهم وترفيههم ، عاداتهم ، أخلاقهم ، حياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، علاقاتهم السياسية ، ألخ ... وعليه أن ينتقى من هذا الخضم الهائل من الظواهر المختلفة مايهمه فى موضوع بحثه ، ويترك ماعداه جانبا ، أى أن عليه أن يدخل التنظيم فى واقع غيرمنظم أصلا ـ وتلك هى مهمة العلم .

على أن التنظيم سمة لا تبدو مقتصرة على العلم وحده . فكل نوع من أنواع التفكير الواعى ، الذى يهدف إلى تقديم تفسير للعلم ، يتصف بنوع من التنظيم . بل أن الأساطير ذاتها تحاول أن توجد نظاما معينا من وراء الفوضى الظاهرية فى الكون . وحين تفترض وجود آلهة أو أرواح خفية وراء كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، فإنها تسعى عن طريق ابتداع هذه الكائنات الشخصية إلى إيجاد شكل من أشكال التنظيم فى الظواهر . وحين ظهر الفكر الفلسفى بعد ذلك ليحل محل التفكير الأسطورى كانت فكرة وجود نظام فى الكون من أهم الأفكار التى دارت حولها الفلسفة اليونانية .
بل إن نظرة اليونانيين إلى الكون ، التى عبر عنها استخدامهم للفظ

Cosmos للتعبير عن الكون ، كانت مبنية أساسا على فكرة التوافق والانسجام والنظام الذى يمكن فهمه بالعقل ، والذى يؤدى كل شىء فيه وظيفة لها معناها داخل الكل المنظم ، ويسير بأكمله نحو تحقيق غايات محددة . ومن هنا كان الاختلاف هائلا بين ذلك الكون المنسق الذى تصوره اليونانيون ، وبين تصور العلم الحديث للكون ، الذى كان فى صميمه تصورا آليا مضادا للغائية . أما فى الفكر الدينى ، فإن فكرة النظام أساسية ، بل أن كثيرا من علماء الكلام واللاهوتيين يتخذون من وجود النظام فى الكون دليلا من أدلة وجود الله ومظهرا من مظاهر قدرته . وهكذا يستحيل تصور العالم بطريقة عشوائية أو غير منظمة ما دام الخالق قادرا على كل شىء .

وإذن ففكرة وجود « نظام » فى العالم هى فكرة تتردد فى كل محاولة لإيجاد تفسير للعالم . فما هو الجديد الذى يأتى به العلم فى هذا الصدد ؟ أو على الأصح ، فيم يختلف التنظيم الذى يقتضيه التفكير العلمى عن ذلك التنظيم الذى يظهر فى أنماط التفكير المغايرة للعلم ؟

إن الاختلاف الأساسى يكمن فى أن التنظيم ، كما يقول به العلم ، يخلقه العقل البشرى ويبعثه فى العالم بفضل جهده المتواصل ، الدءوب ، فى اكتساب المعرفة ، على حين أن العالم ، وفقا لأنماط التفكير الأخرى ، منظم بذاته . ففى التفكير الأسطورى ، وفى التفكير الفلسفى ، نجد النظام موجودا بالفعل فى العالم ـ وما على العقل البشرى إلا أن يتأمله كما هو . أما فى التفكير العلمى ، فإن هذا العقل البشرى هو الذى يبعث النظام فى عالم هو فى ذاته غير منظم . فالكون فى نظر العلم لا يسير وفقا لغايات ، وإنما تسود مساره الآلية ، وكلما تقدمت المعرفة استطعنا أن نبتدع مزيدا من النظام فى مسار الحوادث العشوائى فى العالم . أى أن الكون المنظم ، بالاختصار ، هو نقطة النهاية التى يسعى العلم من أجل بلوغها ، وليس

نقطة بدايته .

ولكن ، كيف يحقق العلم هذا النظام في ظواهر الطبيعة المتشابكة والمعقدة والمفتقرة بذاتها إلى التنظيم ؟ إن وسيلته إلى ذلك هي اتباع « منهج Method »، أي طريق محدد يعتمد على خطة واعية . وصفة « المنهجية » هذه صفة أساسية في العلم ، حتى إن في وسعنا أن نعرف العلم عن طريقها ، فنقول أن العلم في صميمه معرفة منهجية ، وبذلك نميزه بوضوح عن أنواع المعرفة الأخرى التي تفتقر إلى التخطيط والتنظيم . ونستطيع أن نقول أن المنهج هو العنصر الثابت في كل معرفة تعليمية ، أما مضمون هذه المعرفة والنتائج التي تصل إليها ، ففي تغير مستمر . فإذا عرّفنا العلم من خلال نتائجه وإنجازاته ، كنا في هذه الحالة نقف على أرض غير ثابتة ، أما إذا عرّفنا العلم من خلال منهجه ، فإنا نرتكز حينئذ على أرض صلبة ، لأن المنهج هو الذي يظل باقيا مهما تغيرت النتائج .

غير أن القول بأن المنهج هو العنصر الثابت في العلم قد يفهم بمعنى أن للعلم مناهج ثابتة لا تتغير . وهذا فهم لا يعبر عن حقيقة العلم ، إذ أن مناهج العلم متغيرة بالفعل : فهي أولا تتغير حسب العصور ، لأن كثيرا من العلوم غيرت مناهجها بتقدم العلم . فالكيمياء مثلا تزداد اعتمادا على الأساليب الرياضية بعد أن كانت في بدايتها علما تجريبيا خالصا لاشأن له بالرياضيات .كذلك فإن المناهج تتغير تبعا لنوع العلم ذاته ، إذ أن المنهج المتبع في علم يدرس الإنسان لابد أن يكون مختلفا عن ذلك الذي يُتبع في علم طبيعي . وهكذا لايمكن القول بوجود منهج واحد ثابت للمعرفة العلمية على إطلاقها . ومع ذلك يظل من الصحيح أن منهج العلم ، لا النظريات أو النتائج التي يصل إليها ، هو العنصر الملازم للعلم على الدوام ، بمعنى أن وجود منهج معين ـ أيا كان هذا المنهج ـ سمة أساسية في كل تفكير علمي .

فالبحث العلمى هو بحث يخضع لقواعد معينة ، وليس بحثا عشوائيا متخبطا . ومع اعترافنا بأن هذه القواعد قابلة للتغيير باستمرار ، فإن مبدأ الخضوع لقواعد منهجية هو صفة أساسية تميز المعرفة العلمية .

وعلى أية حال فقد استطاع العلم الحديث ، بفضل جهود رواده الأوائل وإضافات العلماء اللاحقين ، أن يطور لنفسه منهجا أصبح يرتبط إلى حد بعيد بالدراسة العلمية . ولعله من المفيد ، ونحن فى معرض الكلام عن صفة التنظيم المنهجى فى العلم ، أن نقول كلمة موجزة عن هذا المنهج ، لا بوصفه المنهج الوحيد الذى يمكن تصوره للعلم ، ولكن بوصفه المنهج الذى أصبح غالبا على الدراسة العلمية فى ميادين العلم الطبيعى ، دون استبعاد أية تطورات أخرى ممكنة فى المستقبل ..

(١) فالمنهج العلمى يبدأ بمرحلة ملاحظة منظمة للظواهر الطبيعية التى يراد بحثها . ولاشك أن هذه الملاحظة تفترض ، كما قلنا من قبل ، عملية اختيار وانتقاء وعزل للوقائع التى تهم الباحث فى ميدان عمله ، من بين ألوف الوقائع الأخرى التى تتشابك معها فى الطبيعة . بل إن الواقعة أو الظاهرة الواحدة يمكن تناولها من زوايا متعددة ، وفقا لنوع اهتمام العالم . فقطعة الحجر يمكن أن تدرس بوصفها ظاهرة فيزيائية ، إذا ركزنا اهتمامنا على حركتها أو طريقة سقوطها أو ثقلها . ويمكن أن تدرس كيميائيا ، بتحليل المعادن أو الأملاح التى يمكن أن تكون موجودة فيها ، كما تدرس جيولوجيا ، بتحديد الطبقة الصخرية التى تنتمى إليها ، وعصرها الجيولوجى .... الخ :

(٢) ومن الجدير بالذكر أن الملاحظة الحسية المباشرة نادرا ماتستخدم فى العلم المعاصر . صحيح أنها فى أوائل العصر الحديث كانت

هى الوسيلة التى يلجأ إليها العلماء ، والتى دعا إليها فلاسفة العلم مثل بيكن ، من أجل جمع معلومات عن الواقع ، ولكن ذلك كان هو الوضع السائد قبل أن تكتشف أجهزة الملاحظة والرصد الحديثة . وأبسط مثال على ذلك أن ملاحظة الطبيب للمريض ، فى البلاد المتقدمة طبيا ، أصبحت أقل اعتمادا على اليد أو سماعة الأذن ، وازداد اعتمادها على الأجهزة الدقيقة فى تسجيل ضربات القلب ، أو على التصوير بكاميرات داخلية، أو على الأنواع الجديدة من الأشعة . كذلك فإن ملاحظات عالم الفيزياء لم تعد تعتمد على العينين ، بل تتم عن طريق قراءة مؤشرات أو ومضات داخل أجهزة الكترونية شديدة التعقيد. وبالمثل فإن العالم الفلكى أو الجيولوجى لم يعد يعتمد على مايراه ، بل على الصور التى تلتقطها الأقمار الصناعية . أى أن مفهوم الملاحظة ذاته قد تغير، فلم تعد هى تلك المادة الحسية الخام التى عرفها العلم فى المراحل الأولى من تطوره الحديث ، وإنما أصبحت عملية شديدة التعقيد ، تحتاج إلى جهود سابقة ضخمة ، وإلى معلومات واسعة من أجل تفسير « القراءات » أو « الصور » التى تنقلها الأجهزة المعقدة . أى أن الخطوة الأولى فى العلم متداخلة مع خطواته المتأخرة ، وهى ليست حسية خالصة ، بل فيها جوانب عقلية هامة .

(٢) وتأتى بعد الملاحظة مرحلة التجريب ، حيث توضع الظواهر فى ظروف يمكن التحكم فيها ، مع تنويع هذه الظروف كلما أمكن . وقد أصبحت التجارب العلمية بدورها أمرا شديد التعقيد فى عصرنا هذا ، ولكنها مع ذلك لاتمثل المرحلة النهائية فى العلم ،

بل تظل مرحلة أولية . ذلك لأن القوانين النهائية التى نتوصل إليها فى هذه المرحلة قوانين جزئية ، تربط بين ظاهرة وأخرى ، وتقدم إلينا معرفة بجانب محدود من جوانب الموضوع الذى نريد بحثه . ومن مجموع التجارب يتكون لدينا عدد كبير من القوانين الجزئية التى يبدو كل منها مستقلا عن الآخر، والتى نظل فى هذه المرحلة عاجزين عن الربط بينها ، لأن التجربة وحدها لا تتيح لنا أن نصل إلى أية « نظرية » لها طابع عام .

(٤) وفى المرحلة التالية يستعين العلم بتلك القوانين الجزئية المتعددة التى تم الوصول إليها فى المرحلة التجريبية ، لكى يضمها كلها فى نظرية واحدة . وهكذا فإن نيوتن قد استعان بكل القوانين التى تم كشفها عن طريق تجارب جاليليو وباسكال وهيجنز وغيرهم من العلماء السابقين عليه ، لكى يضمها كلها فى نظرية عامة هى نظرية الجاذبية (أو قانون الجاذبية ، بالمعنى العام لهذا اللفظ)

(٥) وفى كثير من الحالات يلجأ العلم ، بعد الوصول إلى النظرية العامة ، إلى الاستنباط العقلى : إذ يتخذ من النظرية نقطة ارتكاز أو مقدمة أولى ، ويستخلص منها ، بأساليب منطقية ورياضية ، مايمكن أن يترتب غليها من نتائج . وبعد ذلك قد يقوم مرة أخرى باجراء تجارب ـ من نوع جديد ـ لكى يتحقق من أن هذه النتائج التى استخلصها بالعقل والاستنباط صحيحة . فإذا أثبتت التجارب صحة تلك النتائج ، كانت المقدمات التى ارتكز عليها صحيحة ، أما إذا كذبتها ، فإنه يعيد النظر فى مقدماته ، وقد يرفضها كليا أو يصححها عن طريق إدماجها فى مبدأ أعم . ومن أمثلة ذلك أن أينشتين ، عندما وضع نظرية النسبية بناء على ملاحظات وتجارب جزئية سابقة قام بها هو وغيره من العلماء ،

استخلص النتائج المترتبة عليها بطريقة «الاستنباط العقلى » ، وكان لابد من تجربة لكى يثبت أن هذه النتائج تتحقق فى الواقع . وبالفعل أجريت هذه التجربة في حالة الكسوف الشمسى التى حدثت فى عام ١٩١٦ ، وأثبتت صحة النظرية التى اتخذ منها اينشتين مقدمة لاستنتاجاته .

وهكذا يسير المنهج العلمي المعترف به ـ فى ضوء التطور الحاضر للعلم من الملاحظات إلى التجارب ثم إلى الاستنتاج العقلى وإلى التجارب مرة أخرى ، أى أن العنصر التجريبى والعنصر العقلى متداخلان ومتبادلان ، كما أن الاستقراء ، الذى نتقيد فيه بالظواهر الملاحظة ، والاستنباط ، الذى نستخدم فيه عقولنا متخطين هذه الظواهر الملاحظة ، يتداخلان بدورهما ، ولايمكن أن يعد أحدهم بديلا عن الآخر . فالتجريبية والعقلية ليسا فى العلم ، منهجين مستقلين ، بل هما مرحلتان فى طريق واحد . وفى أغلب الأحيان يكون العلم فى بداية تطوره تجريبيا ، وعندما ينضج يكتسب إلى جانب ذلك الصيغة العقلية الاستنباطية . ففى المرحلة الأولى يجمع أكبر عدد ممكن من المعارف بطريقة منظمة ، وفى المرحلة الثانية يتوصل إلى المبادىء العامة التى تفسر هذه المعارف وتضعها فى إطار موحد . وقد بدأت الفيزياء مرحلتها التجريبية الأولى منذ القرن السادس عشر ، وانتقلت بعد قرنين إلى المرحلة الثانية . أما العلوم الإنسانية فربما كانت فى معظم حالاتها ، تمر حتى الآن بالمرحلة التجريبية التى تكدس فيها المعارف ، انتظارا للمرحلة التى تنضج فيها إلى حد اكتشاف القوانين أو المبادىء العامة .

تلك لمحة موجزة عن هذا الموضوع الذى يعد أهم مظاهر التنظيم العلمى ، وأعنى به البحث المنهجى . ولابد أن نؤكد مرة أخرى أن هذا المنهج الذى أشرنا إليه ليس ثابتا ، وإنما هو مثل حالة العلم فى المرحلة الراهنة ،

كما أنه لاينطبق بالضرورة على جميع مجالات البحث العلمى ، بل هو تلخيص للطريقة التى يتبعها العلماء فى العصر الحديث فى أهم ميادين بحثهم .

فهل يعنى ذلك أن المرء ، إذا أراد أن يكون عالما ، فما عليه إلا أن يتقن هذه القواعد ؟ وهل يكفى لتكوين العالم فى عصرنا هذا أن نلقنه الخطوط العامة للطرق التى أتبعها العلماء السابقون عليه لكى يصلوا إلى كشوفهم ؟ الواقع أن هذا خطأ يقع فيه كثير من غير المتخصصين فى العلم . ذلك لأن معرفة أية مجموعة من القواعد مهما بلغت دقتها ، لايمكن أن تجعل من المرء عالما ، بل إن هناك شروطا أخرى لابد من توافرها لتحقيق هذا الهدف . والمسألة ليست مسألة تطبيق آلى لمجموعة من القواعد التى ثبتت فائدتها فى أى علم من العلوم ، بل أن العلم أوسع وأعقد من ذلك بكثير. ونستطيع أن نقول أن فيلسوفا ذا عقلية علمية جبارة ، مثل « ديكارت »، قد وقع فى هذا الخطأ . فنظرا إلى إيمانه بأهمية المنهج فى العلم (وهو على حق فى ذلك) فقد استنتج أن العلم ليس إلا منهجا ، وأكد أن الناس لايتفاوتون فى استعداداتهم العقلية ، وإنما يتفاوتون فى كيفية استخدامهم لهذه العقلية بالطريقة الصحيحة ، ولذا ركز ديكارت اهتمامه على وضع مجموعة من القواعد التى يستطيع العقل ، إذا ما التزمها بدقة ، أن يهتدى بواسطتها إلى حل أية مشكلة فى أى ميدان من ميادين العلم .

ولكن التجارب أثبتت أن المرء قد يتبع أدق القواعد المنهجية دون أن يصبح لهذا السبب عالما . ذلك لأن العلم يحتاج إلى أمور منها التحصيل وحدة الذكاء ـ وهو استعداد طبيعى ـ وتلك الموهبة التى تجعل العالم أشبه بالفنان ، بل تجعله قادرا على تجاوز القواعد المنهجية المتعارف عليها فى ميدانه ووضع قواعده الخاصة به إذا اقتضى الأمر ذلك . ومع ذلك فقد كان

لديكارت كل العذر فى إلحاحه على أهمية معرفة القواعد المنهجية فى البحث العلمى ، وفى تأكيده أن أية مشكلة لن تستعصى على العقل الذى يهتدى بهذه القواعد : إذ أنه ظهر فى مطلع العصر الحديث ، وفى الوقت الذى كان لابد فيه للمفكر من أن يقدم للباحثين صورة للعمل العلمى تعطى الجميع أملا فى بلوغ الحقيقة . ولا شك أن تأكيد القواعد المنهجية ، ورفض الرأى القائل بأن الاستعدادات والقدرات العقلية تختلف من شخص لآخر، يفسح أمام الجميع مجال البحث ، ويقضى على أرستقراطية الفكر التى كانت سائدة فى العصور الوسطى ، لتحل محلها ديمقراطية فكرية كانت ضرورية فى المرحلة التاريخية التى ظهر فيها ديكارت .

وإذا كنا حتى الآن قد اقتصرنا على الكلام عن المنهج العلمى بوصفه المظهر الرئيسى لسمة التنظيم فى العلم ، فمن الواجب أن نشير ، قبل أن ننتقل إلى سمة أخرى ، إلى مظهر آخر للتنظيم العلمى ، هو الترابط الذى تتصف به القضايا العلمية . فالعلم لايكتفى بحقائق مفككة ، وإنما يحرص على أن يكوّن من قضاياه نسقا محكما ، يؤدى فهم كل قضية فيه إلى فهم الأخريات . وكل حقيقة علمية جديدة لا تضاف إلي الحقائق الموجودة إضافة خارجية ، بل تدمج فيها بحيث تكوّن معها كلا موحدا . وربما اقتضت عملية الإدماج هذه التخلى عن بعض العناصر القديمة التى تتنافر مع الحقيقة الجديدة . أما إذا ظهرت حقيقة جديدة ولم نعرف كيف ندمجها فى نسق الحقائق الموجودة بالفعل ، فإن ذلك يقتضى إعادة النظر فى النسق بأكمله من أجل تكوين نسق جديد قادر على استيعاب الحقيقة الجديدة . وهذا بالفعل ماحدث عندما أعاد أينشتين النظر فى نسق الفيزياء الذى كونه نيوتن ، والذى كان يعد حقيقة نهائية طوال مائتى عام ، نتيجة لتجارب « ميكلسون ومورلى » فى الضوء ، وهى التجارب التى لم يكن من الممكن

إدماجها فى النسق القديم . وقد أسفرت إعادة النظر هذه عن تكوين نسق جديد أرحب ، يستوعب النسق القديم فى داخله بوصفه حالة من حالاته ، ويتجاوزه بحيث يقدم تفسيرا أوسع منه بكثير، وهذا النسق الجديد هو نظرية النسبية .

وهكذا يمكن القول أن صفة التنظيم تحتل مكانها عند نقطة بداية البحث العلمى ، حيث تتمثل فى اتباع العالم لمنهج منظم ، وكذلك عند نقطة نهاية هذا البحث ، عندما يكوِّن العالِم من النتائج التى يتوصل إليها نسقًا مترابطا يستبعد أي نوع من التنافر فى داخله .

(٣) البحث عن الأسباب :

- لا يكون النشاط العقلى للإنسان علما ، بالمعنى الصحيح ، إلا إذا استهدف فهم الظواهر وتعليلها ، ولا تكون الظاهرة مفهومة ، بالمعنى العلمى لهذه الكلمة ، إلا إذا توصلنا إلى معرفة أسبابها . وهذا البحث عن الأسباب له هدفان :

أ - الهدف الأول هو إرضاء الميل النظرى لدى الإنسان ، أو ذلك النزوع الذي يدفعه إلى البحث ، عن تعليل لكل شيء . ولنلاحظ أن هذا الميل ، الذى نصفه بأنه نظري ، لايوجد فى جميع الحالات بدرجة متساوية ، فهناك حضارات بأكملها كانت تعتمد على الخبرة والتجربة المتوارثة ، وتكتفى بالبحث عن الفائدة العملية أو التصرف الناجح ، دون سعى إلى إرضاء حب الاستطلاع الهادف إلى معرفة أسباب الظواهر. وهكذا كانت هذه الحضارات تشيد مبانى ضخمة ، أو تقوم فى تجارتها بحسابات دقيقة ، دون أن تحاول معرفة « النظريات » الكامنة من وراء عملية البناء أو الحساب ، وحسبها أنها حققت الهدف العلمى المطلوب فحسب . بل إن فى وسعنا أن نرى من حولنا أشخاصا لايهتمون إلا « ببلوغ النتيجة » ، ولا يكترثون بأن يسألوا :

« لماذا » كانت النتيجة على هذا النحو ، وربما رأوا فى هذا السؤال حذلقة لاتستحق إضاعة الوقت ، ما دامت الإجابة عنه لن تقدم ولن تؤخر فى بلوغ النتيجة المطلوبة .

ب- ولكن هذا الاعتقاد بأن معرفة الأسباب ليس لها تأثير عملى ، هو اعتقاد واهم . ذلك لأن معرفة أسباب الظواهر هى التى تمكننا من أن نتحكم فيها على نحو أفضل ، ونصل إلى نتائج عملية أنجح بكثير من تلك التى نصل إليها بالخبرة والممارسة . فمن الدراسة الدقيقة لطبيعة الموجات الصوتية وكيفية انتقالها أمكن ظهور سلسلة طويلة من المخترعات ، كالتليفون ولاقط الاسطوانات (« البيك أب » ، أو ما كان يسمى فى تعريب قديم باسم « الحاكى ») والراديو ومسجل الشرائط ، الخ .... وكلها وسائل لنقل الصوت أدت وظائف عملية رائعة ، وكان من المستحيل بلوغها لولا الدراسة المعتمدة على معرفة أسباب الظواهر . ومعرفة أسباب الأمراض لازمة حتى يمكن معالجتها ، كما أن المعرفة النظرية للعناصر الفعالة فى غدة معينة يمكّن من استخراج هذه العناصر بطريقة صناعية وإنقاذ ملايين الأرواح (كالإنسولين المستخدم فى علاج مرضى السكر مثلا) . وهكذا تؤدى المعرفة السببية ، ليس فقط إلى إرضاء نزوعنا النظرى إلى فهم حقائق الأشياء ، بل إلى مزيد من النجاح فى الميدان العملى ذاته ، وتتيح لنا تحوير الظواهر وتغيير طبيعتها على النحو الذى يضمن تسخيرها لخدمة أهدافنا العملية .

من أجل هذين العاملين كانت المعرفة العلمية الحقيقية مرتبطة بالبحث عن أسباب الظواهر . وإذا كان كثير من المؤرخين يتخذون من آراء الفلاسفة اليونانيين القدماء نقطة بداية للعلم ، فما ذلك إلا لأن هؤلاء الفلاسفة قد

تفوقوا على غيرهم فى التساؤل ، وفى البحث عن الأسباب . صحيح أنهم لم يجدوا إجابات إلا عن قليل من الأسئلة التى طرحوها ، وأن كثيرا من إجاباتهم كانت ساذجة أو قاصرة ، ولكن المهم أن يُطرح السؤال ، وهذا الطرح هو فى ذاته الخطوة الأولى فى طريق العلم . بل إن هذا التساؤل عن الأسباب هو أول مراحل المعرفة فى حياة الفرد نفسه : ففى السنوات الأولى من عمر الطفل تحكم تصرفاته الدوافع الطبيعية والاستجابات المباشرة ، ويسودها مبدأ الفعل ورد الفعل ،ولكن فى مرحلة معينة ، تحدد بحوالى سن السابعة ، وربما قبل ذلك ، يبدأ الطفل فى السؤال عن أسباب كل مايراه حوله . وتصبح كلمة « لماذا » أكثر الكلمات ترددا على اللسان ، وربما أضجر المحيطين به بتكرارها ، وباستخدامها فى السؤال عن أسباب ظواهر لا تحتاج إلى تعليل . (كأن يسألك : « لماذا » عندما تقول له إنك شبعت . وفى هذه المرحلة بالذات تبدأ حصيلة المعرفة تتراكم فى ذهن الطفل ، ويكون ترديد هذا السؤال إيذانا بدخوله مرحلة استخدام التفكير العقلى .

وإذن فالعلم مرتبط ارتباطا وثيقا بالبحث عن أسباب الظواهر . ومع ذلك فإن طبيعة هذا البحث عن الأسباب ، ومعنى كلمة « السبب » ذاتها ، لم تكن واضحة كل الوضوح فى أذهان الناس ، على الرغم من أنهم لايكفون عن استخدامها فى تفكيرهم العلمى ، وربما فى تفكيرهم اليومى أيضا .

فعند اليونانيين ظهر مفهوم معقد لفكرة « السبب » و « السببية »، على الرغم من اهتمامهم الشديد بهذا الموضوع وريادتهم له . وقد لخص فيلسوفهم الكبير « أرسطو » آراء اليونانيين السابقين عليه ، بالإضافة إلى آرائه الخاصة ، حول الموضوع ، فذكر أن هناك أنواعاً أربعة من الأسباب :

ا ـ السبب المادي ، كأن نقول عن الخشب الذي يصنع منه السرير إنه سبب له .

ب ـ السبب الصوري ، أي أن الهيئة أو الشكل الذي يتخذه السرير ، والذي يعطيه إياه صانعه ، هو أيضا سبب له .

جـ ـ السبب الفاعل ، أي أن صانع السرير ، أو النجار ، هو سببه .

د ـ السبب الغائي ، أي أن الغاية من السرير ، وهي استخدامه في النوم ، سبب من أسبابه .

ومن الواضح أن هذا التحديد لمعاني كلمة « السبب » وأنواع الأسباب ينطوي على خلط شديد ، إذ أن « المادة » التي يصنع منها الشيء ليست إلا أداة ، لا سببا ، كما أن « الصورة » هي فكرة في الذهن ، لاتنتج شيئا في العالم المحسوس بصورة مباشرة . أما الغاية فلا يأتي دورها إلا بعد أن يتم إيجاد الشيء ، أو الظاهرة ، بالفعل . فاستخدام السرير يحدث بعد صنع السرير، ومن هنا لم يكن من المعقول أن تكون هذه الغاية سببا . وهكذا يتبقى لدينا في النهاية نوع واحد من الأنواع الأربعة التي تحدث عنها أرسطو ، هو السبب « الفاعل » ، وهو النوع الذي يمكن الاعتراف به .

والواقع أن « السبب الغائي » يستحق وقفة خاصة ، إذ أنه كان من أهم عوامل تشويه التفكير في موضوع السببية ، بل في العلم بأسره . ذلك لأن الأذهان قد اتجهت إلى البحث ، في كل ظاهرة ، عن « الغايات » المقصودة منها ، فكانت النتيجة أنها تصورت الحوادث الطبيعية ، بل والعالم كله ، كما لو كانت تستهدف « غايات » ، وكأنها تسير في طريق يؤدي إلي تحقيق رغبات بشرية معينة أو إلى معاكسة هذه الرغبات . وكان من المستحيل أن يقوم علم حقيقي في ظل هذا التصور « الغائي » للطبيعة لأنه يصرف الأنظار عن كشف الأسباب الحقيقية ، ويوجهها نحو طبع الصورة

البشرية على أحداث الطبيعة . وعلى أية حال فهذه مسألة عولجت بمزيد من التفصيل فى موضع آخر من هذا الكتاب . (١)

لذلك كان من الطبيعى أن تُستبعد كل أنواع الأسباب الأخرى ، وخاصة الأسباب الغائية ، من مجال العلم الحديث عند بداية ظهوره بحيث يقتصر البحث على « الأسباب الفاعلة » ، وتظهر الطبيعة على أنها سلسلة متشابكة من الحوادث التى يؤثر كل منها فى الاخريات ويتأثر بها ، وترتبط فيما بينها برابطة السببية . وأصبح هدف العلم هو أن يكشف ، بأساليب مقنعة للعقل ، عن الأسباب المتحكمة فى الظواهر ، من أجل السيطرة عليها عقليا بالفهم والتعليل ، وعمليا بالتشكيل والتحوير . وكان لتقدم العلوم الرياضية ، واستخدامها فى التعبير عن قوانين العالم الطبيعى ، دور كبير فى دعم فكرة السببية فى أول عهد العلم الحديث ، أى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر (٢) . إذ أصبح الاعتقاد سائدا بأن حوادث الطبيعة المادية تترابط فيما بينها برابطة لاتقل ضرورة عن تلك التى تجمع بين طرفى معادلة مثل ٢ + ٢ = ٤ . فإذا كانت هناك نار « فمن الضرورى» أن تكون هناك حرارة ، مثلما أنه إذا كان هناك مثلث « فمن الضرورى » أن يكون مجموع زواياه قائمتين . وهكذا كان العلم المزدهر فى ذلك العصر هو الفيزياء الميكانيكية ، التى هى أكمل تعبير عن فكرة الترابط السببى بين ظواهر الطبيعة : إذ أن العالم يُعد عندئذ آلة ضخمة ، تترابط أجزاؤها بقانون الفعل ورد الفعل ، وتنتقل الحركة من جزء إلى آخر وإن ظل المجموع الكلى للحركة فى الكون واحدا ، ويصبح القانون المسيطر على كل شىء

---

(١) انظر الفصل الثانى .

(2) Jean Laloup : La Science et l'humain , Paris (Casterman) (2) 1960 P. 124

والذى يتوقف عليه مصير العلم ، هو قانون السببية .

على أن العلماء كانوا يستخدمون فكرة السببية دون تحليل ، فلم يفكر أحد منهم فى إيضاح معنى « السبب » وطبيعة العلاقة التى تربط بين السبب وما ينتج عنه . وكان الاهتمام الكبير الذى أبدى بفكرة السببية فى مطلع العصر الحديث ، نتيجة لسيطرة النظرة الميكانيكية إلى العالم ، هو الذى دعا أحد فلاسفة هذا العصر ، وهو « ديفد هيوم David Hume » إلى القيام بتحليل فلسفى لمفهوم السببية ، انتهى منه إلى نتيجة كانت لها ، من الناحية الفلسفية ، أصداء عميقة . فقد انطلق هيوم من المفهوم الذى أوضحناه من قبل ، والذى كان سائدا فى العلم الميكانيكى ، أى فى أهم علوم عصره ، وأعنى به أن العلاقة بين السبب والنتيجة فيها من الضرورة بقدر ما فى العلاقة بين المثلث ومجموع زواياه . وتبين له ، من خلال تحليله الفلسفى ، أن المسألة فى حقيقتها على خلاف ذلك . فمن المستحيل أن تكون هناك ضرورة حتمية بين الحوادث الطبيعية ونتائجها ، أى بين ارتفاع نسبة الرطوبة وسقوط المطر مثلا . صحيح أننا نقول إن الأول سبب الثانى ، ولكن هل يعنى ذلك أن هناك قوة خفية فى الحادث الأول تؤدى إلى وقوع الحادث الثانى ؟ وهل تقوم الرطوبة بإسقاط المطر ، مثلما نقوم نحن ، بجهدنا البشرى ، بصنع أشياء ؟ الواقع أن الأسباب الموجودة فى الطبيعة لاتتضمن أية قوى تنتج شيئا ، ولا توجد أية ضرورة تحتم سقوط المطر بعد ارتفاع نسبة الرطوبة ، وكل ما فى الأمر أننا « اعتدنا » أن نرى الظاهرتين تتعاقبان ، فنشأ عن هذا التعاقب المتكرر ميل ذهنى لدينا إلى الربط بينهما ، بحيث أننا كلما رأينا الظاهرة الأولى توقعنا الثانية . فالخبرة والتجربة البشرية تكشف لنا عن أن الطبيعة لا تتضمن إلا أحداثا متعاقبة ، ونحن الذين نربط بين هذه الحوادث المتعاقبة نتيجة التعود ، بحيث يكون

أصل الضرورة فى عقولنا نحن ، التى يدفعها التعود إلى توقع شىء بعد شىء آخر ، أما الطبيعة ذاتها فلا تتضمن حوادثها أى ارتباط ضرورى من ذلك الذى نجده فى الرياضيات .

وهكذا اعتقد « ديفد هيوم » أن الأساس الأول للعلم ، وهو فكرة السببية ، بات مزعزعا نتيجة هذا التحليل الذى قام به . ولكن حقيقة الأمر هى أن هذا التحليل لايمتد تأثيره إلا إلى ميدان التفكير الفلسفى فحسب ، أما الممارسات العلمية فلا تتأثر به . ذلك لأن العالم يستطيع أن يمضى فى طريقه ، دون أن يغير اتجاهه ، سواء أكان معنى السببية هو الارتباط الضرورى ، أم كان معناها مجرد التعاقب ، لأن هذه مسائل تتعلق بالجذور الفلسفية للمفاهيم العلمية ، وما يهم العالم هو استخدام المفهوم على ما هو عليه ، أما استخلاص معانيه وأسسه وجذوره ، فتلك مهمة الفيلسوف وحده .

لذلك فإن العلم ، عندما عدّل المفهوم التقليدى للسببية فيما بعد ، لم يفعل ذلك لأسباب فلسفية ، أو نتيجة لنقد من النوع الذى قال به هيوم ، وإنما قام بهذا التعديل لأسباب علمية خالصة . فقد تبين له أن هناك ظواهر كثيرة تبلغ من التعقيد حدا يستحيل معه أن نجد لها سببا واحدا ، وإنما تشترك فيها مجموعة من العوامل ، لكل منها دور فى إحداث الظاهرة . فإذا كنا مثلا بصدد تعليل ظاهرة الإجرام ، كان فى إمكاننا أن نجد مجموعة كبيرة من العوامل التى تؤدى إلى هذه الظاهرة . فلو أخذنا مجموعة كبيرة من المجرمين ، لوجدنا أن منهم من ارتكب جريمته لأسباب اجتماعية اقتصادية كالفقر ، ومنهم من ارتكبها لأسباب متعلقة بالقيم ، كالمحافظة على الشرف أو الأخذ بالثأر ، أو لأسباب عضوية وراثية ، كوجود اختلال معين فى الغدد أو فى التركيب العقلى ، أو لأسباب متعلقة بالبيئة

والتربية ، وهلم جرا . كل من هذه العوامل له دوره فى ظاهرة الجريمة ، فهل يفيدنا أن نلجأ إلى فكرة السببية بمعناها المعتاد فى هذه الحالة ؟ من الواضح أن الظاهرة تبلغ من التعقيد حدا لانستطيع معه أن ننسبها إلى سبب معين . ولذلك نلجأ إلى فكرة الارتباط الإحصائى لكى تبين النسبة التى يسهم بها كل عامل من العوامل السابقة فى أحداث هذه الظاهرة ، فنقول إن نسبة (أو معامل) ارتباط العوامل الوراثية بارتكاب الجرائم هى كذا .. ومن مزايا هذه الطريقة أنها تمكننا من تحليل الظواهر شديدة التعقيد ، وخاصة تلك التى تحدث فى مجال العلوم الإنسانية ، حيث تتعدد عوامل الظاهرة الواحدة وتتشابك على نحو يستحيل فيه استخدام علاقة السببية المباشرة . كما أن من مزاياها أنها تتيح المقارنة ، بطريقة رقمية دقيقة ، بين هذه العوامل ، بحيث نستخلص مثلا أن العوامل المكتسبة أقوى تأثيرا فى ظاهرة الإجرام من العوامل الوراثية ، الخ ....

والمهم أن العلم فى الوقت الحالى يبحث عن بدائل لفكرة السببية ، بمفهومها التقليدى ، فى المجالات التى لا يتسع فيها هذا المفهوم للتعبير عن العلاقات بين الظواهر تعبيرا دقيقا ، ولكن من المهم أن نذكر على الدوام أن هذا لايعنى « إلغاء » فكرة السببية ، بل يعنى « توسيعها » . ففى المجالات التى تكون العلاقات فيها مباشرة بين عامل وعامل آخر ناتج عنه ، كالعلاقة بين جرثومة معينة ومرض معين ، تظل فكرة السببية مستخدمة ، وتظل لها فائدتها الكبرى فى العلم . والتطور الذى حدث فى هذا الصدد مشابه للتطور الذى حدث فى النظريات العلمية ذاتها فى أحيان كثيرة ، حيث لايؤدى ظهور النظرية الجديدة إلى إلغاء القديمة ، بل يوسع نطاق تطبيقها ويمتد بها إلى مجالات لم تكن النظرية القديمة قادرة على استيعابها . ومن المؤكد أن التوسيع المستمر لنطاق البحث العلمى ، والكشف الدائم عن

مجالات جديدة أو عن أبعاد جديدة للمجالات المعروفة من قبل ، يجعل فكرة السببية ، بمعنى العلاقة المباشرة بين عامل وعامل آخر ناتج عنه ، غير كافية للتعبير عن كل متطلبات العلم ، وإن ظل لها دورها في مجالات محددة .

(٤) الشمولية واليقين :

المعرفة العلمية معرفة شاملة ، بمعنى أنها تسرى على جميع أمثلة الظاهرة التى يبحثها العلم ، ولا شأن لها بالظواهر فى صورتها الفردية . وحتى لو كانت هذه المعرفة تبدأ من التجربة اليومية المألوفة ، مثل سقوط جسم ثقيل على الأرض ، فإنها لا تكتفى بتقرير هذه الواقعة على النحو الذى نشاهدها عليه ، وإنما تعرضها من خلال مفاهيم ذات طابع أعم ، مثل فكرة الجاذبية والكتلة والسرعة والزمن ، الخ ، بحيث لاتعود القضية العلمية تتحدث عن سقوط هذا الجسم بالذات ، أو حتى عن مجموعة الأجسام المماثلة له ، بل عن سقوط الجسم عموما . وبذلك تتحول التجربة الفردية الخاصة ، على يد العلم ، إلى قضية عامة أوقانون شامل . على أن شمولية العلم لاتسرى على الظواهر التى يبحثها فحسب ، بل على العقول التى تتلقى العلم أيضا . فالحقيقة تفرض نفسها على الجميع بمجرد ظهورها ، ولايعود فيها مجال للخلاف بين فرد وآخر . أى أن العلم شامل بمعنى أن قضاياه تنطبق على جميع الظواهر التى يبحثها ، وبمعنى أن هذه القضية تصدق فى نظر أى عقل يلم بها .

وهنا يظهر الاختلاف واضحا بين العمل العلمى والعمل الفنى أو الشعرى . ذلك لأن الموضوع الذى يتناوله هذا العمل الأخير هو بطبيعته موضوع فردى ، وحتى لو كان يتناول قضية عامة ـ مثل أزمة الإنسان ـ فإن الفنان أو الشاعر يعالج هذه القضية العامة من خلال شخصية فردية ،

ومواقف محسوسة وملموسة . ومن ناحية أخرى فإن العمل الفنى يظل على الدوام مرتبطا بصاحبه ، وبالأصل الذى نشأ منه ، ارتباطا عضويا ، بحيث لايفهم أحدهما فهما تاما بدون الآخر . وهكذا يتعرف الخبير فى الموسيقى أو الشعر على مؤلف القطعة الموسيقية أو القصيدة الشعرية من خلال إنتاجه ذاته ، وكل من العمل وصاحبه يحيلنا على الدوام إلى الآخر. أما العمل العلمى فلا يوجد ارتباط عضوى بينه وبين جميع العوامل والظروف الشخصية المتعلقة بكيفية نشأته والشخص الذى ظهرت على يديه ، الخ . ومن هنا كانت الحقيقة العلمية « لاشخصية Impersonal » على عكس العمل الفنى ، وكان صدق هذه الحقيقة غيرمتوقف على ظروف المكان والزمان الذى تنشأ فيه ـ إلا من حيث تعبيرها عن مستوى العلم فى مرحلة معينة من تطوره فحسب . أما العمل الفنى فإن الظروف الفردية والشخصية لمبدع هذا العمل تقوم فيه بدور يستحيل تجاهله إذا شئنا أن نفهم هذا العمل ونتذوقه من جميع جوانبه .

وعلى ذلك فإن الحقيقة العلمية قابلة لأن تُنقل إلى كل الناس الذين تتوافر لديهم القدرة العقلية على فهمها والاقتناع بها . أى أنها حقيقة عامة أو « مشاع Public » ، تصبح بمجرد ظهورها ملكا للجميع ، متجاوزة بذلك النطاق الفردى لمكتشفها والظروف الشخصية التى ظهرت فيها . وهذه الصفة هى التى تجعل الحقيقة العلمية « يقينية » .

والواقع أن « اليقين » فى العلم مرتبط ارتباطا وثيقا بطابع « الشمول » الذى قلنا إن القضايا العلمية تتسم به ، إذ أن كل عقل لابد أن يكون « على يقين » من تلك الحقيقة التى تفرض نفسها عليه بأدلة وبراهين لايمكن تفنيدها . على أن كلمة « اليقين » ذاتها بقدر ماتبدو واضحة للوهلة الأولى ، يمكن أن تُستخدم فى الواقع بمعنين متضادين ، ينبغى أن نميز بينهما

بوضوح حتى تتبين لنا طبيعة اليقين العلمي :

١ ـ فهناك نوع من اليقين نستطيع أن نطلق عليه اسم « اليقين الذاتى» وهو الشعور الداخلى لدى الفرد بأنه متأكد من شىء ما. هذا النوع من اليقين كثيرا ما يكون مضللا ، إذ أن شعورنا الداخلى قد لايكون مبنيا على أى أساس سوى ميولنا أو اتجاهاتنا الذاتية . وإنا لنلاحظ فى تجربتنا العادية أن أكثر الناس « يقينا » هم عادة أكثرهم جهلا : فالشخص محدود الثقافة « موقن » بصحة الخبر الذى يقرأه فى الجريدة ، وبصحة الإشاعة التى سمعها من صديقه ، وبصحة الخرافة التى كانت تردد له فى طفولته . وهو لا يقبل أية مناقشة فى هذه الموضوعات لأنها فى نظره واضحة ، يقينية. وكلما ازداد نصيب المرء من العلم تضاءل مجال الأمور التى يتحدث فيها « عن يقين » وازداد استخدامه لألفاظ مثل « من المحتمل » و « من المرجح » ، و« أغلب الظن » الخ .. بل إننا نجد بعض العلماء يسرفون فى استخدام هذه التعبيرات الأخيرة فى كتاباتهم إلى حد لانكاد نجد معه تعبيرا جازما أو يقينا واحدا فى كل مايكتبون ، إذ ممارستهم الطويلة للعمل العلمى ، وإدراكهم أن الحقائق العلمية فى تغير مستمر ، وأن ما كان بالأمس أمرا مؤكدا قد أصبح أمرا مشكوكا فيه ، وقد يصبح غدا أمرا باطلا ، كل ذلك يدفعهم إلى الحذر من استخدام اللغة القاطعة التى تعبر عن يقين نهائى .

أما فى أساليب التفكير العادية فإن اليقين يعتمد ، كما قلنا ، على الشعور الداخلى للشخص نفسه بأنه واثق من شىء معين . وهذه الثقة قد تكون ناتجة عن أن الفكرة التى يرددها تخدم مصالحه : فإذا سمع الموظف إشاعة تقول إن الحكومة ستصرف علاوة للموظفين ، رددها للآخرين باعتبارها خبرا « يقينيا » . أو قد تكون الثقة ناتجة عن عدم الاطلاع على وجهة النظر المضادة ، فيؤكد الفرد شيئا بصفة قاطعة لأن الفرصة لم تتح له كيما يعرف

الرأى المخالف فى الموضوع . وهذا أمر شائع فى كثير من المناقشات السياسية ، وخاصة فى البلاد غير الديمقراطية ، حيث يعرف المرء وجهة نظر حزبه أو بلاده ولاتتاح له معرفة أية وجهة نظر أخرى . كما أن هذا العامل قد يكون سببا فى « يقين » من ينتمى إلى أية طائفة دينية بأن طائفته وحدها على حق ، وكل الطوائف الأخرى على خطأ .

ب ـ على أن العلم لايمكن أن يرتكز على هذا النوع من اليقين النفسى، الذى يختلف من فرد لآخر ، والذى تتحكم فيه الظروف والمصالح والعوامل الذاتية ، وإنما يكون اليقين فيه « موضوعيا » ، بمعنى أنه يرتكز على أدلة منطقية مقنعة لأى عقل . ولابد للوصول إلى هذا اليقين الموضوعى من هدم كل أنواع اليقين الذاتية الأخرى . فلابد أن يزعزع العالم ـ كخطوة أولى فى بحثه ـ ما رسخ فى عقول الناس من أوهام وتحيزات عملت على تثبيتها عوامل غير موضوعية . وكثيرا ماكانت نقطة البداية المؤدية إلى كشف علمى هام هى التشكيك فى يقين راسخ حتى عند العلماء أنفسهم ، كما هى الحال عندما شكك بعض علماء الهندسة فى المصادرة القائلة إن الخطين المتوازيين لايلتقيان ، ثم توصلا من ذلك إلى هندسة جديدة هى الهندسة « اللا إقليدية » ، التى ترتكز عليها النظريات الحالية فى الفيزياء . كذلك يؤدى أى كشف علمى هام إلى زعزعة اليقين الذى كان متوطدا من قبل فى عقول البشر دون أن يفكر أحد فى المساس به ، أى إلى حلول يقين علمى موضوعى محل يقين ذاتى : كما حدث عند ظهور نظرية كبرنيكوس التى هدمت الاعتقاد « اليقينى » القديم بأن الأرض ثابتة وبأنها هى مركز الكون .

ولكن ، إذا كان اليقين العلمى يعتمد على براهين وأدلة منطقية ، فإن هذا لايعنى على الإطلاق أنه يقين ثابت أو نهائى . فالعلم لايعترف بشىء

اسمه الحقائق النهائية التى تسرى على كل زمان ومكان ، بل يعمل حسابا للتغير والتطور المستمر . أى أن اعتماد العلم على أدلة مقنعة للعقل بصورة قاطعة ، لا يعنى أن الحقائق تعلو على التغير، بل إن المقصود من ذلك أن البرهان العلمى يقنع كل من يستطيع فهم هذا البرهان فى ضوء حالة العلم فى عصر معين ـ أما أن تتحول القضية العلمية إلى حقيقة تفرض نفسها على الناس فى جميع العصور ، فهو شيء يتنافى مع طبيعة العلم ذاتها .

(٥) الدقة والتجريد :

فى حياتنا المعتادة نستخدم فى أحيان كثيرة عبارات تتسم بالغموض ، وتبتعد عن الدقة ، كأن يقول شخص : « قلبى يحدثنى بأنه سيحدث كذا ... » وأمثال هذه التعبيرات ليست مرفوضة فى الأحاديث اليومية المألوفة ، بل إنها قد تؤدى فيها وظيفة هامة ، هى الإيحاء بشيء معين دون تحديد دقيق له . أما فى العلم فمن غير المقبول أن تترك عبارة واحدة دون تحديد دقيق له ، أو تستخدم قضية يشوبها الغموض أو الالتباس . بل إنه حتى فى الحالات التى لايستطيع فيها العلم أن يجزم بشيء ما على نحو قاطع ، وإنما يظل هذا الشي « احتماليا » فى ضوء أحدث معرفة وصل إليها العلم ـ حتى فى هذه الحالات يعبر العلم عن هذا « الاحتمال » بدقة ، أى بنسبة رياضية محددة ، وبذلك فإنه يحدد بدقة درجة عدم الدقة ، إذا جاز لنا أن نستخدم تعبيرا فيه مثل هذه المفارقة .

والوسيلة التى يلجأ إليها العلم من أجل تحقيق صفة الدقة هذه ، هى استخدام لغة الرياضيات . وبالفعل يتبين لنا من دراسة تطور العلم أنه كلما انتقل إلى مرحلة أدق ، أصبح من المحتم عليه أن يستخدم الصيغ الرياضية على نطاق أوسع ، وبالعكس تظل العلوم غير دقيقة مادامت تعبر عن قضاياها باللغة العادية . ومن هنا كنا نجد بعض مؤرخى العلم يفرقون فى

تاريخ أى علم بين مرحلتين : المرحلة قبل العلمية pre-scientific التى يستخدم فيها لغة الحدث المعتادة ، والمرحلة العلمية scientific , التى يتوصل فيها إلى استخدام اللغة والأساليب الرياضية . والمثل الواضح على ذلك علم الطبيعة : فمنذ العصور القديمة كانت هناك محاولات لدراسة الطبيعة على أسس علمية ، ولكن كان يعيب هذه المحاولات اعتمادها على لغة « كيفية » ، أى على الكلام عن الظواهر الطبيعية من خلال صفاتها التى تبدو للحواس المعتادة ، كالحار والبارد والثقيل والخفيف ، أو من خلال الصفات التى ينسبها إليها العقل الفلسفى ، كالمادة والصورة والقوة والفعل. وخلال ذلك كله لم يكن هناك علم طبيعى بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . ولم يبدأ ظهور هذا العلم إلا على أيدى أقطاب الفيزياء فى أوائل العصر الحديث ، وعلى رأسهم جاليليو ، إذ استطاع هؤلاء الأقطاب أن يطبقوا الرياضيات على البحث الطبيعى ، ويطبقوا لغة الكم فى التعبير عن الظواهر الطبيعية . وبالمثل ظلت الكيمياء تستخدم اللغة الكيفية طويلا ، وتجمعت لديها خلال ذلك كمية لابأس بها من المعلومات ، وخاصة فى الوقت الذى كان فيه الكيميائيون القدامى يبحثون بلا جدوى عن وسائل تحويل المعادن الرخيصة (كالنحاس) إلى ذهب . فخلال فترة « الهوس » الطويلة هذه ، عرفت أشياء كثيرة عن خواص الاجسام وتفاعلاتها ، ولكن هذه المعرفة كانت خبرات متوارثة ، أو تجارب عشوائية ، ولم تكن علما ، لأنها لم تكن تستخدم إلا لغة الكيف . ولم تبدأ الكيمياء دخول المرحلة العلمية إلا فى القرن الثامن عشر عندما طبقت فيها المناهج الكمية ، واستخدمت فى التعبير عن حقائقها النسب والمعادلات الرياضية . أما فى العلوم الإنسانية ، فيمكن القول إن النزاع لم يبت فيه بعد بين أنصار التعبير الكيفى والتعبير الكمى عن الظواهر البشرية . إذ لاتزال توجد حتى يومنا هذا مدارس تؤكد أن

الظاهرة الإنسانية مختلفة ، من حيث المبدأ ، عن الظاهرة الطبيعية ، ومن ثم فإن أساليب التعبير عن الثانية لاتصلح للأولى ، وإنما يجب أن نحتفظ للإنسان بمكانته الخاصة ، ونعترف بطبيعته شديدة التعقيد ، فلا نفرط في تبسيطها باستخدام لغة الرياضيات . وفضلا عن ذلك فإن الإنسان كائن فريد ، وأهم مافى أي فرد هو العناصر التى يختلف فيها عن الآخرين ، لا تلك التى يشترك فيها معهم ، ومن هنا كان استخدام لغة الرياضيات يعنى إزالة أهم مميزات الإنسان ، واستبقاء أقل الأشياء أهمية ، أعنى تلك العناصر المشتركة التى تقبل التعبير عنها بلغة عددية . وفي مقابل ذلك يؤكد غيرهم أن مسار المنهج العلمى ينبغى أن يكون واحدا فى جميع المجالات ، وأن الدراسة الفردية للإنسان تعود بنا إلى عهد التعبير الفلسفى أو الفنى أو الشعرى عن مشاكله ، على حين أننا إذا أردنا أن ننتقل إلى المرحلة العلمية في دراسة الإنسان فلا بد أن نتبع نفس الأساليب التى اتبعت بنجاح فى بقية العلوم ، مع عمل حساب الفوارق المميزة بين موضوع الدراسة الإنسانية وموضوع الدراسة الطبيعية . ويمكن القول إن هذا الرأى هو الذى ترجح كفته حاليا فى ميدان العلوم الإنسانية ، وإن كانت هناك مدارس لايمكن تجاهلها مازالت متمسكة بالرأى الأول .

والرياضة بطبيعتها علم مجرد ، أى أنه لا يتحدث عن أشياء ملموسة. فحين نقول أن ٣ + ٢ = ٥ لايكون المقصود من هذا أية ثلاثة أشياء محددة ، وإنما المقصود هوالعلاقة المجردة بين حدود معينة ، بغض النظر تماما عما إذا كانت هذه الأرقام تعبر عن بشر أو فاكهة أو كتب الخ ... وتلك حقيقة يعرفها تلميذ المدرسة الابتدائية ، الذى نعوده التجريد منذ مرحلة مبكرة من عمره و بعد أن يكون قد بدأ يلم بحقائق الحساب البسيطة فى بداية مرحلته التعليمية ، بصورة ملموسة ، عندما نقدم إليه

فكرة الجمع والطرح عن طريق « البلى الملون » الذى نجمعه أونطرحه على أسلاك حديدية . ففترة التعليم من خلال أمثلة ملموسة هذه لاتستمر طويلا ، وسرعان مايصبح من الضرورى أن نعوّده كيف يتعامل مع الرقم « ثلاثة » ناسيا أنه يعبر عن ثلاث بليات أو ثلاث برتقالات . وعندما ينتقل إلى المرحلة التعليمية التالية ، نعوّده على مزيد من التجريد حين نقدم إليه حقائق الرياضة فى صورة رموز جبرية ، فيعرف أن المعادلة س + ص = ص + س تظل صحيحة مهما كانت القيم العددية للحرفين س و ص ، أى أن التجريد هنا أصبح يسرى على الأرقام ذاتها .

ومن هنا كان التجريد صفة ملازمة للعلم : سواء تم ذلك التجريد عن طريق الرياضة (وهو الأغلب) أو عن طريق أى نوع آخر من الرموز أو الأشكال . فحين يتحدث عالم الفلك مثلا عن المدار البيضاوى لكوكب معين، لايعنى بذلك أن هذا الكوكب يرسم وراءه مدارا محددا فى السماء ، وإنما يعنى ذلك الخط الذى نتصور ، بناء على تتبع حركة الكواكب ، أنه يسير فيه . وحين يتحدث عالم الجغرافيا عن خط الاستواء ، أو خط جرينتش ، لا يقصد خطا عرضيا أو طوليا مرسوما على صفحة الكرة الأرضية ، بل يقصد خطا تخيليا نرمز به إلى الأماكن والمواقع على سطح هذه الأرض . وهذه الخطوط ومعها مختلف الرموز التى نستخدمها فى العلم ، هى عالم مصطنع يخلقه العالم ، ولا وجود له فى الطبيعة ، بل إن وجوده ذهنى فحسب .

هذا العالم المصطنع الذى نستحدثه فى أبحاثنا العلمية ، وتلك التجريدات العقلية التى نفهم من خلالها الظواهر الطبيعية ، تباعد بيننا وبين عالم التجربة اليومية بالتدريج . ولوتتبعنا مسار العلم لوجدنا أن تصيب هذه التجربة المألوفة يتضاءل فيه على الدوام ، على حين يزداد العلم إيغالا فى

عالم الرموز والتجريدات الذى خلقه بنفسه ، ويصبح القدر الأكبر من التعامل الذى يقوم به العالم ، هو تعامله مع تلك الكيانات الفعلية التى استحدثها لكى يفهم بواسطتها الظواهر . ومن هنا كان ذلك الاتهام الذى وجهه البعض إلى العلم بأنه يفصلنا عن منابع الحياة العينية الملموسة ، ويقيم عالما مصطنعا أشبه بالهيكل العظمى الذى خلا من اللحم والدم والحيوية ، ويكتفى بالعلاقات المجردة بين الظواهر ، وهى دائما علاقات خارجية لاتنفذ أبدا إلى صميم الواقع .

ولسنا فى حاجة إلى مناقشة هذا الاتهام ، مادمنا قد رددنا عليه فى موضع آخر (١) . ولكن الأمر الذى نود أن نوجه إليه نظرة القارىء هو أن تطور العلم نحو التجريد كان أمرا تحتمه مصلحة العلم ذاته ، وبالتالى يحتمه تقدم المعرفة وتقدم الإنسان . فاستخدام الرموز الرياضية ، ولغة الكم ، يساعد كما قلنا على التعبير عن حقائق العلم بمزيد من الدقة ، إذ أن الفرق هائل ، من حيث الدقة ، بين قولنا إن الحديد ساخن كما كان يقول القدماء ، بمن فيهم من العلماء ، حتى أوائل العصر الحديث ، وبين قولنا إن درجة حرارة الحديد ٣٥٠ درجة مئوية مثلا . وفضلا عن ذلك فإن هذا التحديد الكمى يسمح بالمقارنة بين الظواهر إذ تتحول الألوان مثلا من صفات كيفية إلى أرقام تعبر عن موجات ضوئية معيّنة فيسهل المقارنة بينها ، على حين أن النظرة الكيفية تقيم بين كل لون وآخر حواجز لا يمكن عبورها . وأخيرا فإن التعبير الكمى يتيح لنا أن نتخطى النطاق المحدد للحواس البشرية ، أو لقدراتنا بوجه عام . فهناك أصوات أعلى وأصوات أكثر انخفاضا مما تستطيع الأذن البشرية سماعه ، وهذه الأصوات يمكن تحديد ذبذباتها كميا ، وإن لم يكن من الممكن التعبير عنها باللغة الكيفية

---

(١) انظر الفصل التالى ، العقبة الثالثة (إنكار قدرة العقل) .

المألوفة . كذلك فإن درجات الحرارة التى يتسنى لنا تحملها هى درجات محدودة ، وإذا ارتفعت الحرارة عن درجة معينة (ولتكن ٥٠ مئوية مثلا) ، قلنا عن الجسم أنه ساخن ، ولأننا لانستطيع أن نلمسه فإن الساخن بدرجة ٦٠ لا يختلف ، فى ضوء النظرة الكيفية ، عن الساخن بدرجة ٦٠٠ ، ولكن التحديد الكمى والرياضى هوالذى يمكّننا ، مع الاستعانة بأجهزة القياس المرتبطة به ، من تحديد الدرجات التى تعجز الحواس البشرية عن التعبير عنها ، كما يعبرعن الفوارق الجزئية الضئيلة التى لاتستطيع حواسنا العادية تمييزها .

ولنذكر أخيرا ، فى صدد صفة التجريد هذه ، أن هذه الصفة ، التى يبدو أنها تباعد بين العلم وبين الحى الملموس ، هى التى تكسب الإنسان مزيدا من السيطرة على هذا الواقع ، وتتيح له فهما أفضل لقوانينه . فالعلم المعاصر ، الذى تبدو كتبه وأبحاثه كما لوكانت تعيش متقوقعة فى عالمها الخاص المليء بالرموز والمعادلات والأشكال الهندسية ـ هذا العلم هو الذى يتمكن ، عن طريق هذه الرموز المجردة ذاتها ، من أن يقدم إلينا فى كل يوم كشفا واختراعا جديدا يجعلنا نسيطر على نحو أفضل على ظروف معيشتنا ، ويرفع مستوى حياتنا اليومية ذاتها بلا انقطاع . وتلك هى الصفة الفريدة حقا فى العلم : إن طريقته فى السيطرة على العالم الملموس والتغلغل فيه هى أن يبتعد عنه ويجرده من صفاته العينية المألوفة .

الفصل الثانى

عقبات فى طريق التفكير العلمى

العلم ظاهرة متأخرة فى تاريخ البشرية . وسواء أكنا من القائلين بأن العلم بمعناه الصحيح ، ظهر منذ أربعة قرون فى عصر النهضة الأوروبية ، أو بأنه يرجع إلى العصر اليونانى القديم حين اهتدى الإنسان ، لأول مرة ، إلى منهج البرهان النظرى والمنطقى على قضاياه ، أو حتى إلى الحضارات الشرقية الأقدم عهدا ، التى تركت لنا تراثا يدل على وجود معارف متراكمة لديها تستحق اسم العلم ـ أقول إننا سواء أكنا من القائلين بهذا الرأى أو ذاك ، فلا بد لنا من الاعتراف بأن البشرية عاشت قبل ذلك عشرات الألوف من السنين دون أن يتكشف نشاطها عن تلك الظاهرة التى نطلق عليها اسم العلم . ولو كنا ممن يتقيدون بالمعنى الدقيق لكلمة العلم ، ويشترطون لكى تكون المعرفة علما أن تكون قد اكتسبت مناهج منضبطة تجمع بين الملاحظة الدقيقة والفرض العقلى والتجريب التطبيقى ، وتصطنع الرياضة لغة للتعبير عن قوانينها ، لوجب علينا عندئذ أن نشبّه البشرية بإنسان عاش سبعين سنة من عمره أميا ، ولم يتعلم القراءة والكتابة إلا فى اليومين الآخيرين من حياته !

بل إننا نستطيع أن نقول أن البشرية ، منظورا إليها ككل ، مازالت بعيدة عن اكتساب جميع سمات التفكير العلمى ، ومازال هذا التفكير يقتصر

فيها على مجتمعات معينة ، وحتى فى هذه المجتمعات يتعرض العلم لتشويهات عديدة ، قد تظهر حتى بين المتخصصين فيه .

فهل يعنى ذلك أن العقل الإنسانى ظل خلال هذا التاريخ الطويل خاملا ؟ من المؤكد أن الوعى والتفكير العقلى والنشاط الروحى لم تتوقف لحظة واحدة طوال تاريخ الإنسان ، بل إنها تكاد تكون مرادفة لهذا التاريخ. فمنذ أبعد العصور أنتج الإنسان فنونا كان بعضها رفيعا ، كما أنتج أشعارا وحكما ، وعرف العقائد والشرائع وكون لنفسه نظما اجتماعية وأخلاقية . أى أن عقله يعمل بلا انقطاع ، فلماذا إذن لم ينتج العلم إلا فى وقت متأخر ؟

لقد آثر الإنسان ، طوال الجزء الأكبر من تاريخه ، ألا يواجه الواقع مواجهة مباشرة ، وأن يستعيض عنه بأخيلته أو صوره الذاتية . وهذا أمرلايصعب فهمه : إذ أن المواجهة المباشرة للواقع فيها صعوبة ومشقة ، وتحتاج منه إلى بذل جهد كبير . وعليه أن يروض ذاته على اطراح ميولها الخاصة جانبا ، وقبول الظواهر على ما هى عليه ، ثم استخلاص القانون الكامن من وراء هذه الظواهر، وهو أمر يقتضى مستوى عاليا من التجريد . وهكذا يمكن القول إن اتجاه الإنسان نحو العلم ينطوى على قدر كبير من التضحية : التضحية بالراحة والهدوء والاستسلام للخيال السهل الطليق ، كما ينطوى على عادات عقلية فيها قدر كبير من الصرامة والقسوة على النفس . ولقد قال البعض إن العلم لم يبدأ إلا مع « الرياضة » . وأحسب أن هذه العبارة تغدو أبلغ وأدق فى التعبير عن البداية الحقيقية للعلم لو فهمنا لفظ « الرياضة » هذا ، لا بمعنى أنه علم الأرقام والكم فحسب ، بل أيضا بالمعنى النفسى والأخلاقى ، أى بمعنى رياضة « الروح أو النفس » على اتباع نهج شاق من أجل فهم الظواهر بالعقل والمنطق الدقيق .

وبعبارة أخرى فإن العلم يظهر منذ اللحظة التى يقرر فيها الإنسان أن يفهم العالم كما هو موجود بالفعل ، لا كما يتمنى أن يكون . ومثل هذا القرار ليس عقليا فحسب ، بل إنه بالإضافة إلى ذلك ، وربما « قبل » ذلك ، قرار معنوى وأخلاقى . ولا بد للعقل البشرى أن يكون قد تجاوز مرحلة الطفولة ، التى نصور فيها كل شيء وفقا لأمانينا ، إلى مرحلة النضج التى تتيح لنا أن نعلو على الخلط بين الواقع والحلم أوالأمنية . وهذا مستوى لايصل إليه الإنسان إلا فى مرحلة متأخرة من تطوره .

أما قبل هذه المرحلة فكان من الطبيعى أن يستعيض الإنسان عن العلم بالحلم ، دون أن يدرى أنه يحلم ، وكان من الطبيعى أن تظل البشرية كلها ، طوال ألوف عديدة من السنين ، وفى جميع أرجاء الأرض بلا استثناء، مبتعدة عن رؤية الواقع وفهمه على ماهو عليه . وخلال هذه الفترة « الحالمة » كان الأدب والفن هو المظهر الرئيسى لنشاط الإنسان الروحى . وفى الآداب والفنون يهتم الإنسان بمشاعره الذاتية أكثر مما يهتم بالعالم المحيط به ، وإذا اتجه إلى هذا العالم الخارجى فإنما يتجه إليه من خلال أحاسيسه الخاصة وميوله الذاتية ، فلا يرى إلا مرآة تنعكس عليها انفعالاته وعواطفه .

بل إننا نستطيع أن نقول إن الفلسفة ذاتها ، حين سارت فى طريقها الخاص بوصفها نشاطا عقليا خالصا عند اليونانيين ، كانت تهتم باتساق بنائها الداخلى ، وبتماسك التركيب العقلى الذى يكونه الفيلسوف ، أكثر مما تهتم بالعالم الواقعى . وهذه سمة يمكن استنتاجها بوضوح مما عرضناه من قبل عن الصفات المميزة للعلم النظرى (المختلط بالفلسفة) عند اليونانيين . وحين كانت الفلسفة تتحدث عن عالم الواقع كانت فى معظم الأحيان تصفه بأنه خداع ، بل تعد الحواس خداعة لأنها تختص بإدراك عالم مادى

من طبيعته ألا يكون موضعا لمعرفة صحيحة .

وهكذا ظل الإنسان طويلا يستعيض عن العلم بخيالاته وانفعالاته وحدسه وأفكاره المجردة ، ولم يصطنع منهجا يتيح له الاتصال المباشر بالواقع ، عن طريق الجمع بين العقل والتجربة ، إلا في مرحلة متأخرة من تاريخه . فلابد إذن أن عقبات أساسية حالت دون تحقيق هذا الاتصال المباشر بين الإنسان والعالم عن طريق العلم . ولابد أن الإنسان قد بذل جهودا كبيرة حتى استطاع أن يسيطر على عقله ، ومن ثم يسيطر على العالم . ولابد أن تاريخ النشاط الروحي والعقلي للإنسان كان تاريخا للأخطاء والأوهام التي تغلب عليها الإنسان بمشقة ، بقدر ما كان تاريخا لحقائق اكتسبت بالتدريج . فما هي هذه العقبات التي أخرت ظهور العلم ، والتي لا تزال تشوه صورة المعرفة العلمية حتى يومنا هذا عند فئات كثيرة من البشر ؟

أولا ـ الأسطورة والخرافة :

ظلت الأسطورة تحتل المكان الذي يشغله العلم الآن طوال الجزء الأكبر من تاريخ البشرية .

وترجع أسباب انتشار الفكر الأسطوري إلى أنه كان يقدم ـ في إطار بدائي ـ تفسيرا متكاملا للعالم . فالأساطير القديمة تعبر عن نظرة الشعوب التي اعتنقتها إلى الحياة والطبيعة والعالم ، وتقدم تفسيرا يتلاءم مع مستوى هذه الشعوب ويرضيها إرضاء تاما . وهي فضلا عن ذلك تجمع بين الطبيعة والإنسان في وحدة واحدة ، يزول فيها الحد الفاصل بين هذا وذاك ، بحيث يبدو العالم متلائما مع غايات الإنسان محققا لأمانيه ، وهي ـ كما قلنا منذ قليل ـ سمة رئيسية من سمات الفكر غير الناضج في عصور طفولة البشرية .

ومن الصعب أن يضع المرء حدا فاصلا دقيقا بين الأسطورة والخرافة ، ولكن لو شئنا الدقة لقلنا إن التفكير الأسطورى هو تفكير العصور التى لم يكن العلم قد ظهر فيها بعد ، أو لم يكن قد انتشر إلى الحد الذى يجعل منه قوة مؤثرة فى الحياة وفى طريقة معرفة الإنسان للعالم . فالأسطورة كما قلنا ، كانت تقوم بوظيفة مماثلة لتلك التى أصبح يقوم بها العلم بعد ذلك ، وكانت هى الوسيلة الطبيعية لتفسير الظواهر فى العصر السابق على ظهور العلم . أما التفكير الخرافى فهو التفكير الذى يقوم على إنكار العلم ورفض مناهجه ، أو يلجأ ـ فى عصر العلم ـ إلى أساليب سابقة على هذا العصر . وقد لايكون هذا التحديد للفارق بين لفظى « الأسطورى » و « الخرافى » دقيقا كل الدقة ، ولكنه يفيد على أية حال فى التمييز بين هذين اللفظين اللذين يختلطان ، فى كثير من الأحيان ، فى أذهان الناس . ونستطيع أن نضيف إلى ذلك فارقا آخر ، هو أن الأسطورة غالبا ماتكون تفسيرا « متكاملا » للعالم أو لمجموعة من ظواهره ، على حين أن الخرافة « جزئية » تتعلق بظاهرة أوحادثة واحدة .. ففى العصور البدائية والقديمة كانت الأسطورة تمثل نظاما كاملا فى النظر إلى العالم والإنسان ، وكان هذا النظام يتسم فى كثير من الأحيان ، بالاتساق والتماسك الداخلى ، أما الخرافات فتتعلق بالتفاصيل ، وهى قد تكون متعارضة أو متناقضة فيما بينها ، لأن أحدا لايحاول أن يوفق بين الخرافات المختلفة ويكون منها نظاما أو نسقا مترابطا . ومع ذلك فمن الواجب أن نعترف بأن اللفظين يستخدمان فى أحيان كثيرة بمعنى واحد أو بمعنيين متقاربين ، وإن كانت الدقة العلمية توجب التمييز بينهما .

وأهم مبدأ ترتكز عليه الأسطورة هو المبدأ الذى يعرف باسم « حيوية الطبيعة Animism » . والمقصود بهذا المبدأ هو أن التفكير الأسطورى يقوم

أساسا على صبغ الظواهر الطبيعية ، غير الحية ، بصبغة الحياة ، بحيث تسلك هذه الظواهر كما لو كانت كائنات حية تحس وتنفعل وتتعاطف أوتتنافر مع الإنسان . ولو فكرنا مليا في أية أسطورة فسوف نجدها تعتمد على هذا المبدأ اعتمادا أساسيا . فأسطورة أيزيس وأوزوريس ، التى كان المصريون القدماء يفسرون بها فيضان النيل ، هى إضفاء لطابع الحياة ولانفعالات الأحياء على ظاهرة طبيعية هى الفيضان . وأسطورة خلق العالم على يد سلسلة الآلهة التى تبدأ من زيوس ، عند اليونانيين ، تقوم عى هذا المبدأ نفسه ، إذ يكون لكل جزء من الطبيعة إله خاص به ، ويسلك هذا الإله سلوكا مشابها لسلوك البشر. وقل مثل هذا عن أية أسطورة عند أى شعب قديم أو بدائى .

ولكى ندرك مدى الاختلاف بين هذه النظرة الأسطورية إلى العالم وبين النظرة العلمية الحديثة ، ينبغى أن نشير إلى أن مطلب العلم ، فى الوقت الحاضر ، هو المطلب المضاد : فعلى حين أن الأسطورة تفسر غير الحى عن طريق الحى ، فإن العلم يسعى إلى تفسير الحى عن طريق غيرالحى . أى أن العلم يحاول أن يجد لظواهر الحياة تفسيرا من خلال عمليات فزيائية وكيميائية ، وقد يتفاوت نصيبه في النجاح من مجال إلي آخر ، ولكن ما يهمنا هو الهدف ، الذى يقف على النقيض من هدف التفسير الأسطورى للظواهر .

ولقد كان من الطبيعى أن يسود هذه النوع من التفسير الأسطورى فى عصور طفولة البشرية ، إذ أن أول مايتوقع من الإنسان ، حين يحاول أن يفهم العالم المحيط به ، هو أن يفهمه فى ضوء الحالات التى يمر بها هو ذاته ، لأن المشاعر والانفعالات هى أمور نحس بها فى أنفسنا مباشرة ، ولا تحتاج إلى تعليم أو تدريب خاص . ومن هنا فقد كان طبيعيا أن يصبغ

الإنسان ، فى أول عهده بالمعرفة ، ظواهر الطبيعة بصبغة تلك الأحاسيس والخبرات التى يشعر بها فى نفسه شعورا مباشرا ، فيتصورها كما لو كانت تنفعل وتفرح وتغضب وتحب وتكره مثله . وهكذا علل البشر كسوف الشمس فى إطار التفسير الأسطورى ، بأن الشمسُ غاضبة ، أو بأنها « مكسوفة » (كما تغطى امرأة وجهها حين « تنكسف ») . ومازال لأمثال هذه التفسيرات وجوده فى مجتمعاتنا الشرقية حتى اليوم .

ومن الجدير بالذكر أن مبدأ « حيوية الطبيعة » ، الذى قلنا إن الفكر الأسطورى كله يرتكز عليه ، ظل عقبة فى طريق العلم فى أوروبا ذاتها حتى القرن الثامن عشر على الأقل ، إن لم يكن بعد ذلك . فقد كانت ظاهرة الكهرباء تعد دليلا على وجود مبدأ حيوى يتغلغل فى الأجسام غير الحية . كذلك كانت المغناطيسية تعد مظهرا لوجود الحياة فى الطبيعة (١) . بل إن بعض علماء أوروبا المشهورين ظلوا ، حتى القرن الثامن عشر ، يقولون بإمكان الاهتداء إلى ذكور وأناث فى المعادن ، وكان ذلك يبعث فى نفوسهم أملا كبيرا فى أن يأتى اليوم الذى يكتشف فيه الذهب المذكر والذهب المؤنث ، حتى يمكن تحقيق « التكاثر » فى هذا المعدن النفيس ! بل إن كفاح العالم الفرنسى الكبير « باستير Pasteur » ضد مبدأ التولد التلقائى generation spontanee وهو المبدأ الذى كان يعتقد وفقا له أن الكائنات الحية الدقيقة ، كالديدان وغيرها ، تتولد فى بعض الأجسام الطبيعية « تلقائيا » دون أن تكون قد تولدت عن كائنات حية مماثلة ـ أقول إن هذا الكفاح المرير الذى خاضه « باستير » ضد أكبر علماء عصره يدل على أن

---

(١) يلاحظ أن اللفظ الدال على المغناطيس ، فى اللغة الفرنسية ، يعبر مباشرة عن فكرة حيوية الطبيعة ، فهذا اللفظ ، وهو L'aimant يعنى « المحب » لأن المغناطيس « يجذب » الحديد مثلما يجذب المحب محبوبه .

بقايا مبدأ « حيوية الطبيعة » ظلت راسخة فى أذهان العلماء الأوروبيين حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر . ولا يعنى ذلك أن العلم الأوروبى كان متخلفا أو متوقفا عند مرحلة بدائية ، بل إن هناك كشوفا عظيمة كانت تتحقق منذ القرن السابع عشر . وكل مايعنيه هو أن كشف الحقائق العلمية يتم ، فى كثير من الأحيان ، فى إطار تكتنفه كثير من عناصر الخطأ .

ولعل من أوضح الأدلة على أن الفكر الأسطورى ظل محتفظا بمكانته فترة أطول مما ينبغى ، استمرار ذلك النوع من التعليل المسمى بالتعليل « الغائى teleological للظواهر ، أعنى تفسير ظواهر الطبيعة من خلال « الغايات » التى تحققها هذه الظواهر للبشر. فنحن نتصور ، مثلا ، أن الشمس تطلع كل صباح لكى تدفئ أجسامنا ، وأن القمر والنجوم تظهر كل مساء لكى تنير طريقنا أو تهدى التائهين منا فى الليل ، ونحن نعتقد أن المطر ينزل لكى يروى الزرع ، وأن رقبة الزرافة طويلة لكى تستطيع أن تصل إلى أوراق الأشجار العالية وتتغذى بها . وهكذا نتصور أن للحوادث الطبيعية أغراضا وغايات ، ونعتقد أن التفسير الحقيقى لهذه الحوادث إنما يكمن فى تلك الأغراض والغايات .

وإذا كان مبدأ « حيوية الطبيعة » ، أى وصف الطبيعة بصفات الكائنات الحية ، ولاسيما الإنسان ، هو ـ كما قلنا من قبل ـ المبدأ الأساسى الذى يقوم عليه الفكر الأسطورى ، فمن السهل أن ندرك أن فكرة « الغائية» فى تفسير الطبيعة إنما هى تطبيق مباشر لهذا المبدأ أو امتداد له . ذلك لأن الغايات تقوم بدور أساسى فى عالم الإنسان . وهى فى هذا العالم تؤدى وظيفة طبيعية لا يستطيع أحد أن يزعم بأنها تتعارض مع العلم . فالإنسان يوجه سلوكه بالفعل نحو غايات معينة ، أى أنه يستذكر دروسه لكى ينجح ،

ويطهو الطعام لكى يأكل ، ويخرج إلى الشارع لكى يتنزه . ولو سألت هذا الشخص ، فى الحالات السابقة : لماذا ذاكرت ؟ أو لماذا خرجت ؟ الخ .. لكان الجواب الطبيعى : لكى أفعل كذا . أى أن التعليل الطبيعى لتصرفاتنا ، فى هذه الحالات يأتى عن طريق الإشارة إلى الغاية منها . ومن هنا كان للغائية دور أساسى فى المجال البشرى ، وكان من الممكن تعليل كثير من أفعال الإنسان عن طريق الغايات المقصودة منها .

ولكن الخطأ الذى وقع فيه المفكرون ، والعلماء أنفسهم أحيانا ، خلال عصور طويلة ماضية هو أنهم نقلوا هذه الفكرة بحذافيرها من مجال الإنسان إلى مجال الطبيعة ، وتصوروا أن الحوادث الطبيعية يمكن تعليلها بغاياتها ، قياسا على ما يحدث فى عالم الإنسان . وهكذا فإنك إذا سألت : لماذا يسقط المطر . كان رد أنصار التفكير الغائى هو : لكى يروى الزرع . وإذا سألت : « لماذا » يحدث الزلزال أو الفيضان ؟ كان الرد : لكى يعاقب أناسا ظالمين . وهكذا يتصور هؤلاء أن مسلك الطبيعة مماثل لمسالك الإنسان ، فيقعون بذلك فى شراك التفكير الأسطورى .

والواقع أن الطبيعة لا تعرف « غايات » بالمعنى الذى نفهم به نحن هذا اللفظ ، بل إن حوادثها تحكمها الضرورة فحسب ، ولا يحدث فيها شىء ، كسقوط المطر أو وقوع فيضان ، الخ ، إلا إذا توافرت الأسباب الطبيعية المؤدية إليه . وعندما تتوافر هذه الأسباب يكون حدوث الظاهرة أمرا حتميا . أما الغايات فإننا نحن الذين نخلقها ، ونستغل من أجلها حوادث الطبيعة . فنحن قد وجدنا المطر بالفعل ثم اكتشفنا بالتجربة فائدته فى رى الزرع ، فخلقنا هذه الغاية له ، أما المطر ذاته فكان سيسقط سواء روينا به زرعنا أم لم نروه . وقس على ذلك بقية الحالات .

والدليل الواضح على إخفاق التعليل الغائى للظواهر الطبيعية ، هو أن

هذا التعليل كثيرا ما يتخبط ويتناقض : ففى الوقت الذى يعتقد فيه البعض أن المطر يسقط من أجل رى زراعته ، يرى البعض الآخر أنه يسقط لكى يروى ظمأه أو ظمأ ماشيته ، ويرى غيرهم أنه يسقط لكى يصنع بركة يستحم فيها ، بينما يرى صاحب الكوخ الهش أن سقوط المطر نقمة عليه . وحتى الفيضان أو الزلزال ، الذى يبدو أنه لايمكن أن يفسر إلا بأنه نقمة ، لا يصيب الأشرار وحدهم ، وإنما تضيع فيه أرواح بريئة كما تضيع فيه أرواح آثمة ، بل إن الأرواح البريئة ـ كما فى حالة الأطفال والمسنين مثلا ـ ربما كانت أكثر تعرضا للضياع فيه من الأرواح الآثمة ... هذا فضلا عن أن حادثا مؤلما كهذا لا يخلو من النفع لبعض الناس ، كمتعهدى نقل الموتى مثلا ! وهكذا تتباين الغايات التى يمكننا أن ننسبها إلى الظاهرة الواحدة ، حسب مصالحنا ووجهات نظرنا الخاصة ، ويتضح لنا أن تفسير ظواهر الطبيعة على أساس غايات مستمدة من المجال البشرى هو تفسير باطل ، لا يخلو من التخبط والتناقض . ولذا لم يكن من المستغرب أن يتخلى التفكير العلمى عن فكرة « الغائية » ويعدها امتدادا للطريقة الأسطورية فى فهم العالم ، وإن يكن التفسير الغائى للظواهر أشد خفاء ، وأصعب تفنيدا ، من التفسير الأسطورى المباشر .

وهكذا أصبح العلم يقتصر ، فى فهمه للظواهر الطبيعية ، على الأسباب التى تؤدى إلى حدوث هذه الظواهر ، أى على ما يطلق عليه اسم « العلل أو الأسباب الفاعلة » ، وهى الشروط الضرورية التى لايحدث الشىء إلا إذا توافرت ، ولا بد إذا توافرت من أن يحدث الشىء . وهذا النوع من الأسباب يتعلق بالمقدمات التى تمهد لحدوث الظاهرة ، والتى تسبقها فى الزمان . أى أن الماضى هو الذى يتحكم فى الحاضر ، فى حالة الظواهر الطبيعية . أما فى حالة الظواهر البشرية ، التى يمكن أن يكون للغايات

وجود فيها ، فإن « المستقبل » أيضا ، بالإضافة إلى الماضى ، يمكن أن يكون سببا للأحداث . فالإنسان لا يتصرف بناء على سوابق ماضية فحسب، بل يتصرف أيضا لأنه يخطط لهدف أو لمشروع فى المستقبل . ولكن هذه صفة ينفرد بها الإنسان ، ولا تعرفها الطبيعة ، وربما كانت هى التى أعطت الإنسان مركزه الفريد فى الكون .

على إنه إذا جاز لنا أن نقول إن الفكر الأسطورى ، فى مجمله ، قد اختفى باختفاء العصر الذى كانت فيه الأسطورة تحل محل العلم ، فإن الفكر الخرافى ظل يعايش العلم فترة طويلة ، ومازال يمارس تأثيره على عقول الناس حتى يومنا هذا . ولقد عاشت البشرية أمدا طويلا وهى حائرة بين الخرافة والعلم ، لأن الخط الفاصل بينهما لم يكن فى البداية واضحا كما هو اليوم . وخلال هذه الفترة كانت الأمور مختلطة ومتداخلة ، وكان كثير من العلماء يجمعون بين عناصر من الخرافة وعناصر من البحث العلمى فى مركب واحد لايشعرون بأنه ينطوى على أى تنافر .

ولنضرب لذلك مثلا من ميدان التنجيم وعلم الفلك . فممارسة التنجيم كانت تتطلب معرفة واسعة بالحقائق الفلكية ، « والأبراج » التى يقول المنجمون أنهم يعرفون بها الطالع هى أشبه ما تكون بخريطة كبرى للسماء، تضم كثيرا من المعلومات الفلكية الصحيحة .. واسم التنجيم ذاته يفترض معرفة النجوم ، ومن ثم كان تداخله مع علم الفلك . بل إن كبار الفلكيين كانوا فى الوقت ذاته منجمين ، وهذا ينطبق على العصور القديمة والعصور الوسطى الإسلامية والأوروبية ، بل وعلى أوائل العصر الحديث أيضا . فحتى كبلر ذاته ، أعنى ذلك العالم الألمانى العظيم الذى حدد المدارات البيضاوية للكواكب واهتدى إلى مجموعة من أعظم القوانين الفلكية الرياضية ، كان يؤمن بالتنجيم ويمارسه ، ولم يكن يعتقد أن ممارسته له

تعارض على أى نحو من عمله العلمى الدقيق . بل إن السعى إلى جعل التنجيم والتنبؤ بالطالع أدق ، ربما كان واحداً من أهم الأسباب التى حفزت العلماء على الاشتغال بعلم الفلك ، والتى جعلت هذا العلم ، الذى يتناول ظواهر تبدو بعيدة كل البعد عن اهتمام الإنسان على هذه الأرض ، يصبح واحدا من أقدم العلوم البشرية عهدا ومن أدقها منهجا . ولولا أن الحكام كانوا يحرصون على معرفة طالعهم ، ويستشيرون المنجمين فى قراراتهم الهامة لما أولوا علم الفلك ذلك الاهتمام وقدموا إليه ذلك التشجيع الذى أدى إلى نهوضه منذ وقت مبكر .

ولدينا مثل آخر فى ظاهرة السحر . فقد تداخلت الممارسات السحرية مع الممارسات العلمية وقتا طويلا . وبالرغم من أن السحر كان مبنيا على معتقدات خرافية لا صلة لها بالعلم ، فقد كان السحرة يلجأون ، فى كثير من الأحيان ، إلى التعامل مع مواد الطبيعة وعناصرها على نحو يؤدى بهم إلى الكشف عن كثير من أسرارها ، مما دعا بعض مؤرخى العلم إلى النظر إلى السحر بوصفه ممهدا للعلم التجريبى ، ولعلوم الكيمياء والأحياء بوجه خاص . ومع ذلك فقد نشبت معركة حامية بين العلم والسحر فى مطلع العصر الأوروبى الحديث . ولم يكن رجال الكنيسة بمعزل عن هذه المعركة ، وإن كانوا قد وقفوا موقفا معاديا للطرفين معا : فالسحرة فى نظرهم تتقمصهم أرواح شريرة ، ومن ثم كان من الواجب حرقهم ، أما العلماء فهم ينادون بتعاليم مضادة لما تقول به الكنيسة ، ومن ثم فمن الواجب اضطهادهم . وفى بعض الأحيان كان العلماء يتهمون بالسحر، حتى تكون إدانتهم أيسر ، وبالفعل راح عدد غير قليل من الباحثين فى العلوم الحديثة ضحية الاتهام بالسحر .

على أن هذا التداخل والاختلاط بين النظرة الخرافية ، والنظرة العلمية

لم يدم وقتا طويلا ، بل إن معالم النظرتين قد أخذت تتضح بالتدريج ، وبدأت الطريقة العلمية فى النظر إلى الأمور تثبت تفوقها الساحق على الطريقة الخرافية وذلك لسببين : أولهما أن فهم قوانين الطبيعة من خلال العلم يتيح للإنسان سيطرة حقيقية على ظواهرها ، ويمكنّه من تغيير مجرى حوادثها لصالحه ، على حين أن النظرة الخرافية تجعله يقف من الطبيعة موقفا سلبيا عاجزا . وحين بدأت ثمار التطبيقات العلمية تصبح متاحة للجميع ، وأثبت العلم بطريقة ملموسة قدرته على السيطرة على الطبيعة بطريقة لايحلم بها الساحر ذاته ، لم يعد هناك مبرر لبقاء الطريقة السحرية الخرافية .

وأما السبب الثانى فهو أن العلم قد أثبت أن نتائجه مضمونة ، يمكن التنبؤ بها ، على حين أن نتيجة السحر والخرافة غير مضمونة على الدوام . فحين يدرس العالم ظاهرة معينة ويتوصل إلى العوامل المتحكمة فيها ، يستطيع أن يضمن استخدامها لصالح الإنسان بطريقة معلومة مقدما . أما إذا واجه هذه الظاهرة عن طريق أحجبة أوتعاويذ سحرية ، فقد يصل إلى النتيجة المطلوبة مرة ، ولايصل إليها عشرات المرات . والأدهى من ذلك أنه لن يكون قادرا حتى على التنبؤ بالحالة التى سيكون سحره فيها فعالا ، وسط عشرات الحالات التى يعجز فيها هذا السحر . وهكذا آثر الإنسان العلم لأنه اكتسب ثقة فى نتائجه ، ولم يعد الناس يلجأون إلى الخرافات - فى معظم الأحيان - إلا فى الحالات التى لايكون العلم فيها قد أحكم قبضته على الظاهر، كما فى حالة الإصابة بمرض عضال لم يستطع العلم بعد أن يكتشف علاجا له .

والواقع أن هذه الحقيقة الأخيرة تشير إلى سمة هامة من سمات التفكير الخرافى . فقد ذكرنا أن نتائج السحر أو الخرافة غير مضمونة ، وأنها فى مقابل كل مرة تنجح فيها تخفق عشرات المرات . ومع ذلك فإن من أهم

أسباب استمرار هذا اللون من التفكير اتجاه العقل البشرى إلى التعميم السريع ، بحيث يؤمن بفاعلية السحر أو الخرافة بناء على نجاح أمثلة قليلة جدا (وهو قطعا نجاح تحقق بالصدفة) ، دون أن يختبر الحالات الكثيرة الأخرى التى أخفق فيها هذا الأسلوب . فنحسن نقول عن فلان أو فلانة (وغالبا ماتكون « فلانة » !) إن أحلامها لاتخيب ، وأن لديها القدرة على رؤية حوادث مقبلة فى الأحلام ، لمجرد أنه حدث مرة أو مرتين أن تحقق شىء رأته فى حلم . ولو سلمنا بأن هذا حدث (مع أنها ربما كانت قد روت هذا الحلم ـ بحسن نية ـ « بعد » وقوع الحادث ، بحيث يبدو لها أنها حلمت به ، وربما لم تكن تذكر بدقة ما حدث فى الحلم ، وربما كانت مشغولة بهذا الحادث مدة طويلة وتتوقع حدوثه لوجود مقدمات تدل عليه) فلنتذكر أننا نسقط من حسابنا ألوف الأحلام التى حلمت بها صاحبة « الرؤية التى لا تخيب » ، والتى لم يتحقق منها شىء ، وكل مايعلق فى ذهننا هو تلك الأحلام القليلة التى « تصادف » أنها تحققت .

ولما كان التركيز ينصب على الحالات القليلة التى تحققت ، فإن الناس « يعممون » الحكم بحيث ينطبق على « جميع الحالات » . وعلى هذا النحو تنمو لدى الناس ، وتنتشر ، أسطورة صاحبة الرؤية الصادقة ، أو بصيرة عراف يستشف المستقبل ، الخ ...

والواقع أن ظاهرة الفكر الخرافى أعقد من أن تكون مجرد بقية من بقايا عصور ماضية ، يستطيع العلم فى مسيرته الظافرة أن يكتسحها ويمحو جميع آثارها . ذلك لأن الفكر الخرافى يظل متأصلا فى أذهان الكثير من الناس حتى فى صميم عصر العلم ، ويظل منتشرا بين الناس حتى فى أكثر المجتمعات تمسكا بالتنظيمات العلمية . فالعلم والخرافة ، وإن كانا ينتميان إلى عصرين مختلفين ، يظلان متعايشين فى نفوس البشر أمدا طويلا ،

وكأنهما طبقتان جيولوجيتان متراصتان الواحدة فوق الأخرى فى الجبل الواحد ، وكل منهما ترجع إلى زمن مختلف (١) . بل إن الشخص الذى نال من التعليم حظا رفيعا ، قد يظل متمسكا بالفكر الخرافى فى كثير من جوانب حياته التى لايمسها العلم مساسا مباشرا . وهكذا لايكون اتباعه للمنهج العلمى فى المعمل أو المختبر ، أو جمعه حصيلة ضخمة من المعلومات العلمية ـ لايكون ذلك عاصما للذهنه من أن يؤمن فى جانب من جوانبه ، بالخرافات ، ويرضى بتفسير للظواهر لاعلاقة له ، من قريب أو بعيد ، بالمنهج العلمى الذى يجيد استخدامه .

وهكذا نجد فى أكثر المجتمعات تقدما ، بقايا من التعلق بالخرافة تتمثل فى إعطاء مكان الصدارة ، فى كثير من الصحف ، للحوادث التى تبدو خارقة للطبيعة ، وفي استمرار ظهور أعمدة صحفية مثل « حظك هذا اليوم» أو قراءة الطالع من الأبراج ، أو التشاؤم من الرقم ١٣ ، أو انتشار تعبيرات تحمل معنى خرافيا مثل « امسك الخشب » ، إلى آخر هذه المظاهر التى تدل على أن التفكير الخرافى ما زال ، فى عصر الصعود إلى القمر ، متشبثا بكثير من مواقعه .

ولقد ظهرت تعليلات متعددة ومتباينة الاتجاه ، تفسر استمرار تيار اللامعقول فى مساره الخفى تحت سطح العقلانية الظاهرة للمجتمع الحديث ، وإصرار الغيبيات على عدم الاختفاء من حياة الإنسان العصرى . وربما كانت التعليلات النفسية أكثرها انتشارا . فهناك من يقولون إن الأحلام ، فى حياة الإنسان ، مصدر دائم للخرافة ، إذ أن الصور الخيالية ، غير المترابطة وغير الواقعية ، التى تظهر فى الأحلام ، يمكن أن تختلط بالواقع ، وتكتسب

(١) انظر فى هذا الجزء والصفحتين التاليتين مقال : الفكر الخرافى والمسئولية الاجتماعية .
د . فؤاد زكريا . مجلة الطليعة المصرية . ديسمبر ١٩٧٣

فى حياة الناس طابعا متجسدا يتخذ شكل الخرافة . وربما كان الأصل الأول لكثير من الخرافات راجعا إلى وجود شخصيات مريضة لديها استعداد أكبر للخلط بين الحلم والواقع ، ولتأكيد الوجود الفعلى لأشباح وأرواح تراءت لها بإلحاح فى منامها . وقد ركزت مدرسة التحليل النفسى عند فرويد جهودها ، فى هذا الميدان ، فى بحث تأثير اللاشعور فى رؤية الإنسان للواقع ، وأسهمت بذلك فى استكشاف أسباب استمرار التفكير الخرافى فى عصر ينظم الناس حياتهم فيه على أساس من العلم . ذلك لأن الخرافة ، فى ضوء التحليل النفسى ، لاتظهر بوصفها شيئا ماضيًا لم يعد له فى حياة الإنسان مكان ، بل تبدو جزءا من التكوين النفسى للإنسان، يظل كامنا فى اللا شعور إلى أن تطرأ ظروف تصعد به إلى السطح الخارجى .

على أن التعليل المستمد من مجال علم النفس ، والتحليل النفسى بوجه خاص ، ربما لم يكن كافيا إلا لإيضاح جانب واحد من جوانب مشكلة استمرار الفكر الخرافى فى المجتمع الحديث . فحتى لو سلمنا بالإيضاح الذى تقدمه مدرسة التحليل النفسى ، سيظل علينا أن نعرف تلك الظروف التى تبعث الخرافة من أعماق اللاشعور إلى مستوى التفكير أو السلوك الواعى ، ولا بد أن تكون هذه الظروف منتمية إلى طبيعة المجتمع ، ونوع القيم السائدة فيه ، والعوامل الاجتماعية التى تتحكم فى تحديد هذه القيم .

وفى اعتقادى أن الشعور بالعجز هو العامل الأساسى فى ظهور الخرافة واستمرارها . وهذا الشعور يتخذ أشكالا تختلف باختلاف البيئة والعصر ، ولكن نتيجته دائما واحدة ، هى أن يلجأ الإنسان ، فى تعليله للأحداث ، إلى قوى لاعقلية تساعده على التخلص من المشكلات التى يواجهها تخلصا وهميا ، بدلا من أن تساعده على حلها أوحتى مواجهتها بطريقة واقعية .

ومن الممكن القول إن شعور الإنسان بالعجز كان يتخذ فى العصور القديمة شكل العجز عن الفهم ، والقصور فى معرفة العالم المحيط به ، ولذا كان يعلل الظواهر التى لا يفهمها تعليلات خرافية . أما فى العصر الحديث ، بعد أن توصل الإنسان إلى معرفة تتيح له إجابات علمية عن الأسئلة الأساسية التى كان يعجز من قبل عن فهمها ، فإن المسألة لم تعد تتعلق بالعجز عن الفهم أو المعرفة ، بل أصبح العجز يتمثل فى عدم القدرة على التحكم الواعى فى مسار المجتمع ، وفى القوى التى تسيطر عليه ، أى أنه أصبح عجزا اجتماعيا . وهذا ما يعلل استمرار ظهور الفكر الخرافى فى مجتمعات لا يمكن القول إن الجهل مخيم عليها ، أو إن الفقر يطمس عقول الناس فيها . ففى كثير من البلاد الأوروبية ، وفى الولايات المتحدة الأمريكية بوجه خاص ، تنتشر مظاهر واضحة للتفكير الخرافى ، تتمثل فى « قراءة الطالع » التى تحدث أحيانا عن طريق أجهزة الكترونية معقدة (وهو مظهر واضح لتعايش العلم والخرافة معا : الجهاز علمى متقدم ، والهدف من استخدامه خرافى متخلف) ، كما تتمثل فى وجود جماعات تمارس أنواعا من السّحر (السحر الأسود) والطقوس الغريبة فى قلب أغنى المجتمعات الصناعية . والتعليل المعقول لذلك هو أن الناس ، برغم ماتوافر لهم من معرفة وعلم ، وما يتمتعون به من مستوى عال للمعيشة ، يعجزون عن فهم القوى التى تتحكم فى مسار حياتهم ، وينظرون إلى المستقبل نظرة قاتمة ، ويتصورون أن العالم تشيع فيه قوى شريرة وحتمية كئيبة تفرض على الناس أن يعيشوا فى توتر وخوف دائم من المصير المجهول ، وهى قوى لا يمكن محاربتها إلا بقوى أخرى من نفس نوعها .

على أن الأمر الذى ينبغى أن نؤكده ، فى هذا الصدد ، هو أن ظاهرة استمرار الفكر الخرافى بأشكال مختلفة ، فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ،

لاتشكل مع ذلك خطرا دائما على المسار العام لهذه المجتمعات ، بل إنها تظل على الدوام ظاهرة هامشية . فنوع الحياة التى تسود المجتمع الصناعى ، حيث يُحسب كل شىء وينظم بدقة وانضباط ، وحيث لا يسمح أسلوب الإنتاج السائد بأن تظل هناك عناصر غير محسوبة أو غير متوقعة ، وحيث تخضع الحياة اليومية ذاتها لنظام محدد لا مجال فيه للاستثناءات أو الانحرافات ، أقول إن نوع الحياة هذا يشكل ضمانا مؤكدا يعصم المجتمع ، فى مجموعه ، من أضرار التفكير الخرافى ، مهما كانت درجة انتشاره على مستوى الأفراد أو الجماعات المنعزلة . ففى مثل هذه المجتمعات يظل المجرى العام للحياة خاضعا للعقلانية والترشيد والتخطيط المدروس ، أما الميول الخرافية فتتخذ شكلا فرديا لايؤثر على هذا المسار العام .

بل إن من الممكن القول ، بمعنى معين ، إن الحياة الصناعية المخططة الدقيقة هى ذاتها التى تفرض على مجتمعاتها من آن لآخر ، اللجوء إلى ألوان من التفكير الخرافى . فانتشار الخرافات فى هذه البلاد هو فى أساسه « رد فعل » على العلم المتغلغل فى صميم كيان المجتمع ، ومحاولة للتخلص من قبضة تلك العقلانية المحكمة التى تمسك بجميع جوانب حياة الناس ، عن طريق بعث عناصر لاعقلية من مكمنها اللاشعورى . إنه تعبير عن تمرد الشعوب الخاضعة للعقل على هذا العقل نفسه ، ورغبتها فى الخروج عنه ، وإن كان ذلك لايتم إلا بصورة مؤقتة لأنها فى النهاية تعود إليه ، ولاتستطيع أن تتلخص منه بعد أن أصبحت كل جوانب حياتها تنتظم وفقا له. إنها قفزة مؤقتة إلى الماضى البعيد عبر الحاضر ، وربما كانت هذه العودة تساعدهم على تحمل الضغط والتوتر الذى تجلبه لهم الحياة الصناعية بإيقاعها السريع ونظمها الحتمية الصارمة . وهكذا يكون التفكير الخرافى ، فى هذه الحالة ، منبثقا من قلب التفكير العلمى والعقلى ،

ولايُفهم إلا فى إطاره . بل إن العودة إلى الماضى السحيق هى فى هذه الحالة نتاج للمجتمع الصناعى ذاته : إذ أنها تعبير عن الرغبة فى « التغيير » ، وعدم القدرة على الاستقرار طويلا على حالة واحدة

وهذه الرغبة فى التغيير هى ذاتها جزء لايتجزأ من طبيعة الحياة فى المجتمعات الصناعية المتقدمة . فمن سمات هذه الحياة أنها تغير إيقاعها بسرعة ، وتجدد نفسها باستمرار وترفض الجمود والاستقرار ، بل إن الرغبة فى التغيير تمتد عندها حتى إلى القيم الأخلاقية والاجتماعية ذاتها . ولذلك كان الابتعاد عن العقل والعلم ، فى ظاهرة الفكر الخرافى ، يتم فى حالة المجتمعات الصناعية المتقدمة فى إطار عصر العقل والعلم واستجابة لمقتضياته ، وهو وضع تبدو فيه مفارقة واضحة ، ولكنه يعبر بالفعل عن وضع الفكر الخرافى فى المجتمعات المعاصرة المتقدمة .

ولقد حرصنا على تأكيد هذه الحقيقة لكى نوضح ، بصورة قاطعة ، الاختلاف الأساسى بين وضع العالم الشرقى عموما ، والعربى بوجه خاص ، ووضع العالم الصناعى المتقدم بالنسبة إلى موضوع التفكير الخرافى . ذلك لأن هناك كثيرين فى بلادنا العربية يحاولون التخفيف من تأثير هذه الظاهرة، أعنى ظاهرة انتشار التفكير الخرافى فى بلادنا ، عن طريق الإشارة إلى وجود ظواهر مماثلة فى البلاد المتقدمة . ومثل هذه المحاولة للتهوين من شأن الفكر الخرافى والتخفيف من خطره على مجتمعاتنا يعيبها أنها تقف عند حدود السطح الخارجى للظواهر ولا تتغلغل فى أعماقها . إذ يبدو ظاهريا أن الوضع متشابه فى الحالتين (وإن كان مقدار انتشار الخرافات عندنا أعظم بمراحل منه فى البلاد المتقدمة) ولكن الحقيقة أن دلالة الظاهرة مختلفة فى الحالتين تمام الاختلاف .

ففى حالة مجتمعاتنا يتخذ التفكير الخرافى شكل العداء الأصيل للعلم

والعقل ، ويمثل هذا العداء امتدادا واستمرارا لتاريخ طويل كان العلم يحارب فيه معركة شاقة لكى يثبّت أقدامه فى المجتمع . وإذا كان قد بدا خلال فترة قصيرة أن العلم تمكن من تأكيد ذاته فى مجتمعنا العربى ، فمن المؤكد أن ذلك لم يحدث على مستوى المجتمع كله ، وأن العداء للعلم كان هو الغالب فى بقية الفترات فى تاريخنا . وهكذا فإن انتشار الخرافة يمثل ، فى حالتنا ، تعبيرا عن جمود المجتمع وتوقفه عند أوضاع قديمة ومقاومته للتطور السريع المحيط به من كل جانب . والفرق واضح بين هذا الأسلوب فى الفكر الخرافى وبين أسلوب تلك المجتمعات التى مرت بتجربة التفكير العقلى حتى أعلى مراتبها ، والتى يحاول بعض أفرادها أن يرتدوا عن هذه التجربة « من موقع الاندماج فيها » ، لا من موقع الجهل بها أو الخوف منها أوالعجز عن تحقيقها . أى أن الفرق واضح بين الفكر الخرافى حين يكون تعبيرا عن جمود متأصل وتحجر على أوضاع ظلت سائدة طوال ألوف السنين دون أن يرغب المجتمع فى تغييرها أويجرؤ عليه ، وبين هذا الفكر ذاته حين يكون تعبيرا - محدود النطاق - عن رغبة فى التغيير يشعر بها مجتمع لايستطيع أن يظل أمدا طويلا على حالة واحدة ، حتى لو كانت هذه الحالة هى التفكير العقلى الرشيد .

وتلك مسألة نجد لزاما علينا أن ننبه إليها لأن بعض كتابنا ، الواسعى الانتشار للأسف الشديد ، يرددون نفس الحجج التى يقول بها أنصار التفكير اللاعلمى فى الغرب ، لكى يبرروا بها ابتعادنا ، نحن الشرقيين ، عن التفكير العلمى وعدم ثقتنا فى قدرات العقل . وهذا خطأ كبير ، ومغالطة أكبر ، إذ أن دوافعنا فى الابتعاد عن التفكير العلمى تختلف كل الاختلاف عن دوافع مجتمع مارس هذا التفكير قرونا عديدة ، فى الوقت الذى لانزال فيه نحن نكافح من أجل الدخول لأول مرة فى عصر

العلم الحديث .

على أننا ينبغى أن نعترف بأن أنصار الخرافة ، سواء فى بلادنا أم فى خارجها ، لا يقتصرون على تأكيد هذا النوع « المضاد للعلم » من الخرافات . فهناك نوع آخر يدعى الانتساب إلى العلم ، ويستند على شواهد يزعم أنها علمية ، ويتظاهر أنصاره بأنهم يتبعون مناهج علمية فى التحقق منه . ومن هذا القبيل الاعتقاد بوجود قوى خارقة لدى بعض البشر ، كالاستشفاف عن بعد Telepathy ، أو الاشكال المختلفة لما سمى بالحاسة السادسة أو غيرها . وربما وصل الحماس بالبعض إلى حد تأكيد قدرة « العلم » على اثبات « تحضير الأرواح » - وهو للأسف أمر ليس بعيدا عن المألوف بين بعض المشتغلين بالعلم ، وكأنهم أصبحوا واثقين من أن الروح « شىء » ، وأن هذا الشىء يمكن « تحضيره » ، أى يمكنه أن يذهب ويجىء ، وأن هذا الشىء الذى يذهب ويجىء يستطيع أن « يتكلم » ، أو يؤثر فى أشياء « مادية » ، كتحريك أكواب أو اسقاط منضدة ، وهذا كله يستحيل لو لم تكن الروح بدورها شيئا « ماديا » ، مع أن هذا يتناقض أساسا مع تعريف الروح .

والمهم فى الأمر أن هؤلاء الذين يتمسحون بالعلم لتأكيد هذه الخرافات يلجأون إلى أساليب لا تتوافر فيها شروط التجربة العلمية على الاطلاق : فالملاحظات التى يعتمدون عليها قليلة غير قابلة للتكرار ، مع أن من أهم شروط التجربة فى العلم أن يكون من الممكن تكرارها أمام أى عدد من المشاهدين ، وفى مختلف الظروف ، وسواء أكان هؤلاء المشاهدين من المقتنعين أم من غير المقتنعين . ومن المعروف أن شهود هذا النوع من التجارب هم فى الأغلب من النوع الذى يتوافر لديه مقدما استعداد لتصديق نتائجها . هذا فضلا عن أن التجارب تتم دائما فى جو لا يسمح بالرؤية الواضحة ، إذ

أن الضوء دائما خافت ، ولونه أحمر(وهو أكثر الألوان تعتيما للبصر) والجو العام يجعل الإيحاء بأي شيء ممكنا .

أما إذا ووجه أنصار هذه الخرافات ذات المظهر « العلمي » بحجج قوية تثبت ابتعاد الأساليب التي يلجأون إليها عن أصول المنهج العلمي الصحيح ، فإنهم يلجأون إلى سهم آخر في جعبتهم ، وهو أن منهج العلم الحالي محدود ، وأن العلم أصبح الآن يتقبل أشياء كثيرة كان يرفضها من قبل ، وأنه - بالتالي - يمكن أن يعترف بهذه الظواهر الخارقة للطبيعة في المستقبل. ومثل هذه الطريقة في التفكير تفتح الباب ، كما هو واضح ، لكل الخزعبلات المخرفة ، إذ يستطيع أي دجال أن يؤكد أن العلم إذا لم يكن يتقبلها الآن فسوف يتقبلها في المستقبل . وواقع الأمر أننا لانملك إلا هذا المنهج الذي أثبت أنه أفضل ما لدينا من أدوات المعرفة ، وأنه مهما كان قاصرا عن بلوغ كثير من الحقائق ، فإنه هو أضمن الوسائل لبلوغ « الحقيقة » ذاتها . وإلى أن يتوصل العلم ذاته إلى مناهج وأساليب أخرى أدق ، فليس من حق أحد أن يتذرع بالتغيرات التي يمكن أن تطرأ عليه في المستقبل ، لكي يفرض علينا خرافاته ، ويربطها زورا بعجلة التقدم العلمي .

فإذا أخفقت محاولات ربط الخرافة بالعلم ، فإن أنصارها يلجأون إلى اخر أسلحتهم وأخطرها على التفكير الشعبي ، وهو الربط بين الخرافة والدين . وهكذا تراهم يستغلون وجود بعض الحقائق الدينية الغيبية ، كالروح مثلا ، ووجود بعض النصوص الدينية التي تتحدث عن السحر والحسد ، الخ ، لكي يدافعوا بحرارة عن حقيقة الظواهر الخرافية مؤكدين أن الدين نفسه يدعمها. ولقد قلت إن هذا السلاح أخطر الأسلحة جميعا ، لأنه أولا يستغل عمق الإيمان الديني من أجل تأكيد الفكر الخرافي ، ولأنه يضع الدين - بلا مبرر - في مواجهة العلم ، ويضع عقول الناس في مواجهة الاثنين معا ،

فتقف حائرة بين عقيدة متأصلة فيها، وبين منهج علمى تثبت صحته على أرض الواقع العلمى فى كل لحظة .

وفى اعتقادى أنه ليس هناك ماهو أضر بقضية الدين من هذا الربط بينه وبين الخرافة . ولقد حاولت الكنيسة المسيحية فى الغرب ، منذ عصر النهضة ، أن تسلك هذا الطريق المحفوف بالخطر ، فكانت النتيجة هى مانراه اليوم من انصراف الجماهير فى الغرب عن عقيدتها بأعداد كبيرة . والواقع أن الكنيسة كانت فى ذلك الحين تواجه تجربة جديدة كل الجدة ، فلم يكن من المستغرب أن ترتكب خطأ مهاجمة العلم بحجة إنه يتعارض مع نصوص دينية (كما فى حالة قضية دوران الأرض و « ارتفاع » السماوات مثلا) ، ولم يكن من المستغرب أيضا أن تضطهد كثيرا من العلماء اضطهادا معنويا وجسديا . ولكن الحصيلة النهائية لهذا كله كانت انتصار الحقيقة العلمية ، واضطرار الكنيسة إلى التراجع عن مواقعها واحدا تلو الآخر ، حتى أصبحت تدافع اليوم عن كثير من الأمور التى كان القول بها فيما مضى كافيا لاضطهاد صاحبها على يد الكنيسة ذاتها . ومع كل هذا التراجع فقد خسرت مواقع كثيرة ، وأخذ تأثيرها على الأجيال الجديدة يتضاءل باستمرار.

أما نحن هنا فى العالم العربى فلسنا مضطرين على الإطلاق إلى أن نسلك هذا السبيل المحفوف بالخطر ، وذلك لأسباب كثيرة . فنحن أولا لسنا أول من يمر بهذه التجربة ، بل إن أمامنا تجربة الغرب ، فى موضوع العلاقة بين الدين والخرافة ، أو العلاقة بين الدين والعداء للعلم ، لكى نستخلص منها ما شئنا من العبر . ونحن ثانيا أصحاب دين فسره مفكروه وفلاسفته ، فى صدر الإسلام ، تفسيرا لايتعارض مطلقا مع البحث العلمى ، بل يدفع الفكر والعلم إلى الانطلاق . ونحن ثالثا نعيش فى عصر أصبح فيه الأخذ بالأسلوب العلمى فى الحياة مسألة حياة أوموت بالنسبة إلى المجتمع . فلماذا

إذن يحاول الكثيرون أن يعيدوا التجربة المريرة للكنيسة الغربية مع الخرافة وضد العلم ؟ ولماذا لا تتكاتف الجهود من أجل دعم وتأكيد التفسير الدينى الذى يحارب الخرافة ويؤيد العلم ؟ هذه مجرد أسئلة أطرحها وأنا لا أملك إلا الدهشة والاستنكار للتراجع المستمر إلى الخلف ، الذى تتسم به مناقشاتنا لهذا الموضوع فى أيامنا هذه . فمن المؤسف أننا كنا نناقش هذه الموضوعات فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين على مستوى أعلى بكثير من مناقشتنا لها فى هذه الأيام ، بعد أن أصبحت صدورنا أضيق ، واتهاماتنا للمفكرين تلقى جزافا ، واحترامنا لآراء بعضنا بعض مفقودا ، ويبدو أن البعض يصرون على أن يعيدوا محنة الفكر العلمى فى عصر النهضة الأوروبية مرة أخرى فى بلادنا . ولكن الأمل معقود على أن تسود الحكمة ويغلب التعقل ، فندرك أن طريق العلم لارجوع فيه إلى الوراء ، وأن الدفاع عن الخرافة تمسحا بالدين لن يضر قضية العلم كثيرا ، ولكنه يسىء إلى قضية الدين إساءة بالغة .

ثانيا ـ الخضوع للسلطة :

السلطة هى المصدر الذى لا يناقش ، والذى نخضع له بناء على إيماننا بأن رأيه هو الكلمة النهائية ، وبأن معرفته تسمو على معرفتنا .

والخضوع للسلطة أسلوب مريح فى حل المشكلات ، ولكنه أسلوب ينم عن العجز والافتقار إلى الروح الخلاقة . ومن هنا فإن العصور التى كانت السلطة فيها هى المرجع الأخير فى شئون العلم والفكر كانت عصورا متخلفة خلت من كل إبداع . ومن هنا أيضا فإن عصور النهضة والتقدم كانت تجد لزاما عليها أن تحارب السلطة العقلية السائدة بقوة ، كتمهيد الأرض بذلك للابتكار والتجديد .

وأشهر أمثلة السلطة الفكرية والعلمية فى التاريخ الثقافى هى

شخصية أرسطو . فقد ظل هذا الفيلسوف اليونانى الكبير يمثل المصدر الأساسى للمعرفة ، فى شتى نواحيها ، طوال العصور الوسطى الأوروبية ، أى طوال أكثر من ألف وخمسمائة عام . كذلك كانت كثير من قضاياه تؤخذ بلا مناقشة فى العالم الإسلامى ، حيث كان يعد «المعلم الأول » ، وإن كان بعض العلماء الإسلاميين قد تحرروا من سلطته فى نواح معينة ، ولاسيما فى ميدان العلم التجريبى .

والأمر الذى يلفت النظر فى ظاهرة الخضوع لسلطة مفكر مثل أرسطو ، أن هذا الخضوع كان يتخذ شكل التمجيد ، بل التقديس ، لشخصية هذا الفيلسوف ، ومع ذلك فقد جنى هذا التقديس على أرسطو جناية لاتغتفر : إذ أنه جمده وجعله صنما معبودا ، وهو أمر لو كان الفيلسوف نفسه قد شاهده لاستنكره أشد الاستنكار : إذ أن الفيلسوف الحق ـ وأرسطو كان بالقطع فيلسوفا حقا ـ لايقبل أن يُتخذ تفكيره ، مهما بلغ عمقه ، وسيلة لتعطيل تفكير الآخرين وشل قدراتهم الإبداعية ، بل إن أقصى تكريم للفيلسوف إنما يكون فى عدم تقديسه ، وفى تجاوزه ، لأن هذا التجاوز يدل على أنه أدى رسالته فى إثارة عقولنا إلى التفكير المستقل على الوجه الأكمل . ومن ناحية أخرى فإن العصور الوسطى لم تأخذ من أرسطو « روح » منهجه التجريبى ، الذى حاول الفيلسوف أن يطوره فى المرحلة الأخيرة من حياته ، بل أخذت منه « نتائج » أبحاثه ، واعتبرتها الكلمة الأخيرة فى ميدانها ، فضاعفت بذلك من جنايتها على تفكيره .

وكان من الطبيعى أن يكون رد الفعل ، فى بداية العصر الحديث ، قاسيا . وهكذا وجدنا فرانسيس بيكن ورينيه ديكارت يبدآن فلسفتهما بنقد الطريقة الأرسطية التى تقيدت بها العصور الوسطى تقيدا تاما ، ويؤكدان أن التحرر من قبضة هذا الفيلسوف هو الخطوة الأولى فى طريق بلوغ الحقيقة .

وفى ميدان العلم خاض جاليليو معركة عنيفة ضد سلطة أرسطو : إذ أن هذه السلطة كانت تساند النظرة القديمة إلى العالم بوصفه متمركزا حول الأرض ، كما كانت تقول بنظرية فى الحركة مبنية على أسس ميتافيزيقية ، وكان لابد من هدمها لكى يرتكز علم الميكانيكا الحديث على أسس علمية سليمة . وهكذا أخذ جاليليو يتعقب آراء أرسطو فى الطبيعة واحدا بعد الآخر ، ويثبت بمنهجه العلمى الدقيق بطلانها ، وبذلك كان تفكيره العلمى فى واقع الأمر ، من أقوى العوامل التى أدت إلى هدم سلطة أرسطو فى مطلع العصر الحديث .

وفى استطاعتنا أن نستخلص من هذا المثل ، أعنى تقديس العصور الوسطى لآراء أرسطو وتفنيد الفلاسفة والعلماء فى بداية العصر الحديث لها ، أهم عناصر السلطة من حيث هى عقبة تقف فى وجه التفكير العلمى ، وأهم الدعامات التى ترتكز عليها (١) :

(١) القدم :

أول عناصر السلطة هو أن يكون الرأى قديما . فالآراء الموروثة عن الأجداد يعتقد أن لها قيمة خاصة ، وأنها تفوق الآراء التى يقول بها المعاصرون . ويرتكز هذا العنصر على الاعتقاد بأن الحكمة كلها ، والمعرفة كلها ، تكمن فى القدماء ، ومن هنا فهو مبنى ـ بطريقة ضمنية ـ على نظرة إلى التاريخ تفترض أن هذا التاريخ يسير فى طريق التدهور ، وأن مراحله الماضية أعلى مستوى من مراحله الحاضرة .

ومن المؤكد أن فى هذه النظرة إلى التاريخ نوعا من التمجيد الرومانسى أو الخيالى للماضى ، وللأجيال التى كانت تعيش فيه . وهى

---

(١) انظر فى هذا الجزء : الفلسفة ، أنواعها ومشكلاتها . تأليف هنتر ميد ، ترجمة د . فؤاد زكريا . الفصل الثالث . (القاهرة ـ دار نهضة مصر ، ١٩٧٠) .

بلا شك تقوم على فكرة لاتستند إلى أساس من الواقع ، لأن القدماء كانوا بشرا مثلنا ، معرضين للصواب والخطأ ، وكل ما فى الأمر أن الإنسان ، إذا كان يضيق بحاضره ، أو يجد نفسه عاجزا عن اثبات وجوده فى الحاضر ، يصبغ الماضى بصبغة ذهبية ، ويتخذ منه مهربا وملجأ يلوذ به . بل إننا نستطيع أن نقول ، مع بيكن ، أن الأجيال القديمة ، التى نتصور أنها تمثل شيخوخة البشرية وحكمتها ، هى فى الواقع أجيال جديدة ، ومن ثم فهى تمثل طفولة البشرية ، أما الأجيال الحديثة و التى نصفها بالطفولة ونقص الحكمة والتجربة ، وندعوها دائما إلي أن تأخذ الحكمة من أفواه القدماء المجربين ، فإنها تمثل فى الواقع أقدم أجيال البشرية . وتفسير هذه المفارقة أمر هين : إذ أن الجيل القديم عاش فى وقت لم تكن البشرية قد اكتسبت فيه تجارب كافة ، ومن هنا فإن خبرته وحكمته محدودة ، على حين أن الجيل الحديث قد اكتسب خبرة من هم أقدم منه، وأضاف إليها خبرته الخاصة ، ومن ثم فهو الأجدر بأن يعد ـ بمقياس الخبرة والتجربة ـ قديما . وليس هذا حكما ينبغى إطلاقه ، دون تمييز ، على كل فرد ، بل هو حكم يقال على سبيل التعميم ، ولا يمنع بطبيعة الحال من وجود استثناءات .

والذى يهمنا من هذا هوأن قدم الرأى لا ينبغى أن يعد دليلا على صوابه ، وأن البشرية قد عاشت ألوف السنين على أخطاء لم تكن تجرؤ على مناقشتها لأنها ترجع إلى عهود الأجداد الأوائل ، ومع ذلك تبين لها خطؤها عندما ظهر مفكر قادر على تحدى سلطة « القديم » . فمنذ أقدم العصور والناس تعتقد أن الأرض ثابتة والكواكب والنجوم تدور حولها ، أى أن الأرض مركز الكون . وكانت شهادة الحواس ، التى ترى الأجرام السماوية تغير مواقعها من الأرض باستمرار ، دليلا حاسما على أن هذا الرأى « القديم » يعبر عن حقيقة ثابتة . ومع ذلك فقد أتى كيرنيكوس ، فى القرن

الخامس عشر ، ليتحدى هذه السلطة الراسخة منذ القدم ، وليقول بالفرض العكسى ، ولم يمض جيل أو اثنان إلا وكان هذا الفرض مؤيدا بشواهد علمية قاطعة تثبت صحته ، وتثبت أيضا أن قدم الرأى ليس دليلا على صوابه . وقل مثل هذا عن نظرية العناصر الأربعة : الماء والهواء والنار والتراب ، التى قال بها القدماء وأيدتها العصور الوسطى الأوروبية والإسلامية ، وظلت تعد من حقائق العلم الثابتة حتى أتى « لافوازييه » فى القرن الثامن عشر فأثبت بطلانها ، وتبين للجميع ، بالدليل العلمى القاطع ، أن « الهواء » ليس عنصرا ، بل مجموعة من العناصر ، وكذلك الحال فى الماء ، الذى تبين أنه مؤلف من عنصرين ، الخ .. والواقع أن الميل إلى الأخذ بسلطة القدماء يزداد فى عصور الركود والانصراف عن التجديد ، ولا يمكن القول من إنه ميل طبيعى فى العقل البشرى . ومن هنا يمكن القول أن هذا الخضوع لسلطة القدماء ليس ، فى ذاته ، هو المؤدى إلى تخلف الفكر العلمى ، بل أن هذا التخلف هو الذى يؤدى إليه ، إذا شئنا الدقة فى التعبير . والدليل على ذلك أن التقيد بسلطة القديم كان هو القاعدة السائدة فى العصور الوسطى ، لأن العصر ذاته كان عصر تحجر وجمود ، ومن هنا كان من الضرورى التعويض عن هزال الحاضر بسلطة القديم . وعلى العكس من ذلك فإن العصور الحديثة قد حاربت هذا النوع من السلطة بكل ما أوتيت من قوة ، لأنها كانت عصورا ديناميكية متحركة ، يسودها الإحساس بالتفاؤل والثقة بقدرة الإنسان على التحكم فى قوى الطبيعة . بل إن الإنسان المعاصر ، فى بلاد العالم المتقدمة ، يكاد ينتقل إلى الطرف المضاد : فلدى الأجيال الجديدة إحساس واضح بأنها هى الأحكم والأوسع معرفة ، وبأن الأجيال القديمة لم تكن تعرف من أمور الحياة شيئا . وهى تقابل آراء القدماء بالسخرية ، ومن الصعب إقناعها إلا بآراء مستمدة من منطق العصر . وهكذا أصبح القديم فى نظر

هذه الأجيال ، مرفوضا لمجرد أنه قديم ، وأصبح الجديد يستمد من جدته وحدها قدرته على إقناعها . ومن المؤكد أن السعى الدائم وراء « الموضات » ـ بالمعنى الفكرى والأخلاقى أيضا ، لا بالمعنى المظهرى وحده ـ إنما هو تعبير ملموس عن هذا السعى إلى التجديد الدائم ، وعن عدم الثقة فى كل ما يكتسب صفة « القدم » . كذلك فإن المشكلة الحادة التى أصبحت تعرف فى المجتمعات الصناعية باسم مشكلة « الفجوة بين الأجيال » ، هى تعبير آخر عن عصر يشعر بأنه مختلف عن كل العصور السابقة إلى حد أن الأبناء فيه يعدون آباءهم أشخاصا ينتمون إلى جيل قديم يصعب التفاهم معه ، ويستحيل السلوك فى الحياة وفقا لمبادئه وقيمه .

هذا الموقف يعد ، بطبيعة الحال ، موقفا متطرفا ، إذ أن من الخطأ أن تعتد الأجيال الجديدة برأيها إلى الحد الذى ترفض فيه مجرد الحوار مع الأجيال القديمة ، مثلما أن من الخطأ أن تتصور الأجيال القديمة أنها تستطيع أن تفرض رأيها على الجيل الأحدث الذى يعيش ظروفا مختلفة ، ويمر بتجارب ويكتسب خبرات لم تألفها الأجيال السابقة . ولكن وجود هذا الموقف يدل على أن من الممكن تصور حالة مضادة يكون فيها قدم الرأى سببا كافيا لرفضه . وهذا هو الموقف الذى يسود المجتمعات ذات الإيقاع سريع التغير، التى يعد فيها البحث عن الجديد مبدأ أساسيا من مبادىء الحياة . وعلى أية حال فحسبنا أن نضع أمامنا هذين النمطين اللذين يقدس أحدهما القديم لمجرد كونه قديما ، ويبحث الآخر عن الجديد دون أى اكتراث بما سبقه ، ولنبحث لأنفسنا عن الموقع الذى نختاره بين هذين الطرفين القصيين .

٢ ـ الانتشار :

إذا كانت صفة القدم تعبر عن الامتداد الطولى فى الزمان ، فإن صفة الانتشار تعبر عن الامتداد العرضى بين الناس . فالرأى يكتسب سلطة أكبر

إذا كان شائعا بين الناس ، وكلما ازداد عدد القائلين به كان من الصعب مقاومته . والحجة التى توجه دائما إلى من يعترض على رأى شائع بين الناس هى : هل ستكون انت أحكم وأعلم من كل هؤلاء ؟

على أن العلماء والمصلحين والمفكرين كانوا ، عندما يواجهون بهذه الحجة ، يقولون دائما : نعم ! ولولا أن بعض العظماء من أفراد البشر تجاسروا على أن يقولوا « نعم » هذه ، فى وجه معارضة ألوف مؤلفة من الناس ، لما تقدمت البشرية فى مسيرتها ، ولما اهتدت إلى حقائق أصدق أو شرائع أفضل أو قيم أسمى مما كان يسودها من قبل . وصحيح أن هؤلاء الأفراد يكونون قلة فى البداية ، ولكن الحقيقة التى يحملونها فى صدورهم، والحماسة التى يدافعون بها عنها ، تظل تتسع وتتسع حتى تفرض نفسها فى النهاية على الجموع الكثيرة ، ثم يأتى الوقت الذى تتجمد فيه الحقيقة الجديدة وتتحجر ، أو يضيق بها تطور الزمن ، فيصبح من المتعين ظهور مصلح جديد ، وهكذا ...

والأمر الذى يحتم عدم التقيد بشيوع الرأى بوصفه مصدرا للسلطة ، هو أن جموع الناس تبحث عادة عن الأسهل والمريح . وهى تتجمع سويا حول الرأى الواحد مثلما تتلاصق أسراب الطيور لتحمى نفسها من الصقيع . وكلما كان الرأى منتشرا ومألوفا ، كان فى قبوله نوع من الحماية لصاحبه ، إذ يعلم أنه ليس « الوحيد » الذى يقول به ، بل يشعر بدفء الجموع الكبيرة وهى تشاركه إياه ، ويطمئن إلى أنه يستظل تحت سقف « الكثرة الغالبة » . أما إحساس المرء بأنه منفرد برأى جديد ، وبأنه يقتحم أرضا لم تطأها قدم أخرى من قبل ، ويتعين عليه أن يخوض معركة مع الكثرة الغالبة لكى يحمى فكرته الوليدة ـ أما هذا الإحساس فلا يقدر عليه إلا القليلون ، وعلى يد هؤلاء حققت البشرية أعظم إنجازاتها .

ولو تأملنا الواقع المحيط بنا لوجدنا ما يؤيد هذا الرأى فى كل مكان . فالقصة البوليسية الرخيصة تنتشر بين أعداد تزيد أضعافا مضاعفة عن أولئك الذين يقرأون الأدب الرفيع . والصحف « الصفراء » (أعنى صحف الإثارة والفضائح والصور العارية) توزع أضعاف ماتوزعه الصحف الجادة ، والمغنى الذى يردد أسخف الألحان وأتفه الكلمات يكسب فى الأغنية الواحدة أضعاف ما كسبه « بيتهوفن » طوال حياته ، والفيلم السينمائى الهابط ، الذى يعرى أكبرمساحة تسمح بها الرقابة من جسد بطلاته ، قد يدوم عرضه سنوات ، بينما لا يستطع الفيلم الذى ينطوى على فكرة عميقة أن يكمل أسبوعه الأول والأخير . وهكذا تتوالى الشواهد التى تدل على أن الانتشار بعيد كل البعد عن أن يكون مقياسا للجودة ومن ثم معيارا صالحا للسلطة .

على أن الأمر الذى ينبغى أن نتنبه إليه هو أن تحدى سلطة الانتشار لا يؤتى ثماره المرجوة إلا إذا كان من يقوم به على مستوى المهمة التى يأخذها على عاتقه . ذلك لأن هناك أناسا يمارسون عملية التحدى هذه من موقع السطحية ، ومن منطلق التفاهة ، ولا يقودهم فى سلوكهم إلا مبدأ « خالف تعرف » . فهم يتصورون أن وقوفهم فى وجه الرأى أوالذوق أو الاعتقاد الشائع كفيل بأن يجلب لهم الشهرة ، دون أن يكون فى وسعهم أن يقدموا بديلا عما يعترضون عليه . وهؤلاء أبعد الناس عما نعنى . فتحدى السلطة الشائعة ينبغى ألا يتم إلا على أيدى أولئك الذين يملكون الدليل على بطلانها ، ويملكون البديل عنها . بل إننا نستطيع أن نصف أولئك السطحيين الذين يلجأون إلى رفض ماهو شائع التماسا للشهرة ، بأنهم خاضعون لسلطة أخرى ، هى سلطة الرفض أو التجديد ، على الرغم مما فى هذا التعبير الأخير من مفارقة .

ولنضرب لذلك مثلا واحدا أظن أنه أصبح فى عصرنا هذا مألوفا : فقد ظهرت فكرة التمرد على الملابس وشكل الشعر ، بين بعض الشبان فى الغرب ، بوصفها احتجاجا على سلطة المجتمع « المظهرى » « المتأنق » الذي يخلو داخليا ، من العمق ، ومن الإحساس بنبض الحياة ، ومن التعاطف الإنسانى ، ولا يكترث إلا بتلبية مطالبه الاستهلاكية . وإلى هذا الحد نستطيع أن نفهم الدوافع التى أدت بهؤلاء الشبان إلى أن يرتدوا ثيابا مهلهلة رثة ، ويرسلوا شعورهم ، وغير ذلك من المظاهر التى تعرفها جيدا . ولكن العدوى تنتقل إلى شبان آخرين ، ينتمون إلى مجتمعات أخرى ، ولايعرفون شيئا عن الخلفية الفكرية والاجتاعية التى ظهرت فى ظلها هذه الموجة ، فإذا بالمظهر « الشبابى » الجديد يصبح ضرورة أساسية لهم ، وتضيع الفكرة تماما حين تنتشر بينهم ملابس غالية الثمن إلى أبعد حد ، ولكن مصمميها يتفننون لكى يعطوها « مظهر » القدم والهلهلة ! وينفق الواحد منهم جزءا كبيرا من ميزانيته لكى « يصفف » شعره على النحو الذي « يبدو » معه مسترسلا ، خارجا عن المظهر القديم . وهكذا فبينما كان الخروج عن سلطة المألوف ، فى البداية ، أمرا مفهوما لأنه على الأقل ينطوى على فلسفة معينة ، هى رفض القيم السائدة فى المجتمع الاستهلاكى ، نجده يتحول على يد هؤلاء المقلدين إلى شىء غير معقول على الاطلاق لأنه يتم فى إطار القيم الاستهلاكية ذاتها ، بل يشجع على المغالاة فى هذه القيم . وبينما كان الرفض فى البداية تعبيرا صادقا عن موقف أصيل ، أصبح الرفض بعد ذلك تعبيرا عن « محاكاة » ، أى أنه ناقض نفسه ، وحوّل الرفض الأصلى إلى نمط عام يقلده الألوف بلا شخصية ، وبلا تفكير مستقل . وهكذا يتعين علينا أن نفرق بوضوح بين من يخالف الرأى الشائع لأن لديه شيئا جديدا ، وبين من يخالفه لكى يشتهر بهذا المظهر فقط ، دون أن يكون فى واقع الأمر قادرا على الإتيان بأى جديد .

٣ ـ الشهرة :

يكتسب الرأى سلطة كبرى فى أذهان الناس إذا صدر عن شخص اشتهر بينهم بالخبرة والدراية فى ميدانه . والواقع أن الشهرة تجلب المزيد من الشهرة ، تماما كما أن المال يجلب المزيد من المال . فيكفى أن يشتهر إنسان ، لسبب قد لايكون له علاقة مباشرة بكفاءته ، حتى يحدث تأثير « تراكمى » لنفوذه وسلطته على الناس ، بحيث تتابع الجماهير أخباره ، وتتلقف كلماته ، وتزيد عليها تفسيرات وتأويلات تعطيها قيمة لاتكون جديرة بها أصلا.

ووجه الخطورة فى هذا العنصر من عناصر السلطة يتمثل فى النقاط التالية :

١ ـ إذا كان الشخص المشهور ينتمى إلى عصر غير عصرنا ، فمن الواجب أن ندرك أن شهرته ، التى ربما كان لها مايبررها فى وقتها ، لا ينبغى أن تنطبق على كل زمان . ولقد كان هذا هو الخطأ الذى ارتكبته العصور الوسطى فى نظرتها إلى أرسطو ، إذ أن شهرته فى عصره ظلت ممتدة إلى عصور تالية ، مع أن العالم أو الفيلسوف ، مهما كان عملاقا فى عصره ، لا يستطيع أن يفى بمطالب كل عصر لاحق ، ومن حسن الحظ أن هذا الخطر قد تضاءل فى العصر الحديث ، بعد أن اكتسب الإنسان حاسة تاريخية مرهفة ، وأصبح يربط بين المشاهير وبين المرحلة التاريخية التى عاشوا فيها ، فيعترف لهم بفضلهم فى دفع الإنسانية إلى الأمام ، ولكنه لا يمتد بشهرتهم ـ وسلطتهم ـ إلى أبعد مما يسمح به دورهم التاريخى . وهكذا فإن من غير المتصور أن يظهر فى عصرنا الحديث « أرسطو » جديد ، بعد أن أصبح « النقد » جزءا لايتجزأ من تقديرنا للمشاهير .

ب ـ أما إذا كان الشخص المشهور معاصرا لنا ، فإن هناك خطرا من نوع جديد ، يتمثل فى أجهزة الإعلام الحديثة ، التى تملك الوسائل الكفيلة « بتضخيم » الشهرة وإعطائها أبعادا تفوق ماتستحقه بكثير .. ففى استطاعة أجهزة الإعلام أن تجعل شخصا معينا يدخل كل بيت ، من خلال صفحات الجريدة أوالبرنامج الإذاعى أو التليفزيون ، وفى استطاعتها أن تكرر هذه التجربة وتلح عليها إلى الحد الذى تفرض معه شهرة هذا الشخص على الجميع . وهكذا يظهر نظام أشبه بنظام « نجوم السينما » فى العلم ذاته : إذ تتكرر أسماء معينة ، فلا تكاد تعترضنا مشكلة فى ميدان معين حتى يقفز إلى أذهاننا على الفور اسم ذلك « النجم » الذى اشتهر بفضل وسائل الإعلام ، وقد لايكون أكثر الناس خبرة بهذا الميدان ، وقد لا تكون شهرته إلا مصطنعة .

والأخطر من ذلك أن أجهزة الإعلام هذه قادرة على « نقل السلطة » من ميدان إلى آخر. وهذا هو المبدأ الذى تقوم عليه كثير من الإعلانات : إذ تظهر الممثلة السينمائية الجميلة مثلا فى إعلان عن معجون أسنان ، مع أن شهرتها فى ميدانها الأصلى لا تبرر على الإطلاق أن تكون خبيرة فى ميدان طب الأسنان . أو يظهر لاعب الكرة المشهور إلى جانب نوع من السيارات ربما لم يكن يعرف عنه شيئا طوال حياته . ومع ذلك فإن الشهرة « معدية » ، ومن المؤكد أن أمثال هذه الإعلانات المزيفة تحقق عائدا ، وإلا لما تحمّل المنتجون تلك النفقات الباهظة التى يتكلفها ظهور هؤلاء « المشهورين » فى الإعلان .

٤ ـ الرغبة أو التمنى :

يميل الناس إلى تصديق ما يرغبون فيه ، أو مايتمنون أن يحدث ، وعلى العكس من ذلك فإنهم يحاربون بشدة مايصدم رغباتهم أو يحبط أمانيهم . وهكذا كانت النظرية الفلكية الجديدة ، التى تجعل من الأرض مجرد كوكب فى المجموعة الشمسية يدور حول مركز هذه المجموعة ، وهو الشمس ـ كانت هذه النظرية تلقى مقاومة شديدة فى أيام عصر النهضة الأوربية لأنها تقضى على المكانة المميزة للإنسان ، باعتباره أهم الكائنات التى تعيش فى أهم كوكب فى الكون ، بل فى المركز الذى تدور حوله كل الأجرام السماوية . وكان من أهم أسباب سلطة النظرية القديمة ، التى ظلت كثير من العقول ترفض التخلى عنها زمنا طويلا ، أنها ترضى غرور الإنسان ، وتستجيب لأمنية عزيزة من أمانيه . ومن المعروف أن رجال الكنيسة ، فى أيام جاليليو ، كانوا يرفضون النظر فى منظاره المقرب الجديد لكى يروا السماء ـ لأول مرة ـ بعين أقوى من العين البشرية العادية عشرات المرات ، إذ كانوا يخشون أن تؤدى هذه النظرة إلى هدم عالم عزيز مألوف ارتاحوا إليه واكتسبوا مكانتهم فيه ، وكانوا يجزعون من تلك المسئولية الفادحة التى سيتحملونها فى ذلك العالم الجديد الموحش الذى تقول به نظرية كبرنيكوس ـ ذلك العالم الذى لا « يرث » فيه الإنسان مكانته ، لمجرد كونه إنسانا ، أى أهم المخلوقات ومحورها وغايتها ، بل يتعين عليه أن « يكتسبها » بعمله وجهده ، وإلا ظل مهملا فى عالم غير مكترث .

ثالثا ـ إنكار قدرة العقل :

فى مجال الفن والشعر والأدب يهيب الإنسان بقوى أخرى غير العقل ، قد يسميها الخيال أو الحدس ، ويؤمن ـ عن حق ـ بأن هذه القوى هى التى توجهه فى هذا المجال ، لأن المنطق العقلى الدقيق يعجز عن الأخذ بيدنا

حينما نكون بصدد إبداع عمل فنى أو أدبى . ولكن المشكلة هى أن بعض المفكرين يعتقدون أن أمثال هذه القوى تصلح مرشدا لنا فى ميدان المعرفة ذاته ، وينكرون قدرة العقل فى هذا الميدان ، أو يجعلون له مكانة ثانوية . ومثل هذا التفكير كان ، ولايزال ، عقبة فى طريق تقدم العلم .

ولقد كانت أشهر هذه القوى التى حورب بها العقل ، فى عصور مختلفة وعلى أنحاء متباينة ، هى قوة الحدس . وكلمة الحدس قد تفهم ، فى استخدامها العربى العادى ، بمعنى مشابه لمعنى التخمين أوالتكهن ، ولكنها يمكن أن تتضح فى أذهاننا إذا ما حددنا المجالات المختلفة التى يستخدم فيها هذا اللفظ استخداما فنيا دقيقا . وسوف نلاحظ أن معانى اللفظ ، فى كل هذه المجالات ، تشترك جميعها فى سمة أساسية ، يكون فيها الحدس معرفة « مباشرة » ، تتم بلا وسائط ولاخطوات متدرجة :

١ ـ فهناك حدس حسى ، نقصد به إدراكنا العادى بحواسنا . فحين ادرك الآن أن الحائط الذى أراه أمامى أبيض اللون ، يكون ذلك حدساً ، حسب المصطلح الفنى ، لأننى أدرك هذا الحائط إدراكا مباشرا . فأنا لم « أستنتج » أنه أبيض ، ولم يقل لى أحد أنه كذلك ، وإنما أراه بحواسى مباشرة .

٢ ـ وهناك حدس فى المجال العقلى ، نقصد به وصول العقل مباشرة إلى النتيجة المطلوبة . وكل من درس مقررا بسيطا فى الهندسة يعلم أن هناك طريقتين لحل تمرين هندسى : الأولى هى أن يفكر المرء فى « معطيات » التمرين ويحللها واحدا واحدا ، ويسير بخطوات متدرجة حتى يهتدى أخيرا إلى الحل ، والثانية هى أن تأتى فكرة الحل أو تهبط على العقل من أول لمحة ، بلا تحليل وبغير تدرج ، ولاتستخدم الخطوات المتدرجة إلا فى طريقة « تدوينه » لهذا الحل المباشر فحسب . فهنا يكون الحدس نوعا من المعرفة التى لا نحتاج

فيها إلى استدلال أو استنباط ، بل تأتى مرة واحدة وبصورة مكتملة تغنينا عن أية خطوات وسطى .

٣ ـ وهناك حدس فى المجال العاطفى ، وذلك حين يشعر المرء بالتعاطف أو التنافر مع أشخاص معينين من النظرة الأولى ، دون أن يكون قد عرفهم أو سمع عنهم شيئا . ومثل هذا الحدس ، الذى يشبه ما يسمونه « بالحاسة السادسة » عند المرأة ، قد يكون صوابا أوخطأ ، وقد تؤيده الخبرة والتجربة فيما بعد أو تكذبه ، ولكن الذى يهمنا أنه ، بدوره ، شعور أو عاطفة مباشرة ، يصدر الحكم فيها على الفور ، ودون خطوات متدرجة .

٤ ـ وهناك حدس فى المجال الصوفى ، وذلك حين يؤكد المتصوف أن لديه معرفة بالله تختلف عن تلك المعرفة الاستدلالية المتدرجة التى نصل إليها عن طريق « البراهين » العقلية . فهو يشعر « بحضور » الله مباشرة فيه ، وهو يصل إلى الفناء فى الذات الإلهية فى تلك اللحظات القليلة التى يستحيل وصفها بلغة الكلام ، والتى لا يحس بها إلا من مرّ بالتجربة ذاتها . وهنا أيضا نجد نوعا من المعرفة المباشرة التى لا تستخدم براهين أو استدلالات ، والتى توصلنا إلى الهدف مباشرة بطريق مخالف للطريق العقلى المتدرج .

٥ ـ وأخيرا ، فهناك ذلك الحدس الفنى الذى تحدثنا عنه فى البداية ، والذى يطلق عليه عادة اسم « الإلهام » ، وأهم ما يميزه هوالظهور المفاجىء والمباشر لفكر العمل الفنى أو لموضعه فى ذهن الفنان .

هذه المعانى كلها تشترك فى ثلاثة عناصر رئيسية يتميز بها الحدس ، من حيث هو طريقة فى معرفة الأشياء عن غيره من طرق المعرفة .

ا ـ فهو معرفة « مباشرة » ، لا تحتاج إلى وسائط ولاتسير بالتدريج

من خطوة إلى أخرى .

ب - وهو ينقلنا مباشرة إلى « لب » الموضوع الذى نريد أن نعرفه أو إلى جوهره الباطن ، بدلا من أن يكتفى بتقديم أوصاف خارجية أو سطحية لهذا الموضوع ، أو يقتصر على معرفته من خلال مقارنته بغيره .

جـ - وهو فى جوهره معرفة « فردية » ، أى أنه يتاح لشخص بعينه ، لا لأى شخص آخر . وهو يتطلب « تجربة » من نوع خاص ، يصعب نقلها عن طريق الوصف إلى الآخرين (حتى فى حالة الإدراك الحسي يستحيل نقل ما تراه العين إلى غير المبصر نقلا أمينا وكافيا) ، ويصعب تلقينها أو تعليمها لهم ، ويستحيل أن « نعممها » على الجميع .

على هذا الأساس كان هناك دائما من يتصور أن طريقة المعرفة المثلى لدى الإنسان ليست هى طريقة استخدام البراهين أو الأدلة العقلية ، بل هى الحدس المباشر الذى يوصلنا إلى اللب الباطن للموضوع الذى نريد معرفته . ذلك لأن العقل ، فى نظر هؤلاء ، يعيبه أنه يسير دائما بخطوات متدرجة ، ولا يستطيع أن يتقدم خطوة إلا بعد التأكد ـ بالبرهان ـ من صحة الخطوة السابقة . وهو فضلا عن ذلك « عام » ، أى أنه لا يعطينا معرفة إلا بالصفات المشتركة بين الأشياء ، وهى تلك الصفات التى يستطيع « الجميع» أن يدركوها . وهو يلجأ دائما إلى المقارنة وكشف العلاقات بين الظواهر. ومعنى ذلك ـ فى رأى أصحاب هذا الاتجاه ـ أنه لا يكشف لنا إلا عن علاقات سطحية ، ولاينفذ بنا إلى الجوهر الباطن للأشياء .

وحين يصبح الحدس ـ عند أصحاب هذا الاتجاه ـ قوة « مضادة » للعقل ، فهنا ينبغى علينا أن ننبه إلى الخطأ الذى يقعون فيه . ولكن من

حسن الحظ أنهم ليسوا جميعا من خصوم العقل . فهناك مفكرون يدافعون عن الحدس من حيث هو قوة « مكملة » للعقل ، لا تتعارض معه بل تتوج جهوده وتوصلها إلى نتائجها القصوى . وهذه نظرة إلى الحدس لا تشكل أية عقبة في طريق التفكير العلمي ، ومن ثم فلن تركز عليها حديثنا الآن .

أما العقبة الحقيقية فتتمثل في أولئك الذين ينكرون دور العقل ، أو يقللون من أهميته ويضيقون المجال الذى ينطبق عليه ، وذلك لحساب تلك القوة الأخرى التى قد يسمونها بالحدس أو « الغريزة » أو« سورة الحياة » أو غير ذلك من الأسماء . ولقد وجدت أمثلة لهؤلاء المفكرين فى مختلف عصور التاريخ ، وكان رأيهم يختلف ، فى جزئياته ، تبعا للعصر الذى يعيشون فيه ، وتبعا للدور الذى يؤديه العقل ـ خصمهم الأول ـ فى ذلك العصر. ومازلنا نجد لهم أمثلة فى حياتنا المعاصرة ، فى كتابات أولئك الذين لا همّ لهم إلا أن يحطوا من شأن العقل ويقللوا من قيم نتائجه ، ولاهدف لهم إلا أن يثبتوا قصور المعرفة البشرية وعجز العلم ذاته عن الوصول إلى حقيقة الأشياء .

ويتبع خصوم العقل هؤلاء أسلوبا متشابها : فهم يبدأون من مقدمة صحيحة ، ثم يستنتجون منها نتيجة باطلة . أما المقدمة الصحيحة فهى أن العقل ما زال عاجزا عن كشف كثير من أسرار الكون ، وأن هناك مشكلات كثيرة يعجز العقل عن حلها ، ويتضح لنا فيها أن قدرته محدودة . وأما النتيجة الباطلة ، التى يستنتجونها مما سبق ، فهى أن العقل « بطبيعته » عاجز ، وأنه سيظل إلى الأبد قوة محدودة قاصرة ، ومن ثم فلابد من الاعتماد على قوة أخرى غيره .

هذا الأسلوب الخادع فى مهاجمة العقل ينطلى ، للأسف ، على الكثيرين ، لأنهم حين يجدون المقدمة صحيحة ـ والشواهد تؤيدها بالفعل ـ

يتصورون أن النتيجة مترتبة عليها حقا ، ولابد أن تكون بدورها صحيحة ، ومن ثم فإنهم يفقدون ثقتهم بالعقل من حيث هو أداة لاكتساب المعرفة وبلوغ الحقيقة . ولكن الواقع أن الاستنتاج باطل من أساسه ، وأن ما نلمسه حولنا من عجز العقل عن حل مشكلات كثيرة لايثبت على الإطلاق أن العقل « فى ذاته » قاصر .

ذلك لأن أصحاب هذه الحجة الباطلة يتكرون تماما دور التاريخ ، سواء فى الماضى أم فى المستقبل . فلو قارنا حالة المعرفة البشرية منذ خمسمائة عام مثلا ، بما هى عليه الآن ، لاتضح لنا أن العقل قد حقق إنجازات رائعة بحق ولو قارنا نمط الحياة البشرية منذ مائة عام فقط ، بحالتها الراهنة ، لتبين لنا أن العقل قد غير وجه حياتنا تغييرا تاما فى هذه الفترة التى تعد بالمقاييس التاريخية ـ فترة قصيرة .

ومن المؤكد أن مراجعة سجل الانجازات العقلية فى الماضى تثبت لنا أن العقل حقق أشياء ضخمة بحق ، وأنه ليس على الاطلاق تلك القوة المحدودة القاصرة التى يصوره بها الكثيرون . أما بالنسبة إلى المستقبل ، فإن الأمل فى اتساع قدرة العقل هو أمل لا حدود له . فلو تخيلنا ما سيكون عليه العالم بعد خمسمائة سنة أخرى ، مع عمل حساب التزايد المطرد فى معدل نمو الإنجازات العقلية العلمية ، فإن الصورة التى سنكونّها عندئذ أبعد ما تكون عن صورة ذلك العقل العاجز الذى يتحدثون عنه . صحيح أن العقل مازال يجهل الكثير ، وما زال يعجز عن الكثير ، ولكنه أفضل أداة نملكها لكى نعرف عالمنا ونسيطر على مشاكلنا ، وبفضل هذه الأداة حققنا حتى الآن أشياء رائعة ، وتغلبنا على مشكلات كنا نتصور فى الماضى أنها لاتحل إلا بالسحر أو الخيال (بساط الريح ، أو الصندوق المتكلم من أقصى أطراف الأرض ، على سبيل المثال) . وهو يواصل سيره ، فيخطىء حينا

ويصيب حينا ، ولكن الحصيلة العامة لمسيرته تمثل انتصارا رائعا للإنسان . وحسبنا أن نقارن بين القرون الأربعة التى استخدم فيها الإنسان عقله أداة لبلوغ المعرفة (من القرن السابع عشر حتى القرن العشرين) وبين القرون السبعة عشرة التى سبقت ذلك ، والتى كانت أداة المعرفة المستخدمة فيها واحدة من تلك التى يدعو إليها خصوم العقل ـ حسبنا أن نجرى هذه المقارنة لكى ندرك أن قضية إنكار قدرة العقل ، لمجرد كونه لم يتوصل حتى الآن إلى « كل شىء » ، هى فى صميمها قضية خاسرة .

على أن خصوم العقل لا يتخذون جميعا هذا الموقف الفج ، بل إن منهم من يحاولون أن يصبغوا الملكة التى يدافعون عنها ضد العقل ـ أعنى الحدس ـ بصبغة أكثر تعمقا ، ويضفون على مهاجمتهم للعقل طابعا أكثر منطقية . وبغض النظر عن التناقض الواضح فى مهاجمة العقل بطريقة تعتمد على « منطق سليم » ـ أى على منهج « عقلى » ـ فإن رأى هؤلاء بدوره ، وإن كان فى مظهره أدعى إلى الاحترام من الرأى السابق ، لايقل عن غيره تهافتا .

والمثل الواضح على هذا هو موقف الفيلسوف الفرنسى « هنرى برجسون » الذى مات فى الاربعينات من هذا القرن ، والذى شهد انتصارات حاسمة للعقل منذ بداية القرن العشرين . فقد دافع برجسون بحماسة فائقة عن « الحدس » ، الذى هو فى نظره الملكة القادرة على النفاذ بنا إلى العمق الباطن للأشياء ، فنعرف بذلك « ما هو فريد منها ، ومن ثم ما يند فيها عن كل تعبير ». أما العقل فلا يكشف لنا إلا عن السطح الظاهر للأشياء ، والدليل على ذلك أنه يستخدم فى التعبير عن قوانينه لغة الرياضيات ، والرياضيات لاتتضمن إلا تجريدات شديدة العمومية . فالعقل إذن يقدم إلينا معرفة بأعم صفات الأشياء ، وهو يجرد موضوعاته من مضمونها الحى

الملموس ، لكى يحولها إلى صيغ وأرقام ومعادلات عجفاء باردة . والفرق بين معرفة الحدس ومعرفة العقل أشبه بالفرق بين الإنسان النابض بالحياة وهيكله العظمى . ولكى نكون متصفين فإن برجسون لاينكر العلم المعتمد على العقل ، بل يراه غير كاف ، ويضع إلى جواره ذلك النوع الآخر من المعرفة ، الذى اعتقد أنه أعمق من المعرفة العقلية بكثير .

والمشكلة فى هذا النوع من المفكرين هى أنهم يخلطون ، على نحو مؤسف ، بين مقتضيات الحياة الشخصية ، والتجارب الفنية والشعرية من جانب ، ومقتضيات المعرفة العلمية من جانب آخر . فكل مايقوله برجسون صحيح ، ولكن فى مجال معين لا يتعداه . ذلك لأننى حين أكون بصدد تجربة شخصية ، كتجربة صداقة أو حب ، يكون الحدس عنصرا أساسيا فى معرفتى بالآخر ، لأنى لا أريد أن أعرف عنه « معلومات » فحسب ، بل أريد أن أحس به كإنسان ، وأن أنفذ إلى ما هو عميق وفريد فيه . وأمثال هذه التجارب هى التى يتخذها الشعراء والفنانون موضوعات لأعمالهم الفنية . بل إن هؤلاء الآخرين يمرون بتجارب كهذه حتى مع « الأشياء » ، فالشجرة التى يصفها الشاعر ، هى شجرة يقيم معها علاقة حميمة خاصة ، وليست على الإطلاق هى الشجرة التى يمر عليها عابر السبيل أويصف العالم خصائصها العامة ويحدد فصيلتها النباتية ، الخ .. والمصور ينفذ بعينيه إلى أعماق « الطبيعة الصامتة » التى يصورها فى لوحاته ، فيكتشف فى الجماد صفات فريدة تخفى على العين التى لا تتعامل مع هذا الجماد إلا من حيث هو « أداة » فحسب .

وإذن فقد كان برجسون ، وغيره من أنصار الحدس ، يتحدثون بالفعل عن نوع خاص من المعرفة ، نوع ينطبق على مجالات معينة ، ويحتاج الإنسان إليه بالفعل فى مواقف معينة من حياته . وإلى هذا الحد لايملك

أحد أن يعترض عليهم بشيء . ولكن المشكلة هي أنهم يقارنون بين هذا النوع وبين المعرفة العقلية في العلم ، ويتهمون هذه الأخيرة بالقصور ، اعتمادا على أن المعرفة الحدسية أعمق منها . ولو كانوا قد اقتصروا على تحديد المجال الذي يسري عليه كل من نوعي المعرفة هذين ، لما كان لنا عليهم أي مأخذ .

ذلك لأن الإنسان يحتاج بالفعل إلى نوعي المعرفة هذين، كل في مجاله الخاص . ولكي ندلل على ذلك ، يكفينا أن نتخيل ماذا كان يمكن أن تكون عليه حياة الإنسان لو أنه كان يقتصر ، منذ فجر تاريخه ، على ذلك النوع المحبب إلى نفوس أنصار الحدس . فلو كان الشكل الوحيد لعلاقة الإنسان بالإنسان ، أو لعلاقته بالطبيعة ، هو الصلة المباشرة الوثيقة ، التي تتعمق فيما هو فردي وتترك جانبا ماهو عام في الأشياء ، لكان الإنسان قد مر بتجارب شخصية عميقة بغيرشك ، ولكان حسه الفني قد أصبح أشد إرهافا مما هو عليه الآن ، ولكان أكثر رقة وشاعرية ... هذا كله محتمل ، ولكن الإنسان كان سيقف عندئذ عاجزا عن « فهم » الظواهر التي تحدث حوله ، وعن « السيطرة » عليها ، وكانت حياته الذهنية والروحية ـ فضلا عن حياته المادية بالطبع ـ ستصبح عندئذ هزيلة خاوية ، يملؤها فراغ الجهل وقصور العقل .

ولا شك أن لهذه الحجة وجها آخر ينبغي ألا نغفله ، هو الوجه العكسي .. فلو كانت حياة الإنسان قد خلت تماما من عنصر التجارب الشخصية واقتصرت على عنصر المعرفة العقلية العلمية ، لفقد الإنسان تلك المتعة التي تبعثها المعرفة الشخصية والعلاقة الباطنة الحميمة ، ولافتقرت الحياة إلى بُعد من أبعادها الهامة التي تبعث فيها الدفء وتشيع فيها الحرارة .

ولكن الذى حدث فعلا هو أن الإنسان قد سار فى الطريقين معا . واختيار الإنسان لهذا المسار المزدوج يعكس حكمة عميقة ، إذ يدل على أنه قد وجد الجانبين ضروريين ، ولم يحاول أن يستغنى عن أحدهما لحساب الآخر . ومعنى ذلك أن اتهام العقل بالعجز عن أداء الوظيفة التى يؤديها الحدس ، فى مجال العلاقات الشخصية ، هو اتهام لامبرر له ، وهو خلط بين ميدان وميدان . فالعلم المرتكز على العقل شكل ضرورى من أشكال المعرفة ، وكان لابد أن يتخذ طابعه هذا حتى ينمو ويتطور ، ومهاجمته باسم تلك التجربة « الفريدة ، التى لايمكن التعبير عنها » هى خلط بين مايصلح على مستوى العلاقات الشخصية ، وما يصلح على مستوى المعرفة العامة . فالإنسان محتاج إلى أن يكون شاعرا وعالما ، وهو فى حياته يجمع ـ كما هو معروف ـ بين العاطفة والعقل . والخطأ لايكون فى تأكيد أى من هذين الجانبين ، بل هو يبدأ منذ اللحظة التى نحاول فيها أن نطبق مبادئ أحد الجانبين على الآخر ، أوننقد أحد الجانبين باسم الآخر .

رابعا ـ التعصب :

التعصب هو اعتقاد باطل بأن المرء يحتكر لنفسه الحقيقة أو الفضيلة ، وبأن غيره يفتقرون إليها ، ومن ثم فهم دائما مخطئون أو خاطئون . ومن هنا فإن التعصب ، الذى يتخذ شكل تحمس زائد للرأى الذى يقول به الشخص نفسه أو العقيدة التى يعتنقها ، يتضمن فى واقع الأمر بُعدا آخر : فهو يمثل فى الوقت نفسه موقفا معينا من الآخرين . فحين أكون متعصبا لا اكتفى بأن انطوى على ذاتى وأنسب إليها كل الفضائل ، بل ينبغى أيضا أن استبعد فضائل الاخرين وأنكرها وأهاجمها ، بل إننى فى حالة التعصب لا أهتدى إلى ذاتى ، ولا أكتشف مزاياى إلا من خلال إنكار مزايا الآخرين . وهذا هو الفرق بن التعصب وبين الاعتداد بالنفس ، الذى هو شعور مشروع ،

إذ أن المعتد بنفسه لا يبنى تمجيده لنفسه ، حتما ، على أنقاض الآخرين ، بل قد يعترف لهم بالفضل مع تأكيده لفضله هو أيضا ، أما المتعصب فلايؤكد ذاته إلا من خلال هدم الغير ، ولافارق عنده بين هذه العملية وتلك ، لأنه يهدم غيره وليس فى ذهنه إلا تأكيد ذاته ، كما أنه لايؤكد ذاته إلا مستهدفا الحط من الآخرين .

ولكن ، إذا قلنا إن المتعصب يؤكد « ذاته » من خلال هدم آراء الآخرين ، فما الذى نعنيه بكلمة « ذاته » هذه ؟ هل هى « ذاته » من حيث هو فرد ؟ هل يريد المتعصب أن يؤكد آراءه أو مواقفه الشخصية على حساب الآخرين ؟ الواقع أن جوهر التعصب لايكمن فى اتخاذ مثل هذه المواقف الشخصية ، بل يكمن فى توحيد الفرد لنفسه مع رأى الجماعة التى ينتمى إليها ، وإعلائه هذا الرأى فوق آراء أية جماعة أخرى . فالمتعصب ، فى واقع الأمر ، يمحو شخصيته وفرديته ، ويذيب عقله أو وجدانه فى الجماعة التى ينتمى إليها ، بحيث لايحس بنفسه إلا من حيث هو جزء من هذه الجماعة . ولو كان يؤكد نفسه بوصفه فردا له شخصيته المميزة لما أصبح متعصبا (١)

فلنتأمل مثلا صارخا من أمثلة التعصب ، تابعه العرب جميعا بكل جوارحهم خلال مايقرب من عامين ، هو ما حدث فى لبنان من بداية عام ١٩٧٥ . فهل كان واحد من أولئك الذين يقتلون أفراد الطائفة الأخرى « على الهوية » يفكر فى نفسه بوصفه فردا ، أو يفكر فى ضحيته من حيث هو شخص له كيانه الخاص ؟ الحقيقة أنه لم يكن ينظر إلى نفسه إلا من حيث هو ينتمى إلى « طائفة » ، وكذلك كانت نظرته إلى الضحية .

---

(١) انظر للمؤلف مقال « التعصب ، من زاوية جدلية » فى كتاب « آراء نقدية فى مشكلات الفكر والثقافة » . الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٥ . ص ٤٧ ـ ٥٥ .

وقـد يـكون كل منهـما ، على المستوى الشـخـصى ، صـديقـا للآخر ، او زميلا يتعـامـل معه منذ سنوات ، ولكن هذا كله يُنسى عندما يسيطر التعصب ، وتصبح أهم صفاتى ، وأهم صفات الآخر ، هو نوع الجماعة التى أنتمى وينتمى إليها . والحق أن تعبير « قتل على الهوية » كان تعبيرا يعبر ببلاغة عن حالة التعصب بأسرها . فهو لا يعنى فقط القـتل تبعا لنـوع « البطـاقة » التى يحملها المرء والتى يتحـدد فيها انتماؤه الطائفى ، بل تعنى أيضا قتل الآخر لأنه وضع نفسه « فى هوية » مع الطـائفـة الأخرى ، أى فى انتمـاء إليها . فكل متعصـب يعلو بنفسه بسبب « هويته » مع جماعته ، ويقتـل الآخر ـ بالجسد أو بالفكر ـ بسبب « هويته » مع جماعة أخرى .

ويترتب على ذلك أن المتعصب لايفكر فيما يتعصب له ، بل يقبله على ماهو عليه فحسب . وهنا تتمثل خطورة التعصب من حيث هو عقبة فى وجه التفكير العلمى . فالتعصب يلغى التفكير الحر والقدرة على التساؤل والنقد ، ويشجع قيم الخضوع والطاعة والاندماج ، وهى قيم قد تصلح فى أى مجال ما عدا مجال الفكر . وهذا يؤدى بنا إلى صفة أخرى أساسية فى التعصب ، هى أنه ليس موقفا تختاره بنفسك ، بل موقف « تجد نفسك فيه » . ولو شاء المرء الدقة لقال إن التعصب هوالذى يفرض نفسه على الإنسان ، وهو أشبه بالجو الخانق الذى لاتملك مع ذلك إلا أن تتنفسه . فالتعصب يكره الآخرين من خلالى ، أو يقتلهم بواسطتى . وما أنا (أو أى فرد) بالنسبة إلى التعصب سوى أداة يتخذها لتحقيق هدفه المشئوم . ذلك لأننى ، حين أقع تحت قبضته ، لا أصبح شيئا ، ولا أسعى من أجل شىء ، إلا لكى ألبى نداءه .

ولكن ، لماذا ينتشـر التعصـب إلى هذا الحد ، ولماذا يطـل برأسه

البغيض ، ويذكرنا بطبيعته البشعة بطريقة دامية ، حتى فى صميم القرن العشرين ؟ ذلك لأن التعصب يمثل حاجة لدى الإنسان إلى رأى يحتمى به ، ويعفى نفسه من التفكير فى ظله . والواقع أن الحماية هنا متبادلة : فالرأى الذى نتعصب له يحمينا ، لأنه يؤدى إلى نوع من الهدوء أو الاستقرار النفسى ، ويضع حدا لتلك المعركة القلقة التى تنشب فى نفوسنا حين نستخدم عقولنا بطريقة نقدية . ولكننا من جهة أخرى نضمن الحماية لهذا الرأى ذاته عن طريق رفض كل رأى مخالف ومهاجمته بعنف ، والسعى إلى « تصفيته » ، بالمعنى الحاسم لهذا اللفظ . وإذن فكل من المتعصب ورأيه أو عقيدته يحمى الآخر . ولكن الواقع أن هذه حماية خادعة مضللة . فهى من نفس نوع الحماية التى يكفلها لنا الخمر أو المخدر ، لأنها ترتكز أساسا على تخدير التفكير وابطاله ، ولأنها تضع أمامنا صورة باطلة للواقع ، لا ترتكز على دليل أو منطق ، بل تستمد قوتها كلها من تحيزنا لها بلا تفكير.

وهذا ينطبق على كل شكل من أشكال التعصب . فالتعصب العنصرى ، والتعصب القومى المتطرف ، والتعصب الدينى ـ كل هؤلاء يشاركون فى سمات واحدة : الانحياز إلى موقف الجماعة التى ننتمى إليها دون اختيار ، ودون تفكير ، والاستعلاء على الآخرين والاعتقاد أنهم « أحط » ، وإغلاق أبواب عقلك ونوافذه إغلاقا محكما حتى لا تنفذ إليه نسمة من الحرية ، لأن هذه النسمة ـ مهما كانت خفيفة ـ يمكن أن تهدد موقفك الذى تتعصب له ، وتهددك أنت نفسك بقدر ما وحدت نفسك مع ما تتعصب له .

وأعظم الأخطار التى يجلبها التعصب على العلم هوأنه يجعل الحقيقة ذاتية ، ومتعددة ، ومتناقضة ، وهو ما يتعارض كلية وطبيعة الحقيقة العلمية . فكل متعصب يؤمن بحقيقته هو ، ويؤكد ـ بلا مناقشة ـ خطأ

الآخرين . ولكنك حين تنتقل إلى هؤلاء الآخرين تجدهم يؤكدون هذا الشيء نفسه عن « حقيقتهم » الخاصة ، ويؤكدون خطأ الأول . وهكذا تضيع الحقيقة ـ بالمعنى العقلي والعلمي ـ في هذا التشتت والتناقض . ولو كان العقل هو الحكم بين الناس لما تعددت « حقائقهم » أو تناقضت .

وعلى الرغم من وضوح هذه الفكرة فإن الإنسانية عاشت على ما تعتقد أنه « حقائق » ذاتية تتعصب لها بلا تفكير ، فترة أطول بكثير مما عاشت على حقائق موضوعية تتناقش فيها بالحجة والبرهان . بل إن عدد أولئك الذين يقتنعون بآراء ومواقف يتعصبون لها دون نقد أو اختيار ، في عالمنا المعاصر ، يفوق بكثير عدد أولئك الذين لايقبلون الرأي إلا بعد اختباره بالعقل . ومن هنا فإن المعركة الطويلة من أجل اقرار مبدأ التسامح في الفكر والعقيدة ، مستمرة . وصحيح أنه يبدو ، ظاهريا ، أن التسامح قد تغلب على التعصب منذ أن أحرز العلم انتصاراته الكبرى في العصر الحديث . ولكن الحقيقة ـ للأسف ـ غير ذلك . فمازال التعصب كامنا في النفوس ، حتى في تلك البيئات التي يبدو فيها أنه قد اقتلع من جذوره . وتكفي أية هزة قومية أو اجتماعية عنيفة لإيقاظه من سباته ، وتجديد قوته الطاغية : كما حدث أيام ألمانيا النازية ، في النصف الأول من هذا القرن ، وكما يحدث بيننا في لبنان . وهذا وحده دليل على أن معركة العقل ضد التعصب لم تنته بعد ، وعلى أن الإنسانية مازالت في حاجة إلى « قرابين » كثيرة قبل استئصال آفة التعصب من النفوس .

على أن هذه معركة لابد من خوضها . ذلك لأن التعصب هو ، في واقع الأمر ، عقبة متعددة الأطراف ، تقضي قضاء تاما على كل إمكان للتفكير العلمي إذا تُرك لها المجال لكي تنتشر وتسيطر . فبقدر ما يعد التعصب في ذاته شيئا بغيضا ، ذا ضرر فادح للعلم ، نجد ضرره هذا لايقتصر على

ماتؤدى إليه روح التعصب وحدها ، بل إنه يجمع فى داخله كل العقبات التى تحدثنا عنها من قبل ، والتى حالت ، ومازالت تحول ، دون انطلاق التفكير العلمى بلا قيود . فالتعصب ينطوى على خضوع تام لسلطة المبدأ الذى نتعصب له . وكل متعصب ينظر إلى طريقة تفكيره الخاص ، أو على الأصح طريقة تفكير الجماعة التى ينتمى إليها ، على أنها سلطة لاتقبل المناقشة . كما ينطوى التعصب على تفكير أسطورى : إذ أن الموضوع الذى نتحيز له فى حالة التعصب يتحول إلى أسطورة ، فيختفى طابعه الحقيقى ويحل محله طابع وهمى مختلق ، فضلا عن أن المتعصب يتمسك برأيه بطريقة خلت من كل منطق ، وهو بطبيعته يشجع التفكير اللاعقلى لأنه هو الدعامة الوحيدة لموقفه . ومن هنا كان أساس النازية هو « أسطورة » الجنس الآرى المتفوق ، وكان أساس التفرقة العنصرية هو « أسطورة » الجنس الزنجى المنحط ، إلى غيرذلك من الأساطير التى يستند إليها كل شكل من أشكال التعصب .

ومجمل القول إن التعصب « عقبة مركبة » تعترض طريق التفكير العلمى ، ومن هنا كانت المعركة التى ينبغى أن يشنها عليه هذا التفكير حاسمة ، إذ أن العقل البشرى لا يستطيع أن يجد حلا وسطا بين الاثنين ، فإما العلم وإما التعصب ، ولابد من القضاء على أحدهما لكى يبقى الآخر .

خامسا ـ الإعلام المضلل :

الاعلام هو نقل المعلومات أو توصيلها . وهو يختلف عن التعليم فى أن هذا الأخير يتخذ طابعا منتظما ، ويتعلق بفئة هى فى الغالب فى مقتبل العمر ، يعدها المجتمع لمواجهة الحياة ويلقنها قيمه المعنوية ومعارفه العلمية. أما الإعلام فليس له مثل هذا الطابع المنتظم ، ولا يقتصر على فئة معينة من الناس ، ولا يحتاج ـ فى كثير من جوانبه ـ إلى استعداد للإفادة منه : فعلى

حين أن الإعلام عن طريق الصحافة ، وهو الشكل الوحيد للإعلام حتى القرن الماضى ، كان يفترض معرفة بالقراءة ، ومن ثم كان الجمهور الذى ينتفع به محدودا ، فإن الإعلام عن طريق الوسائل المسموعة والمرئية (كالراديو والتليفزيون والسينما) لا يحتاج من ناحية جمهوره إلى إعداد سابق ، ومن ثم فمن الممكن أن يتأثر به أكبرعدد من الناس .

على أن هذا التمييز بين الإعلام والتعليم ظاهرة حديثة ، بدأت عندما ظهرت وسائل للإعلام مستقلة عن نظم التعليم وأجهزتها . أما قبل ذلك فكان الحد الفاصل بين الإعلام والتعليم لا يكاد يكون ملحوظا . فلم تكن هناك وسائل للإعلام ، غير التعليم المنظم ، سوى التلقين الشفوى المباشر من شخص إلى آخر ، كالحوار فى الأسواق أو الخطابة فى دور عبادة أو الساحات العامة ، أو إلقاء الشعر على الجمهور بقصد التوجيه .

هذا النوع من الإعلام المباشر كان يؤدى فى العصور الغابرة ، وظيفة مزدوجة . فمن الممكن إذا ساده مبدأ الحوار ، أن تنجم عنه نهضة عقلية عظيمة ، وهو ماحدث بالفعل عند اليونانيين ، حيث اقترن الإعلام عن طريق الحوار، وعن طريق الخطابة السياسية المقترنة هى الأخرى بالمناقشة والحوار ، بنظام ديمقراطى فريد من نوعه ، ساد حياة اليونانيين طوال فترة غير قصيرة من تاريخهم القديم . أما إذا ساده مبدأ التلقين من طرف واحد ، والخضوع التام من الطرف الآخر ، فإنه يؤدى إلى تقوية السلطة الفكرية عند القلة ذات الشأن من أهل العلم ، ومن ثم يكون عائقا فى وجه أية نهضة علمية حقيقية . وهذا ما حدث فى العصور الوسطى ، حين كانت وسيلة نقل المعرفة والمعلومات هى التلقين المباشر من رجال الدين لأتباعهم الذين لا يملكون إلا أن يسمعوا ويطيعوا ، أوحين كان القادرون على إعلام الآخرين فئة ضئيلة يحج إليها طلاب المعرفة من كل أرجاء الأرض لكى يتتلمذوا على أيديها ،

ويتشكلوا بطابعها وقالبها .

على أن ظهور الطباعة قد افتتح عهدا جديدا فى نشر المعلومات ، يمكن أن يوصف بأنه كان فى اتجاهه العام أكثر « ديمقراطية » من أى عهد سابق . فعن طريق الطباعة أمكن نقل المعرفة إلى أعداد أكبر بكثير، وبنفقات أقل ، وأتيحت للراغبين فى العلم فرصة الاطلاع على كميات من الكتب تزيد بمراحل عما كان يتاح لطالب المعرفة فى عصر المخطوطات ـ والأهم من ذلك كله أن المعلومات لم تعد مرتبطة بمركز معين يحتكر تقديمها ويفرض طابعه الخاص على من ينضمون إليه ، بل إنها أصبحت متاحة للناس فى بيوتهم ، وعلى نطاق واسع ، وأصبح فى الإمكان لأول مرة أن ينظر المرء إلى الكتاب على أنه حافز للتفكير المستقل ، لا على أنه قيد على استقلال قارئه ، إذ لم يعد الكتاب مرتبطا ، حتما ، بشخصية كاتبه ، ولم يعد الناس مضطرين إلى تلقى التفسيرات من المؤلف نفسه ، بل إن المعلومات المتضمنة أصبحت متوافرة ، بصورة موضوعية مستقلة عن الكاتب ، بحيث يستطيع كل إنسان أن يتخذها منطلقا لتفكيره الخاص . وهكذا كان عصر الطباعة يعنى ، من الناحية العملية ، هدم مبدأ السلطة بوصفه أساسا للمعرفة ، وبداية عهد جديد من الإعلام الواسع النطاق ، المتحرر من قيود السلطة .

ولسنا فى حاجة إلى سرد بقية القصة التى بدأت منذ عهد انتشار الطباعة حتى اليوم . فقد كان استخدام المطبعة فى إخراج صحف تقدم إلى الناس ، على أوسع نطاق ، إعلاما أسهل فهما وأقرب إلى حياة الناس اليومية مما تقدمه الكتب ـ كانت تلك خطوة كبرى فى طريق التقدم الإعلامى. وعندما ظهرت أولى وسائل الاتصال عن بعد ، كالتلغراف ثم التليفون ، ازداد الترابط الإعلامى بين الناس ، واكتسب الإعلام مزيدا من الجماهيرية حين ارتبط بفن السينما ، وبدأت تلوح فى الأفق إمكانية جديدة ، هى ربط

العالم كله بشبكة من المعلومات التي تصل إلى أبعد أطرافه في أسرع وقت . وقد تحققت هذه الإمكانية ، إلى حد بعيد ، بعد اختراع الإذاعة اللاسلكية والإذاعة المرئية ، أي الراديو والتليفزيون . وسرعان ما أصبحت هذه الوسائل الجديدة أقوى وسائل الإعلام كلها ، واكتسبت بالفعل طابعا عالميا متزايدا ، يتمثل في وصول الإذاعات إلى أبعد أطراف الأرض ، وإمكانيات البث التليفزيوني في مختلف أرجاء العالم عن طريق الأقمار الصناعية . وأصبح للتلفزيون ، على وجه التحديد ، دور إعلامي يفوق دور جميع الوسائط الأخرى ، وذلك أولا لأن « الصورة » لغة عالمية تتخطى حواجز اللغات المحلية المستخدمة في الصحافة أو الإذاعة ، وثانيا لأنه يدخل كل بيت ، ولأن المتفرج يشاهده وهو في حالة استرخاء لا يبذل فيها مجهودا ذهنيا ، ومن ثم يكون التأثير الإيحائي أيسر وأعمق .

على أن تحقق هذا الحلم الذي كان يبدو مستحيلا منذ قرن واحد فقط كان لابد أن يكون له تأثيره ، إيجابا أو سلبا ، على التفكير العلمي . فوسيلة الإعلام التي تقتحم كل بيت ، والتي تخاطب أفراد الأسرة جميعا ، والتي تقدم موادها في إطار من الترفيه أو التسلية ، تستطيع أن تقوم بدور عظيم الأهمية في نشر قيم التفكيرالعلمي أو في هدمها ، سواء أكان ذلك عن طريق ما تقدمه من مواد علمية مباشرة ، أم عن طريق البرامج التي تبث فيها هذه القيم بصورة غير مباشرة ، وهو الأغلب .

والأمر الذي يدعو إلى الأسف هو أن الاتجاه الغالب على ماتقدمه هذه الوسائل الإعلامية الواسعة الانتشار ، لايخدم قضية التفكير العلمي ولا يساعد على نشر قيمه بين الجماهير العريضة التي تتأثر بهذه الوسائل . وقد بدأت تجربة تشكيل عقول الناس وصبها في قوالب واحدة تخدم أغراض نظام معين في الحكم ، أيام العهد النازي في ألمانيا ، ونجحت إلى حد كبير في

شل القدرة على التفكير المستقل عند شعب عريق كالشعب الألمانى ، واستطاعت أن تجر الملايين منه ، طائعين مختارين ـ أو على الأصح مخدرين بالدعاية المنظمة ـ إلى مذبحة الحرب العالمية الثانية ، لكى يرتكبوا أفعالا أصبحوا هم أنفسهم يعجبون ، بمجرد أن زال عنهم سحر الدعاية وتخديرها ، كيف رضوا لأنفسهم أن يرتكبوها . وكانت تلك أول تجربة « علمية » من أجل تشكيل عقول البشر ونزع قدرتها على التساؤل والمقاومة بالتدريج ، حتى تستسلم آخر الأمر لكل مايلقنها إياه نظام الحكم القائم .

ومنذ ذلك الحين ازدادت الدراسات العلمية المنظمة التى تستهدف البحث عن أقوى وسائل التأثير الإعلامى فى الجماهير ، واستخدم فى اجرائها عدد غير قليل من العلوم الإنسانية ، وخاصة بعض فروع علم النفس . وصحيح أن هذه الدراسات تتخذ مظهرا علميا وقورا ، ولكنها تهدف فى أغلب الأحيان إلى بحث أفضل الطرق لتزييف عقل الإنسان أو الانحراف بارادته فى اتجاهات مرسومة مقدما ، ويندر أن نجد بينها بحثا يستهدف إيجاد أفضل الوسائل لزيادة الوعى وتقويم الأفكار المعوجة بين الناس عن طريق وسائط الإعلام .

وتسير عملية التزييف هذه ، فى الوقت الراهن ، فى طريقين : الاول منهما تجارى ، هدفه الأول والأخير ترويج السلع بين الناس ، حتى لو لم يكونوا فى حاجة ماسة إليها ، وحتى لو كانت احتياجاتهم الحقيقية تتعلق بأشياء مختلفة عنها كل الاختلاف . وفى سبيل ذلك تقوم شركات الإعلان ، التى تعتمد على العديد من العلماء والباحثين ، بابتكار أكثر الطرق فعالية لخلق حاجات أو رغبات مصطنعة بين الناس ، وللقضاء على قدرتهم على التمييز بين ماهو ضرورى وما هو غير ضرورى . وعادة تنتشر هذه الإعلانات ، فى البلاد التى تعتمد على الاقتصاد الحر ، وسط برامج إذاعية

أو تليفزيونية تتفق عليها الشركة المنتجة خصيصا لكى تروج سلعها فى فترات معينة خلال العرض . ولابد أن تكون هذه البرامج من نوع يشد المتفرج حتى تظل عيونه وآذانه وعقله مثبتة على الجهاز . وهكذا يؤدى هذا الأسلوب إلى ضرر مزدوج : لأن البرنامج المقدم نفسه حافل بالإثارة والعنف والجريمة والجنس الرخيص ، وكلها أمور تؤثر فى ملكات التفكير السليم لدى البشر ، فضلا عن أن المادة الإعلانية نفسها تحرص ـ بطرق مدروسة ـ على تعهد عناصر الرغبة الرخيصة أو التافهة وتجاهل أى عنصر جاد فى طبيعة البشر .

أما الطريق الثانى الذى تسير فيه عملية التزييف هذه ، فهو طريق سياسى . إذ أن نظم الحكم المختلفة تستعين بأجهزة الإعلام من أجل دعم مركزها بين شعبها أو بين الشعوب الأخرى ، وتلجأ إلى أساليب تتنافى مع مقومات التفكير السليم : فتلح مثلا على نشر صورة زعيم معين وتضخيم أخباره وتكرارها بلا انقطاع ، وتستخدم كل أنواع المغالطات من أجل تبرير تصرفاته ، وهو أمر لم يكن يحدث فى فترات التاريخ السابقة على الإطلاق، حين لم يكن الناس يرون زعمائهم أو يسمعونهم إلا نادرا . ومعظم العقول تستسلم بسهولة لهذه الدعاية الملحة المتكررة ، ولكن العقول الواعية نفسها قد تظل تقاوم تأثيرالدعاية ، وتحتفظ بقدرتها على التفكير المستقل ، إلى حين ، ثم لاتجد أمامها مفرا من الإستسلام آخر الأمر ، لأن الدعاية « العلمية » الحديثة تعمل بحرص ودأب على إشاعة العقلية التى تصدق ، وتستسلم ، وعلى هدم روح النقد ونشر روح الانقياد . وهكذا قد يجد المجتمع نفسه يؤيد نظما جائرة ، ويصفق لزعماء يظلمونه ، لأن الدعاية الحديثة أفقدته كل قدرة على التفكير السليم والرؤية الواضحة .

ولقد أتيحت لى ذات يوم فرصة لتجربة طريفة تكشف عن طبيعة

الأساليب التى تستخدمها النظم السياسية مع شعوبها عن طريق الدعاية : إذ كان هناك مؤتمر حضره رؤسا مجموعة من الدول ، وشاءت المصادفات أن أسافر بعد انتهاء المؤتمر مباشرة وأمر فى طريقى بسرعة على أربع دول اشترك رؤساؤها فى هذا المؤتمر. وقد حرصت على قراءة الصحف فى هذه الدول الأربع ، فإذا بى أجد الصحافة فى كل دولة تصور المؤتمر وكأنه كان ، من بدايته إلى نهايته ، يدور حول محور رئيس دولتها نفسه : فهو الذى جذب انتباه الجميع ، وهو الذى أقنع الجميع باقتراحاته ، وهو الذى يبذل أعظم جهد لإنجاح المؤتمر .. الخ .. وتكرر هذا الموقف بحذافيره فى كل دولة من الدول الأربع ، بحيث يظن شعب كل من هذه الدول أن رئيسه كان أبرز الجميع وأذكاهم وأقدرهم على الاقتناع ، على حين أن الباقين كانوا يقتدون به ويأخذون منه المشورة ، الخ .

وهكذا فإن وسائل الإعلام الحديثة ، التى كانت تبشر بعهد تنتشر فيه المعلومات على أوسع نطاق ، وتزول فيه حواجز الزمان والمكان لكى تصبح فرص المعرفة والاستفادة متاحة للجميع - هذه الوسائل قد استغلت ، فى الأغلب ، من أجل خلق عقول نمطية ، قابلة للإيحاء والاستغلال من أجل تحقيق أهداف فئة قليلة تتحكم فى الإعلام . وليس معنى ذلك أن نتيجة انتشار هذه الوسائل كانت شرا كلها ، إذ أن البشر بغيرشك أصبحوا الآن قدر بكثير على اكتساب المعلومات مما كانوا فى العصور الماضية ، ولكن الأمر المؤسف هو أن الإمكانات الهائلة لهذه الوسائل ذات الانتشار عظيم الاتساع قد استغلت فى أغلب الأحيان للإضرار بقدرة الناس على التفكير السليم .

ولا يستطيع المرء أن يستثنى من هذا الحكم أى نظام من النظم الرئيسية السائدة فى عالم اليوم : فالمعسكر الاشتراكى يلجأ فى أحيان كثيرة

إلى حجب حقائق أساسية (كما يحدث فى حالات الأزمات أو الكوارث) أو ذكرها بإيجاز شديد ، إذا لم تكن فى مصلحته . وكثيرا مايكون الرأى الآخر فيه مرفوضا ، بل تكون إمكانية ظهوره منعدمة أصلا ، بحيث تضيع على الناس فرصة الحوار المثمر بين أطراف متعارضة . والحجة التى تقال فى هذا الصدد هى أن هناك غاية أساسية أو هدفا أساسيا ينبغى أن يسخر كل شىء لخدمته ، ولكن المشكلة هى أن بعض الناس مازالوا يؤمنون بأن قيمة الحقيقة لايعلو عليها شىء ، وبأنها ـ فى صميمها ـ لاتتعارض مع أية قضية شريفة .

أما المعسكر الرأسمالى فيتفنن فى إخفاء ممارساته فى هذا الميدان ، إذ أن الأمور تبدو ظاهريا وكأن الإعلام الحر متاح للجميع ، بل إنه يتخذ من هذا المظهر« الليبرالى » دعامة أساسية لدعايته ، على أساس أنه يتفوق به على النظام المضاد تفوقا ساحقا. ولكن هذا ليس إلا المظهرالخارجى فحسب، إذ أن الإعلام عنده لايعبر إلا عن مصالح فئة واحدة من الناس ، هى الفئة القادرة على أن تمول الإعلام بإعلاناتها . ومن المعلوم أن الصحف الكبرى ومحطات الإذاعة والتلفزيون تعتمد فى تمويلها ـ كليا أوبنسبة كبيرة ـ على أموال المعلنين . هذا فضلا عن أن هذه المؤسسات الإعلامية الرئيسية هى فى أغلب الأحيان « شركات » تسير فى أعمالها وفقا للمنطق الرأسمالى البحت ، ولايمكن أن تسمح بإعلام يؤدى إلى هدمها . وهكذا يفتقر هذا النظام بدوره إلى الإعلام الصادق ، وإن كان فى سيطرته على الإعلام يتبع أساليب أذكى، وأبعد عن الطابع الصريح المباشر ، ومن تلك التى تتبعها النظم الإشتراكية .

ولقد تعمدنا أن نتحدث عن وضع الإعلام فى النظامين العالميين الكبيرين ، بعد الحديث عن خضوع الإعلام ، بوجه عام ، للأغراض التجارية

أو السياسية ، وذلك لكى نستخلص من هذا العرض السريع نتيجة ربما كانت مؤلمة ، ولكنها للأسف ضرورية ، وأعنى بها أن الإعلام الذى اتخذ فى عصرنا الحاضر أبعادا هائلة ، وأصبح تأثيره فعالا على كل عقل ، يتجه أكثر فأكثر إلى الابتعاد عن الموضوعية والنزاهة اللازمة لكل تفكيرعلمى ، ومن ثم فإن هذه القوة الضخمة التى كان الناس يأملون منها أن تنشر الوعى وترعى القيم الفكرية الصحيحة ، قد أصبحت تستخدم فى معظم الأحيان بطريقة لا تساعد على تأكيد روح التفكير العلمى بين البشر

ولو أمعن المرء النظر فى الفلسفات المتحكمة فى الإعلام المعاصر ، لتبين له أنه لايكاد يكون هناك اعتراف بالقيمة المطلقة « للحقيقة » ـ تلك الحقيقة التى تعلو على أى عتبار آخر ، سواء أكان ذلك مصلحة طبقة أو حزب أو حتى مصلحة مجتمع كامل . فالحقيقة أصبحت « وظيفة » ، بمعنى أنها وسيلة لغاية أخرى ، ويكاد يختفى من الإعلام الحالى ذلك المبدأ الذى يتمسك بالحقيقة أولا ، مهما كانت النتائج ، ويحل محله مبدأ آخر يطبقه الجميع ، فى النظام الاشتراكى وفى النظام الرأسمالى وفى العالم الثالث ، هو أن الحادث الواحد ينبغى أن يُعرض ويفسر وفقا لمصلحة الوضع القائم ، وأن حقيقة الإنسان الرأسمالى بطلان فى نظر الاشتراكى ، والعكس بالعكس .

من هنا كان الإعلام المضلل عقبة كبرى فى وجه التفكير العلمى فى عالمنا المعاصر ، إذ أن التفكير العلمى لايعترف إلا بحقيقة واحدة ، لاتتلون أو يتغير تفسيرها وفقا للمصالح .

وصحيح أن وسائل الإعلام تضلل عندما يكون الأمرمتعلقا بمصالح سياسية أو اقتصادية ، ولا تلجأ كثيرا إلى التضليل فى بقية الميادين ، ولكن هذا الميدان حيوى ، والتزييف فيه يؤثر تأثيرا كبيرا على طريقة تفكير

الإنسان ، لأنه أولا يحول بين الناس وبين فهم أنفسهم ومجتمعهم بطريقة علمية ، والأهم من ذلك أنه يعودهم الاستسلام للمغالطات ويسلبهم القدرة على مقاومتها ، ومن ثم فإنه ينتزع من عقل الإنسان أهم ملكة يحتاج إليها لكى يفكر تفكيرا علميا ـ وأعنى بها ملكة النقد والتساؤل .

***

ولست أود أن أختتم هذا الفصل من الكتاب من غير أن أشير ، بإيجاز شديد ، إلي الوضع الخاص لهذه العقبات التى تعترض طريق التفكير العلمى فى عالمنا العربى بالذات . ذلك لأنه ، على الرغم من أن أمثلة كثيرة من تلك التى وردت عند الحديث عن هذه العقبات كانت متعلقة بالعالم العربى ، فإن من المفيد أن نختتم عرضنا لهذا الموضوع بإشارة خاصة إلى دور هذه العقبات فى بلادنا ، وحسبنا أن نعود بذاكرتنا إلى هذه العقبات واحدة بعد الأخرى ، لكى نجد أن لها فى عالمنا العربى دورا لا يستهان به ، وأن معوقات التفكير العلمى فى بلادنا كانت ولاتزال ، ذات سطوة هائلة على العقول .

فالأسطورة والخرافة تحتل فى تفكير الناس ، فى بلادنا العربية ، مكانة لا يزال من الصعب زعزعتها . وإنى لأذكر ، من تجربتى الخاصة ، أننى فى كل مرة كنت أتحدث فيها عن الحسد أو « العمل » (السحرى) بوصفه خرافة ، كنت ألقى مقاومة شديدة من عدد كبير من طلاب الجامعة ، وهم فى مجتمعنا فئة مميزة أتيح لها من فرص التعليم مالم يتح للغالبية الساحقة من أبناء الشعب . وكانت القصص التى يوردها هؤلاء الطلاب ، للتدليل بها على « صحة » الحسد وفعالية « العمل » ، نماذج صارخة للتفكير المضاد للعلم ، أو للتفكير الذى لم يسمع عن شىء اسمه العلم . بل أننى صادفت أكثرمن حالة كان فيها أساتذة جامعيون يدافعون بحرارة عن

« كرامات » إنسان طيب من أصدقائهم ، يستطيع أن يحقق أمنياته بمجرد التفكير فيها ، أو يعرف الحالة الصحية لقريب يسكن بلدا بعيدا دون أن يتصل به ، أو يجعل السيارة تسير مسافة كبيرة وهى خالية من الوقود ! فإذا كان هذا هو حال « الصفوة » (وأنا لا أعمم بطبيعة الحال) فماذا يكون حال البسطاء من الناس ؟ وكيف نأمل فى بناء مجتمع يساير العصر بعقول تعشش فيها أمثال هذه الخرافات ؟

أما عقبة « السلطة » ، فإن لها فى مجتمعنا العربى دوراً لا يستهان به ، وربما كان من أسباب رسوخ فكرة السلطة ، أن مجتماعتنا العربية ، فى أصلها ، إما زراعية وإما قبلية ، وفى الحالتين يكون المجتمع « تقليديا » ميالا إلى التقيّد الخرافى بسلطة القديم والموروث والشائع والمشهور ، وينظر إلى التجديد على أنه « بدعة » ، وإلى تحدى التقاليد على أنه هرطقة وتجديف . وليس فى وسع أحد أن ينكر أن الانهيار التام للسلطة ، فى المجتمعات الغربية الحديثة ، قد ولد تفككا وانحلالا يشكو منه المفكرون فى تلك البلاد ذاتها مر الشكوى ، ومن ثم فإن وجود قدر معين من السلطة ، فى الأسرة مثلا ، هو أمر مرغوب فيه . ولكنى أخشى أن أقول إن الخضوع للسلطة ، فى بعض المجالات ، يفوق فى مجتمعنا الحد اللازم من أجل تحقيق التماسك وتجنب الانحلال . فالسلطة فى المجال الاجتماعى ، والسياسى ، والفكرى ، مازال لها فى بلادنا دور يزيد عما هو مطلوب فى عصر يتسم ـ سواء رضينا أم كرهنا ـ بالتجديد والتغير السريع الإيقاع . وهناك خوف حقيقى من أن تتحول فضيلة الترابط والتماسك ، التى يبعثها وجود سلطة تفرض على الآخرين الخضوع لها ، إلى رذيلة ، أو على أحسن الفروض إلى سد يحول دون اكتساب العقول لذلك القدر من المرونة والتحرر ، الذى لابد منه لقيام نهضة علمية فى أى شعب .

فإذا انتقلنا إلى عقبة « إنكار قدرة العقل » ، وجدنا هذه العقبة تصول وتجول في عالمنا العربي . ومن المؤسف أن تأثير هذه العقبة لايرجع إلى أننا نتمسك بقوة أخرى ، كالحدس مثلا ، نعدها منافسة للعقل ، ونؤكد أهمية التجربة الشخصية المباشرة على حساب العلمية الموضوعية اللاشخصية ، بل إننا نتأثر بهذه العقبة بمعناها الفج : أعني بمعنى عدم الإيمان بأن العقل قادر على تحصيل العلم أو عدم الإيمان بقيمة العلم ذاته . وهناك فئة من الكتاب يجدون متعة كبرى في الحط من قدر هذا العقل الذى هو أعظم ملكاتنا ، وهو الذى يميزنا عن سائر الكائنات ، وهو الذى صنع للإنسان حضارة وتاريخا ، وجعل له هذا المركز المميز للكون . هؤلاء الكتاب ، في اتجاههم هذا ، هم أشبه بضحايا مرض « تعذيب الذات Masochism » الذين يستمتعون كلما ألحقوا الأذى بأنفسهم . بل إننا لنجد منهم من يجهد « عقله » ويتفنن في إيراد « الأدلة » و « الشواهد » و « البراهين » وكلها من صنع « العقل » نفسه ، لكي يحط من شأن العقل ! وكل مايجنيه هؤلاء هو أن يسود بين الناس اعتقاد بأن الغموض والسر يحيط بكل شيء ، وبأن الاستسلام ، والعجز عن الفهم والتفسير هوالحالة المثلى للإنسان . وهكذا تشيع الجهالة ، ويصبح الإنسان أعزل أمام شتى أنواع الدجل والشعوذة الفكرية التي يتطوع الكثيرون بتقديمها بديلا عن التفكير العقلي المنظم . ولو شئنا أن نكون منصفين لأنفسنا ، أمناء على مستقبل أبنائنا ، لطبقنا على أصحاب هذه الدعوات نفس الأحكام التي نطبقها على تجار المخدرات ـ لأنهم بالفعل لا يزيدون عن أن يكونوا مروجين للمخدرات والمسكرات الفكرية !

أما عقبة « التعصب » فقد كان من حسن حظ العرب أن دينهم وحضارتهم ظلت بمنأى عن هذا الداء الوبيل ، بحيث أصبحت الأمة العربية

تزهو على سائر الأمم بتسامحها وسعة صدرها. ولايعنى ذلك أن تاريخنا قد خلا خلوا تاما من التعصب ، فقد ظهرت بالفعل حالات هنا أو هناك ، ولكنها كانت خروجا عن التيار العام للتاريخ العربى ، ولم تكن تطل برأسها إلا فى عهود الضعف وانفلات الزمام . ومع ذلك فإننا نعانى ، فى وقتنا الراهن ، من لون آخر من ألوان التعصب ، هوالاعتقاد الباطل بأن الموضوع الواحد لايمكن أن يكون فيه إلا رأى واحد ، وبأن كل ماعداه باطل . وإذا كان هذا الاعتقاد مفهوما فى ميدان الحقائق العلمية فإنه غير مفهوم فى ميدان الحياة السياسية والاجتماعية ، حيث يعد الاختلاف في الرأى « رحمة » بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، وحيث ينبغى أن تسود روح الحوار بين الأطراف المتعددة ، حتى تتكشف الجوانب المختلفة لتلك الحقيقة المعقدة التى يشكلها الواقع السياسى والاجتماعى . ولكن ، ماأسرع ماتضيق صدورنا ، فى العالم العربى ، بالمعارضة ، وماأسهل اتهام أصحاب الرأى الآخر بالعمالة والخيانة ، وربما الكفر ، لمجرد أنهم لايسيرون فى الركاب السلطانى للرأى الواحد . هذا هو نوع التعصب الذى تستفحل شروره فى عالمنا العربى المعاصر ، والذى يعد عقبة كبرى فى طريق التفكير العلمى فى ميدان من أهم ميادين الحياة ، ألا وهو تنظيم المجتمع .

وأخيرا ، فإن عقبة الإعلام المضلل تشكل ، فى مجتمعنا العربى ، خطرا داهما على عقولنا وقدرتنا على التفكير الموضوعى . فأجهزة الإعلام عندنا لاتعبر ، فى معظم الأحيان ، إلا عن ذلك « الرأى الواحد » الذى كنا نتحدث عنه فى صدد العقبة السابقة . وهى لا تكتفى بالتضليل ، بل تشجع التفاهة وترعاها بكل عناية . وهكذا نتصور أن وسائل الإعلام الجماهيرية ، كالإذاعة والتلفزيون ، أدوات للترفيه فحسب ، وننسى دورها الجبار فى نشر الثقافة الجادة وتشجيع القيم الفكرية الأصيلة وخاصة بين أبناء شعب

يحتاج إلى هذه القيم احتياجا شديدا لكى يعوض تخلفه الطويل .

وخلاصة القول إن قدرتنا على أن نفكر فى الأمور، سواء منها ما يتعلق بالعلم أو بحياة الإنسان ومجتمعه ، تفكيرا علميا سليما ، مهددة تهديدا خطيرا بتلك العقبات التى لاتزال تمارس تأثيرها الضار فى عقل الإنسان العربى دون كابح أو ضابط . ولقد سبق لكاتب هذه السطور أن دعا مرارا إلى أن نحمى الأجيال الجديدة من أبنائنا ـ إن كنا يائسين من الأجيال القديمة ـ من هذه العقبات عن طريق إدخال المبادىء الأولية للتفكير العلمى ، بطريقة شديدة التبسيط ، فى برامجنا التعليمية ، بحيث يتنبه النشء منذ صغره إلى خطورة المظاهر التى يراها فى المجتمع المحيط به للخرافة والسلطة المتطرفة وكراهية العقل ، الخ .. وهأنذا أنتهز الفرصة لأعيد ترديد هذه الدعوة ، آملا أن يتأثر بكلماتى هذه مسئول ذو نفوذ ، ومتمنيا أن يكون هذا المسئول من الاستنارة بحيث يدرك مدى أهمية الموضوع الذى أدعو إليه ـ وهى أمنية أرجو ألا تكون عزيزة المنال !

الفصل الثالث

المعالم الكبرى فى طريق العلم

لست أود أن أقدم فى هذا الفصل تاريخا للعلم ، إذ أن هذا التاريخ من الاتساع ومن الشمول بحيث يتعين على من يتصدى له أن يعرض لتاريخ الحضارة البشرية كلها ، ولتاريخ العقل الإنسانى بأكمله ، ، وتلك مهمة يستحيل إنجازها ــ بأدنى حد من الكفاءة ــ فى مجلد واحد ، فما بالك بفصل واحد فى كتاب ؟

بل إن ما أود أن أقوم به ها هنا هو تقديم عرض موجز للمراحل الرئيسية فى طريق العلم ، أعنى لنقاط التحول الكبرى خلال تاريخ العلم ، دون أى خوض فى تفاصيل هذه المراحل. ومن شأن هذا العرض أن يقدم إلينا فى الوقت ذاته لمحة عامة عن التطور الذى طرأ على معنى « العلم » . ذلك لأن العلم ظاهرة قديمة وظاهرة حديثة فى آن واحد : إنه قديم إذا نظرت إليه بأوسع وأشمل معانيه ، أى على أنه كل محاولة يبذلها العقل البشرى لفهم نفسه والعالم المحيط به ، ولكن هذا المعنى الواسع الشامل أخذ يزداد دقة على مر العصور ، وأخذ نطاق العلم ، وأسلوب ممارسته ، يتحدد على نحو أدق من مرحلة إلى أخرى ؛ حتى وصل فى النهاية إلى وضعه الراهن . وهكذا سوف تكون مهمتنا فى هذا الفصل مزدوجة : فهى من جهة عرض موجز لأهم المعالم فى تاريخ العلم ، وفى الوقت ذاته فإن هذا العرض سيتيح

لنا أن نرى كيف تشكل معنى العلم بالتدريج ، وعلى مر العصور ، وكيف تخلص العلم بعناء وبطء شديد من المفاهيم غير الدقيقة التى كانت عائقا فى وجه تقدمه ، وكيف تبلورت مناهج وأساليب ممارسته حتى أصبحت ، فى عصرنا الحديث ، أفضل نموذج للدقة والانضباط فى استخدام العقل البشرى.

***

العالم القديم :

من الصعب أن يحدد المرء نقطة بداية لذلك النوع من النشاط الذى نطلق عليه اسم العلم ، إذ أن كل سلوك كان يقوم به الإنسان ، منذ عهوده البدائية السحيقة ، قد أسهم بغير شك فى تهذيب تفكيره وصقله على نحو يساعد على ظهور العلم فى مرحلة لاحقة . ومثل هذه الظواهر البشرية لاتنطوى على مفاجآت أو على انبثاق مباغت بلا تمهيد ، بل إن كل شيء فيها يتدرج ببطء شديد فى البداية ، ثم تتسارع خطاه حين يتم الاهتداء إلى الطريق الصحيح . .

وهكذا فإن مما لا شك فيه أن التجارب شديدة البطء ، التى مرت بها الإنسانية فى عصورها البدائية ، قد أكسبتها خبرات أدى تراكمها فى المدى الطويل إلى ظهور البوادر الأولى للتفكير العلمى . ولكن ، لما كانت هذه العصور البدائية تمثل مرحلة « ماقبل التاريخ » ، فلن نستطيع - فى مثل هذا العرض الموجز - أن نتخذ نقطة بدايتنا منها ، وإنما سنبدأ من « المراحل التاريخية » ، أعنى من تلك الحضارات القديمة التى تركت لنا وثائق تعيننا على معرفة تاريخها ، سواء اتخذت هذه الوثائق شكل آثار مادية أ- شكل آثار كتابات مدونة تتيح للمرء أن يستنتج منها نوع الحياة ونوع الفكر السائدين لديها .

وكما نعلم فإن أقدم الحضارات الإنسانية قد ظهرت فى الشرق ، ففى

هذه المنطقة من العالم التى نعيش فيها الآن ، ظهرت منذ عدة آلاف من السنين حضارات مزدهرة فى أودية الأنهار الكبرى ، كالنيل والفرات ، وإلى الشرق منها فى أنهار الهند والصين . وتدل الآثار التى خلفتها هذه الحضارات المجيدة على أنها كانت حضارات ناضجة كل النضج ، بالقياس إلى عصرها ، ومن ثم فقد كان من الضرورى أن ترتكز فى نهضتها على أساس من العلم .

وإذا كانت هذه الحضارات الشرقية القديمة تبعد عنا فى الزمان بما يتراوح بين سبعة وخمسة آلاف سنة ، فقد ظهرت فى العصر القديم أيضا ، ولكن فى وقت أقرب إلينا بكثير من ذلك العصر ، حضارة أخرى عظيمة ، هى الحضارة اليونانية القديمة ، التى يرجع تاريخها إلى ما يقرب من ألفى وخمسمائة عام ، وهى بدورها حضارة كان من مظاهر ازدهارها وجود علم ناضج .

وهنا نجد أنفسنا إزاء السؤال الذى تثيره هذه المرحلة القديمة فى تاريخ العلم ، وأعنى به : إذا كان من المحتم علينا أن نبدأ هذا التاريخ بمرحلة الحضارات القديمة ، التى بقيت لدينا منها وثائق تعيننا على فهمها ، فهل نتخذ نقطة بدايتنا من الحضارات الشرقية أم من الحضارة اليونانية الأحدث منها عهدا ؟ وهل ظهرت الأصول الأولى للعلم فى الشرق ، أم أن ما ظهر هناك كان بوادر أولى لا تستحق أن تعد بداية حقيقية للعلم ، الذى لم تظهر معالمه الحقيقية إلا فيما بعد عند قدماء الإغريق ؟

هذا السؤال هو ، فى واقع الأمر ، المحور الذى ينبغى أن تدور حوله مناقشتنا لتلك المرحلة الأولى فى طريق العلم . وسوف نبدأ كلامنا بالإجابة التقليدية عن هذا السؤال ، أعنى تلك التى نجدها فى معظم مراجع تاريخ العلم ، وخاصة ما كان منها أقدم عهدا .

ففي الحضارات الشرقية القديمة تراكمت حصيلة ضخمة من المعارف ساعدت الإنسان في هذه الحضارات على تحقيق انجازات كبرى ، مازالت آثارها تشهد بعظمتها حتى اليوم . ولكن هذه المعارف لم تكن سوى خبرات موروثة ، ربما كانت راجعة في أصلها إلى أقدم العصور البدائية للإنسان ، وقد ظلت تورث جيلا بعد جيل ، وساعدت على إثراء حياته العقلية .

ذلك لأن هذه الشعوب التي عاشت في الشرق القديم كانت بارعة في الاستخدام « العملي » للمعارف الموروثة ، ولكنها لم تكن تملك نفس القدر من البراعة في التحليل العقلي « النظري » لهذه المعارف . كانت لديها خبرات تتيح لها أن تحقق انجازات عملية هائلة ولكنها لم تتوصل إلى النظريات الكامنة وراء هذه الخبرات ، ولم تخضعها للتحليل العلمي الدقيق . أما الحضارة التي توصلت إلى هذه المعرفة « النظرية » ، والتي توافرت للإنسان فيها القدرة التحليلية التي تتيح له كشف « المبدأ العام » من وراء كل تطبيق عملي ، فهي الحضارة اليونانية .

وهكذا يمكن تشبيه العلاقة بين حضارات الشرق القديم والحضارة اليونانية ، فيما يتعلق بنشأة العلم ، بالعلاقة بين المقاول والمهندس . فالمقاول هو في معظم الأحيان شخص اكتسب قدرا هائلا من الخبرات العملية ، سواء عن طريق التلقين أو الممارسة ، ولولا القوانين التي تسنها الدول في عصرنا الحديث لكان في استطاعة معظم المقاولين أن يشيدوا أبنية سليمة تؤدي كل الأغراض التي نتوقعها من البناء . أما المهندس فهو ، إلى جانب إلمامه ببعض الخبرات العملية ، يمتلك « العلم النظري » الذي يتيح له معرفة « أسس » عملية البناء ، ويمكّنه من التصرف بحرية والخروج عن القواعد المألوفة في حالة وقوع أي طارىء . ولو قارنا بين المقاول والمهندس من حيث النتائج العملية للجهد الذي يقومان به ، لما كان الفارق بينهما

كبيرا ، لأن كلا منهما يستطيع ، فى الغالب ، أن يشيد بناء متماسكا متينا . أما الاختلاف بينهما فهو فى نوع المعرفة التى يعمل وفقها كل منهما،وهل هى معرفة تطبيقية مستمدة من خبرات متراكمة ، أم معرفة نظرية تعتمد على التحليل والبراهين المقنعة للعقل .

وهناك مثل مشهور يضرب فى معظم المراجع التى تتناول هذا الموضوع لتوضيح الفارق بين هاتين الحضارتين فى هذا الصدد : فقد اهتدى المصريون القدماء بالخبرة إلى أن مجموع المربعين المقامين على ضلعى المثلث القائم الزاوية يساوى المربع المقام على وتر هذا المثلث ، وكانوا يستخدمون هذه الحقيقة بطريقة عملية فى أعمال البناء : فعندما كانوا يريدون التأكد من أن الجدار الذى يبنونه عمودى على سطح الأرض ، كانوا يصنعون مثلثا أبعاده ٣ و ٤ و ٥ أو مضاعفاتها ، حتى يضمنوا أن هذا المثلث سيكون قائم الزاوية ، ومن ثم يكون الجدار عموديا بحق (لأن مربع ٣ هومربع ٩، ومربع ٤ هو ١٦، ومجموعهما هو مربع ٥ ، أى ٢٥) . وقد ظلت هذه الحقيقة تستخدم عندهم بطريقة عملية تطبيقية ، دون أن يحاولوا إثباتها بالدليل العقلى المقنع ، بل إن الرغبة فى إيجاد مثل هذا الدليل لم تتملكهم على الإطلاق ، لأن كل ما يهدفون إليه هو الوصول إلى نتيجة عملية ناجحة ، وهذه النتيجة الناجحة تتحقق بتطبيق القاعدة فحسب ، ولن يزيدها الاهتداء إلى الدليل العقلى نجاحا .

وفى مثل هذا الجو يستحيل أن يظهر العلم ، لأن العلم هو فى أساسه بحث عن المبادئ العامة ، لا عن التطبيقات الجزئية ، وهو سعى إلى القاعدة النظرية ، وليس اكتفاء بتحقيق أهداف عملية . ولذلك فإن العلم لم يظهر ، للمرة الأولى ، إلا عند اليونانيين القدماء الذين كان يتملكهم حافز آخر ، يضاف إلى حافز الإنجاز العملى ، هو الرغبة فى الاقتناع ، ولم تكن عقولهم تهدأ إلا حين تهتدى إلى الدليل القاطع والبرهان المقنع .

هذه باختصار ، هي الصورة التقليدية التي كان مؤرخو العلم يصورون بها العلاقة بين الحضارات الشرقية القديمة والحضارة اليونانية في موضوع نشأة العلم . ونود أن نبدي على هذه الصورة بضع ملاحظات نعتقد أنها على جانب كبير من الأهمية :

١ ـ فهذه الصورة لا تخلو من التحيز الحضاري ، إذ أن الأوروبيين المحدثين هم أحفاد الحضارة اليونانية ، وهم ينتسبون إليها انتسابا مباشرا ، على حين أن الحضارات الشرقية القديمة لا تمت إليهم بصلة ، ومن هنا فقد دأب المؤرخون الأوروبيون ، وخاصة في عصر اشتداد الروح القومية خلال القرن التاسع عشر ، على تمجيد الحضارة اليونانية ـ حضارة الأجداد ـ وتحدثوا طويلا عن « المعجزة اليونانية » ، أي عن ذلك الإنجاز الهائل الذي حققه اليونانيون فجأة ، دون أية مقدمات تذكر ، ودون أن يكونوا مدينين لأي شعب سابق ، وعن ذلك الوليد الذي ظهر إلى الوجود يافعا هائل القوة .. وكلها تعبيرات لا يمكن أن تخلو من عنصر التحيز ، لاسيما وأن أحفاد الحضارات الشرقية القديمة كانوا هم الشعوب الواقعة تحت قبضة الاستعمار الأوروبي في ذلك الحين ، وكانوا يعاملون على أنهم شعوب « من الدرجة الثانية » ، ومن ثم كان من الطبيعي أن تكون الحضارات التي انحدروا منها حضارات « من الدرجة الثانية » أيضا.

٢ ـ وتفترض هذه الصورة التقليدية الشائعة انفصالا تاما بين ميدان الخبرة العملية وميدان البحث العلمي النظري . فهي ترتكز على الاعتقاد بأن شعبا معينا يستطيع أن يكدس خبرات موروثة لمدة آلاف السنين ويحقق بواسطتها إنجازات هائلة ـ كالهرم الأكبر مثلا ـ دون أن يكون قد توصل خلال ذلك إلى النظريات العلمية التي تكوّن أساسا لهذه الخبرات . ومثل هذا الاعتقاد ينطوي على مبالغة في الفصل بين

الجوانب العملية والجوانب النظرية للمعرفة ، وهو فصل لا تبرره التجربة البشرية ذاتها فى مختلف العصور : فعندما تتراكم لدى مجتمع معين خبرات عملية طويلة ، يكون من الطبيعى أن تقوده هذه الخبرات ذاتها إلى بعض النظريات العلمية على الأقل . وليست النظرية ذاتها إلاحصيلة لتطبيقات عديدة . فالعلاقة بين النظرية والتطبيق علاقة متبادلة ، بحيث أن الممارسة العملية تمهد الطريق إلى كشف النظرية العلمية ، كما أن الوصول إلى النظرية يفتح الباب أمام كشف تطبيقات جديدة مثمرة . أما القول بأن هناك شعبا لم يعرف طوال تاريخه إلا تطبيقات وخبرات عملية ، وشعبا آخرتوصل لأول وهلة ، ومن تلقاء ذاته ، إلى الأسس النظرية للعلم ، فإنه زعم يتنافى مع التجارب الفعلية للبشرية ، فضلا عن تناقضه مع المنطق السليم .

٣ ـ على أن هذه الصورة التقليدية قد أخذت تتغير ملامحها بالتدريج ، وساعدت على ذلك عدة أمور :

ا ـ أولها تقدم البحث العلمى والتاريخى ذاته . فقد أحرز العلم التاريخى ، فى ميدان الحضارات القديمة ، تقدما هائلا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ومازال هذا التقدم مستمرا حتى يومنا هذا . وفى كل كشف جديد كان العلماء يلقون مزيدا من الضوء على حياة القدماء وفكرهم ، حتى أصبحنا نعرف اليوم عن هؤلاء القدماء أكثر مما كانت الإنسانية تعرفه عنهم فى عهود قريبة منهم ـ من الناحية الزمنية ـ كل القرب . وكانت كل هذه الكشوف الجديدة فى الميدان التاريخى تشير إلى حقيقة واحدة : هى أن التضاد بين الحضارة اليونانية والحضارات الشرقية القديمة ليس بالحدة التى

كان يصور بها ، وأن عوامل الاتصال بين اليونانيين والشرقيين القدماء كانت أقوى مما كنا نتصور . وكان كل كشف تاريخي جديد يؤكد بشكل متزايد ، أن اليونانيين كانوا مدينين بالكثير للسابقين عليهم من الشرقيين ، لاسيما وأن الاتصالات بين هاتين المنطقتين لم تنقطع لحظة واحدة ، سواء أكانت اتصالات سلمية عن طريق التجارة وتبادل الخبرات والسلع ، أو اتصالات حربية في المعارك التي لم تتوقف بين اليونانيين وبين الشعوب الشرقية .

ب ـ أدرك الباحثون أن الكلام عن « معجزة » يونانية ليس من العلم في شيء . فالقول إن اليونانيين قد أبدعوا فجأة ، ودون سوابق أو مؤثرات خارجية ، حضارة عبقرية في مختلف الميادين ، ومنها العلم هو قول يتناقى مع المبادىء العلمية التي تؤكد اتصال الحضارات وتأثيرها بعضها ببعض . وعلى حين أن لفظ « المعجزة » يبدو في ظاهره تفسيرا لظاهرة الانبثاق المفاجىء للحضارة اليونانية ، فإنه في واقع الأمر ليس تفسيرا لأي شيء ، بل إنه تعبير غير مباشر عن العجز عن التفسير. فحين نقول إن ظهور العلم اليوناني كان جزءا من « المعجزة اليونانية » ، يكون المعنى الحقيقي لقولنا هذا هو أننا لانعرف كيف نفسر ظهور العلم اليوناني .

ولا جدال في أن المكان الذي ظهرت فيه أولى المدارس الفلسفية والعلمية اليونانية ، هو في ذاته دليل على الاتصال الوثيق بين الحضارة اليونانية والحضارات الشرقية السابقة . فلم تظهر المدرسة الفكرية الأولى في أرض اليونان ذاتها ، وإنما ظهرت في مستوطنة « أيونية » التي أقامها اليونانيون على ساحل آسيا الصغرى (تركيا الحالية) ، أي في أقرب أرض ناطقة باليونانية إلى بلاد الشرق ، ذوات الحضارات الأقدم عهدا . وهذا أمر طبيعي لأن من

المحال أن تكون هذه المجموعة من الشعوب الشرقية قريبة من اليونانيين إلى هذا الحد ، وأن تتبادل معها التجارة على نطاق واسع ، وتدخل معها أحيانا أخرى فى حروب طويلة ، دون أن يحدث تفاعل بين الطرفين .

جـ - اقتنع العلماء بأن من المستحيل تجاهل شهادة اليونانيين القدماء أنفسهم . فقد شهد فيلسوفهم الأكبر « أفلاطون » الذى كان فى الوقت ذاته عالما رياضيا ، بفضل الحضارة الفرعونية على العلم والفكر اليونانى ، وأكد أن اليونانيين إنما هم « أطفال » بالقياس إلى تلك الحضارة القديمة العظيمة . وهناك روايات تاريخية كثيرة تحكى عن اتصال كبار فلاسفة اليونانيين وعلمائهم - ومنهم أفلاطون ذاته - بالمصريين القدماء وسفرهم إلى مصر وإقامتهم فيها طويلا لتلقى العلم .

والمشكلة الكبرى فى هذا الصدد هى أن الأدلة المباشرة على هذا الاتصال العلمى قد فقدت . فعلى حين أن كثيرا من الإنجازات العلمية اليونانية قد ظلت باقية ، فإن ما أنجزته الحضارات الشرقية ، فى باب العلم النظرى أو الأساسى ، لا يكاد يعرف عنه شىء بطريق مباشر ، ومعظم مانعرفه عنه غير مباشر ، أى من خلال التطبيقات العملية لهذا العلم كما تتمثل فى الآثار الباقية من هذه الحضارات . ومن الأسباب التى يعلل بها البعض ضياع العلم الشرقى القديم ، أن الفئة التى كانت تمارسه كانت فئة الكهنة ، التى حرصت على أن تحتفظ بمعلوماتها العلمية سرا دفينا ، تتناقله هذه الفئة جيلا بعد جيل ، دون أن تبوح به إلى غيرها ، حتى تظل محتفظة لنفسها بالقوة والنفوذ والمهابة التى تولدها المعرفة العلمية ، وحتى تضفى على نفسها ،

وعلى الآلهة التى تخدمها ، هالة من القداسة أمام عامة الناس ، الذين لا يعرفون عن العلم شيئا . وفضلا عن ذلك فهناك كوارث طبيعية وحروب كثيرة وحرائق متعمدة أو غيرمتعمدة ، أدت بدورها إلى ضياع ما يمكن أن يكون قد دوّن من هذا العلم فى كتب . ونتيجة هذا كله هى أن معلوماتنا عن الأصول النظرية للعلم القديم تكاد تكون منعدمة ، على حين أن معظم ما أنجزه اليونانيون ظل باقيا ، مما ساعد على نسبة الفضل الأكبر ، فى بدء ظهور العلم ، إلى اليونانيين ، وجعل من المستحيل إجراء مقارنة بين العلم اليونانى والعلم الشرقى القديم ، أو تبيان مقدار ما يدين به اليونانيون ، فى علومهم ، للحضارات الكبرى التى سبقتهم

تلك هى الملاحظات التى نود أن نعلق به على التصور التقليدى الشائع للعلاقة بين العلم اليونانى وعلوم الحضارات الشرقية ، وهى تؤدى بنا إلى القول بأن هذا التصور يفتقر إلى الدقة ، وربما كان مرتكزا على أسس غير علمية ، ولكن الصعوبة الكبرى التى تجعل من العسير رفضه كلية هى - كما قلنا - النقص الشديد فى معلوماتنا عن الأصول النظرية للعلوم التى توصل إليها الشرقيون القدماء ، ولذا لا يجد الباحثون فى هذا الموضوع مفرا من الاحتفاظ بقدر من هذه الصورة ، مع اقتناعهم ، فى قرارة أنفسهم ، بافتقارها إلى الدقة .

وعلى أية حال ، فإن نفس هذه الدوافع العملية التى تنسب إلى الشرقيين القدماء ، هى التى يمكن أن تكون قد أدت إلى ظهور بدايات العلم النظرى لديهم . فهناك ارتباط وثيق بين عملية البناء - بناء المساكن أو القصور أو المعابد - وبين ظهور علم الهندسة ، إذ أن من الضرورى حساب مساحة البناء من أجل معرفة كمية المواد اللازمة لبنائه وعدد العمال اللازمين

لإنجازه ، كما أن قوالب الحجارة لن تتلاصق إلا إذا كانت مستقيمة ، ولابد أن تكون جدران البناء كلها قائمة الزوايا لضمان سلامته . وهكذا ترتبط عملية البناء بمعان أساسية فى علم الهندسة كالخط المستقيم والزاوية القائمة وحساب المساحات .

ومن ناحية أخرى ، فقد كانت شعوب معظم الحضارات الشرقية القديمة، شعوبا زراعية ، لأن هذه الحضارات ظهرت ـ كما قلنا ـ على ضفاف أنهار كبرى . وكانت عملية الزراعة تتطلب ، من أجل نجاحها ، معلومات فلكية كثيرة ، إذ أن من الضرورى حساب المواسم الزراعية حتى يمكن زرع المحصول فى الوقت المناسب ، ولا بد من توقيت دقيق لعمليات وضع البذور ورى الأرض وجنى المحصول ، الخ ، فضلا عن ضرورة حساب مواعيد فيضان النهر والتغير فى حالة الطقس . وهكذا كان من الضرورى أن تعرف هذه الحضارات حساب الفصول والسنين ، وكانت أدق التقويمات الفلكية هى التى عرفتها حضارات زراعية عريقة ، كالحضارة المصرية القديمة وحضارة بلاد ما بين النهرين .

وكان من العوامل الأخرى التى أدت إلى تقدم علم الفلك فى هذه الحضارات ، أن كثيرا من شعوبها كانت تمارس التجارة ، وتحتاج إلى الملاحة البحرية على نطاق واسع ، ومن ثم كان الرصد الفلكى الدقيق ضروريا فى عمليات توجيه السفن فى أعالى البحار .

وأخيرا ، فقد كان للمعتقدات والأديان الشعبية تأثير هام فى نمو معارف علمية كثيرة . وحسبنا أن نذكر فى هذا الصدد أهمية العقيدة الدينية عند الفراعنة فى عمليات البناء الهائلة ، التى تحققت تلبية لمطالب دينية ، كالأهرامات والمعابد الضخمة ، وكذلك الحاجة إلى تخليد الإنسان ، والرغبة فى قهر الإحساس بفنائه ، التى حفزتهم إلى اكتساب المقدرة الخارقة على

التحنيط ، والإيمان بالتنجيم ومعرفة الطالع من التطلع إلى النجوم ، الذى أعطى بعض الناس فى تلك العهود القديمة طاقة هائلة من الصبر أتاحت لهم أن يقوموا بملاحظات وعمليات رصد مرهقة ، أضافت إلى رصيد البشرية فى ميدان الفلك معلومات لها قيمة لا تقدر . ولنذكر فى هذا الصدد أن الارتباط بين التنجيم وعلم الفلك قد ظل قائما ، فى أوروبا ذاتها ، حتى مطلع العصر الحديث ، وأن كبار علماء الفلك حتى القرن السابع عشر كانوا منجمين فى الوقت ذاته ، ولم يكونوا يجدون أى تعارض بين الملاحظة الفلكية المتأنية الدقيقة وبين البحث عن طالع حاكم ، أو التنبؤ بنتيجة معركة حربية وشيكة الحدوث ، من خلال النجوم .

فى كل هذه الحالات كانت هناك مقتضيات عملية حتمت على الحضارات الشرقية القديمة البحث فى علوم معينة . وما دامت هذه الحضارات قد نجحت فى تحقيق تلك المقتضيات العملية نجاحا رائعا ، فلا بد أن نستنتج أن حصيلتها العلمية فى هذه الميادين لم تكن ضئيلة . وإنه لمن الصعب أن يتصور المرء أن أولئك العباقرة الذين بنوا الأهرامات بتلك الدقة المذهلة فى الحساب ، بحيث لم يخطئوا إلا بمقدار بوصة واحدة فى محيط قاعدة الهرم الأكبر البالغ ٧٥, ٧٥٥ قدما (١) والذين ابتدعوا فن الضرب والقسمة ، لا يستحقون اسم « العلماء » ، وأنهم لم يكونوا إلا أصحاب تجارب موروثة ، شكلت مجموعة من القواعد والخبرات العملية التى استعانوا بها فى تحقيق هذه الإنجازات . ومن الظلم أن نأبى اسم « العلم » على تلك المعلومات الفلكية الرائعة التى توصل إليها هؤلاء القدماء ، وعلى الكشوف الرياضية الهامة التى كانت ضرورية من أجل إجراء الحسابات الفلكية ، وغيرها من

---

(1) W. Wightman : The Grouth of Scientific Ideas . Yale University Press , 1953 pp. 3 .4

الأغراض . ومن قصر النظر أن نتصور أن تلك المعلومات الكيمائية العظيمة التى أتاحت للمصريين القدماء أن يصبغوا أنسجة ملابسهم وحوائط مبانيهم بألوان مايزال بعضها زاهيا حتى اليوم ، أوالتى مكنتهم من تحنيط جثث ظلت سليمة لمدة تقرب من الأربعة آلاف عام ، لا تستحق اسم «« العلم التجريبى ». وقل مثل هذا عن مجالات كثيرة لا بد أن هذه الحضارات قد جمعت فيها بين الخبرة العملية والمعلومات النظرية ، كالطب وصناعة العقاقير والهيدروليكا (الري والسدود والخزانات) الخ .

***

وإذن ، فلم تكن نشأة العلم يونانية خالصة ، ولم يبدأ اليونانيون فى استكشاف ميادين العلم من فراغ كامل ، بل إن الأرض كانت ممهدة لهم فى بلاد الشرق التى كانت تجمعهم بها صلات تجارية وحربية وثقافية ، والتى كانت أقرب البلاد جغرافيا إليهم . وإذا كانت الحلقة المباشرة ، فيما يتعلق بانتقال العلوم الأساسية من البلاد الشرقية إلى اليونانيين ، هى حلقة مفقودة ، فإن المنطق والتاريخ والكشوف المتتابعة تؤكد لنا أنها لابد كانت موجودة .

على أن هذا لا يعنى على الإطلاق أننا ننكر فضل اليونانيين فى ظهور العلم . والحق أن الاعتقاد بضرورة وجود أصل واحد للمعرفة العلمية وتصور واحد يرجع إليه الفضل فى ظهورها ، ربما كان عادة أوروبية سيئة ينبغى التخلص منها . فإصرارنا على تأكيد أهمية الدور الذى أسهمت به حضارات الشرق القديم ، لايعنى أبدا أن اليونانيين كانوا مجرد ناقلين ، أو أنهم لم يأتوا فى ميدان العلم بجديد . وليس هناك على الإطلاق ما يمنع من وجود أصول متعددة أسهم كل منها فى ظهور مفهوم معين من مفاهيم العلم ، أو جانب معين من جوانبه ، مع اعترافنا بأن لكل من هذه الأصول ، فى ميدانه الخاص ، فضلا يستحيل أنكاره .

ذلك لأن الاعتقاد بأن للعلم أصلا واحدا ، يفترض أنه كان هناك شيء محدد المعالم اسمه « العلم » ظهر منذ أقدم الحضارات الإنسانية . وهذا افتراض لايقوم على أساس : إذ أن معنى العلم نفسه قد استغرق وقتا طويلا جدا كيما يتبلور. وربما كان عمر « العلم » ، بمفهومنا الحالي لهذا اللفظ ، لايزيد عن أربعمائة سنة . ولكن هذا لا يعني أن كل ما سبق ذلك لم يكن « علما » ، بل لقد كان العلم في طريقه إلى التشكل والتحدد ، وكان كل عصر يضيف إليه عناصر ، ويحذف منه عناصر أخرى . فلقد كان من الطبيعي أن يختلط العلم ، في مراحله الأولى ، بعناصر غريبة عنه ، كالأساطير والشعر والعقائد القديمة والرغبات والأماني البشرية ، وعلى رأسها رغبة الإنسان في أن يعيش في عالم يتسم بالنظام والجمال ، ويكون متعاطفا معه . ولم يكن من الممكن في تلك العهود القديمة ، أن يضع العقل البشري حدا فاصلا بين ماهو علم وماليس بعلم ، بل إن كل هذه العناصر كانت تمتزج في وحدة واحدة يستحيل التمييز فيها بين ما هو أصلي وما هو دخيل . وفي كل مرحلة جديدة من مراحل تقدم العلم ، كانت البشرية تتوصل إلى بعض العناصر الغريبة التي تشوه بناء العلم ؛ فتستبعدها ، وتضيف عناصر أخرى كانت مفقودة في المراحل السابقة .

وليتذكر القارئ ما قلناه في مستهل هذا الفصل من أن العرض الذي سنقدمه لمراحل تطور العلم هو ذاته عرض لتطور « معنى » العلم . فإذا لم يكن العلم قد تحددت معالمه ، وإذا لم يكن شكلا من أشكال النشاط العقلي الإنساني ، خلال تاريخه الطويل ، فلن يكون من حقنا عندئذ أن نقول إن حضارة معينة هي التي يرجع إليها الفضل في ظهور العلم ، بل إن كل مايمكننا أن نقوله هو أن هذه الحضارة يرجع إليها الفضل في إضافة عنصر هام إلى مفهوم العلم ، واستبعاد عناصر ضارة من هذا المفهوم . فإذا كان

هذا هو الوضع الصحيح للمسألة فلن يكون هنا ما يحول دون نسبة الفضل في ظهور العلم إلى عدة حضارات متلاحقة ، أدى كل منها دوره في تشكيل معنى العلم خلال مراحل التاريخ .

***

فما الذى أضافه اليونانيون إذن إلى العلم ، وما هى العناصر التى كانت متداخلة فيه من قبل ، والتى أدركوا أن من الواجب تحرير العلم وتخليصه منها ؟

لو نظرنا إلى الإنجازات العملية التى حققها اليونانيون ، وإلى الآثار المادية التى خلفوها ، لما وجدناها تمتاز كثيرا عن تلك التى تركتها لنا الحضارات الشرقية الأقدم منهم عهدا . فهم من هذه الناحية لم يكونوا أكثر تفوقا من غيرهم . ولكن أعظم إنجازاتهم كانت في الناحية النظرية ، أى فى المعارف العلمية بمعناها « العقلى » البحت . فقد كانت لدى اليونانيين قدرة هائلة على التعميم ، جعلتهم لايهتمون بالأمثلة الجزئية لأية ظاهرة ، وإنما يركزون على أعم جوانبها ، أو على قانونها العام . فهم ، على سبيل المثال ، لا يبحثون فى خصائص ذلك المربع الذى يكونه سقف بيت معين ، أوحقل مزروع ، بل كان ما يهمهم هو خصائص « المربع » بوجه عام ، أى المربع فى ذاته ، بغض النظر عن الجزئيات التى يتحقق فيها ، بل حتى ولو لم يكن متحققا فى الواقع على الإطلاق .

وهكذا توصل اليونانيون إلى سمة عظيمة الأهمية من سمات العلم ، هى « العمومية والشمول » . وقد عبر أرسطو عن هذه السمة بوضوح فى عبارته المشهورة : « لاعلم إلا بما هو عام » . ولاشك فى أن هذه السمة لا زالت ملازمة للعلم حتى يومنا هذا ، وإن كنا نقبلها اليوم بتحفظات معينة لا يتسع المجال هنا للحديث عنها . فمنذ العصر اليونانى أصبحنا ندرك أن

العلم لا يتعلق بدراسة حالات فردية لذاتها ، وإنما ينبغي أن نجعل هذه الحالات وسيلة للانتقال إلى كشف الخصائص العامة « للنوع » بأكمله ، أو للاهتداء إلى « القانون » الشامل الذي يسري على كل الأفراد . وعلى حين أن هذه السمة تبدو اليوم في نظرنا أمرا مألوفا ، فإنها قد احتاجت إلى وقت طويل حتى استقرت دعائمها عند مفكري اليونان وعلمائهم ، الذين أصروا عليها في كل ما كتبوا ، ونجحوا في فرضها على الأذهان منذ ذلك الحين .

وإذا كان العلم يتصف بالعمومية ، ويبحث في قوانين الأشياء لا في حالاتها الفردية ، فإنه بطبيعته يتسم « بالتجريد » ، وهي سمة أخرى تفوق فيها اليونانيون إلى أقصى حد ، وتمكنوا من جعلها جزءا لايتجزأ من خصائص العلم منذ ذلك الحين . والحق أن اليونانيين كانوا من أقدر شعوب الأرض على التعمق في المجردات والبحث فيها بلا كلل . ولن نستطيع أن ندرك فضلهم في هذا الصدد إلا إذا تذكرنا أن الجانب الأكبر من البشر مازالوا حتى اليوم يجدون عناء كبيرا في التفكير في الأمور المجردة مدة طويلة : فمعظم الناس يشعرون بالعناء إذا قضوا ساعة في قراءة كتاب فلسفي يتسم بشيء من العمق ، لأنه يتعامل مع أفكار مجردة ، ولا يتعامل مع أشياء ملموسة أو أشخاص محسوسين كما هي الحال في الروايات الأوربية والمسرحيات الفنية . كذلك يجد الكثيرون حتى اليوم صعوبة في التعامل مع الأرقام ، بل إن عددا كبيرا من الناس يأبون قراءة الكتاب إذا تصفحوه فوجدوا فيه أرقاما كثيرة . وما زالت دروس الرياضة تكوّن عقدة في نفوس الكثيرين ، ممن يعتقدون ـ عن خطأ في الغالب ـ أن عقولهم لم تخلق لهذا النوع من العلوم . فالتفكير المجرد يحتاج إلى جهد وعناء يصعب على كثير من الناس بذله ، حتى في عصرنا الحاضر . ولكن اليونانيين كانت لديهم ، منذ ألفين وخمسمائة عام ، قدرة خارقة على التعامل مع المجردات

بلا كلل .

لذلك كانت أعظم الإنجازات العقلية التى توصل إليها اليونانيون هى تلك التى تمت في ميداني الفلسفة والرياضيات . والواقع أن الحد الفاصل بين الفكر الفلسفى والعلم الرياضى قد أزيل عند معظم الفلاسفة اليونانيين ، بحيث كانوا ينظرون إلى الرياضة على أنها مرحلة من مراحل التفلسف ، أو على أنها تدريب أو « ترويض » للذهن يهيئه للتعمق فى الفلسفة .

بل إن مفهوم العلم ومفهوم الفلسفة كانا متداخلين ومتشابكين عندهم إلى أبعد حد . فلم يكن هناك نشاط واع مستقل اسمه « العلم » ، وإنما كان هناك سعى عقلى واحد يتجه نحو ميادين متعددة ، ويُنتج ما نسميه نحن فلسفة أوعلما ، تبعا لنوع الميدان الذى يتجه إليه ، ولكنه كان عند اليونانيين « معرفة » أو « حبا للحكمة » فحسب .

ولما كان هدف هذه المعرفة أو الحكمة اليونانية هو معرفة ما هوعام ، والوصول إلى القوانين المجردة للأشياء ، فقد كان من الطبيعي أن يكون العلم اليونانى علما « نظريا » قبل كل شىء . وتلك فى الحق هى الميزة الكبرى التى ينسبها مؤرخو الفكر الغربيون إلى الحضارة اليونانية ، ويرون فيها الحد الفاصل بين الفكر اليونانى وكل تفكير سابق له . فعلى حين يُفترض أن الاعتبارات العملية وحدها هى التى كانت تحرك الحضارات السابقة إلى جمع المعلومات العلمية ، فإن اليونانيين بحثوا عن العلم من أجل العلم فحسب ، ولإرضاء نزوع العقل إلى المعرفة ، دون أن يكون لهم من وراء ذلك هدف عملى . ولقد كان تفوقهم فى المعارف العقلية الخالصة ، كالفلسفة والرياضيات ، أكبر شاهد على ذلك ، وكانت قدرتهم الفائقة على التجريد هى التى أتاحت لهم أن يستكشفوا أبعد الآفاق فى هذين الميدانين .

ولكى يقتنع العقل ، على المستوى النظرى ، فلا بد له من الوصول إلى

« الأدلة »و « البراهين » القاطعة . ولقد كان هذا البحث عن « البرهان » مطلبا أساسيا فى الفكر اليونانى . فلم يكن هذا الفكر يقبل أية قضية ما لم يقتنع بها عن طريق دليل يفرض نفسه على العقل فرضا . ولم يكن يكتفى بالنتائج النافعة أو السلوك العملى الناجح ، بل كان يبحث دائما عن « الأسباب » . ولكى ندرك الفارق بين وجهتى النظر هاتين ، نقارن الفلاح المدرب ، بعالم الزراعة . فالفلاح الخبير يتبع أساليب معينة ، معظمها مجرب أو موروث ، تؤدى به إلى أن يجنى محصولا ناجحا ، ولكنه لايحاول أن يتساءل : « لماذا » يؤدى اتباع هذه الأساليب إلى زيادة المحصول ، بل ربما رأى ذلك سؤالا عقيما ، مادامت النتيجة المطلوبة ـ وهى المحصول الوفير ـ قد تحققت . أما العالم الزراعى فإن هدفه الأول هوالبحث عن « السبب » ، والنتيجة الناجحة ليست فى نظره كافية ، بل ليست هى الهدف المطلوب ، وإنما الهدف الحقيقى هو « معرفة الأسباب » . ومن أجل سعيه إلى هذا الهدف كان عالما .

ولو تأملنا مراحل حياة الفرد لوجدنا أن مرحلة الوعى الفكرى عنده مرتبطة ارتباطا وثيقا بهذا البحث عن الأسباب . فالسؤال « لماذا » هو الخطوة الأساسية فى طريق اكتساب المعرفة خلال حياة كل إنسان . وإنا لنجد الطفل فى السنوات الأولى لحياته يستجيب لدوافعه وحاجاته المباشرة ، دون محاولة للبحث عن سبب أى شيء ، ولكنه فى المرحلة التى يبدأ فيها وعيه فى التفتح ، والتى يود فيها أن « يعرف » نفسه والعالم المحيط به ، يظل يردد السؤال « لماذا » ؟ بلا انقطاع ، وقد يصل فى ترديده إلى حد الإملال ، كما أنه قد يسأل عن أسباب أشياء لا تحتاج إلى تعليل ، ولكن المهم أن مرحلة الوعى عند الطفل مرتبطة بالسؤال عن الأسباب . ومثل هذا يقال عن الإنسانية كلها : فعندما تتخطى مرحلة الفعل ورد الفعل المباشر ،

ومرحلة الاستجابة للحاجات الأولية ، وتبدأ مرحلة الوعى بالعالم ومحاولة تفسيره عقليا ، تكون علامة نضجها هى أنها لا تأخذ الظواهر على ما هى عليه ، ولا تكتفى باستخدامها لتحقيق أهدافها العملية ، وإنما تبحث ، قبل كل شىء عن أسبابها . ولهذا السبب بعينه كانت الحضارة اليونانية تعد ، فى نظر كثير من المؤرخين ، نقطة البداية الحقيقية للعلم .

ولنعد ، فى هذا الصدد ، إلى ذلك المثل المشهور الى ضربناه من قبل ، والذى يرد ذكره فى معظم الكتب التى تعالج هذا الموضوع ، وهو مثل المثلث القائم الزاوية . فقد تمكن القدماء ، كما قلنا ، من الاستفادة من خصائص هذا المثلث فى أغراض عملية ، ولكن اليونانيين لم يقنعهم مثل هذا الاستخدام العملى ، بل كان سعيهم يتجه إلى « البرهنة » (أى تقديم الأسباب فى صورة متسلسلة منطقيا ، ومقنعة للذهن) على الخصائص المعروفة لهذا المثلث ، وهى أن مربع الوتر يساوى مجموع مربعى الضلعين الأخرين . وكان هذا السعى إلى إيجاد « البرهان » والتوصل إلى « الأسباب » العقلية هو الذى جعل الهندسة عند اليونانيين تصبح علما ، على حين أنها كانت قبل ذلك فنا يكتسب بالخبرة والممارسة فحسب .

هذه النظرية الهندسية الخاصة بالمثلث القائم الزاوية ، تنسبَ إلى الرياضى والفيلسوف اليونانى المشهور ، فيثاغورس . على أن قيمة فيثاغورس هذا ـ الذى يمكن اتخاذه نموذجا لما وصلت إليه الروح العلمية عند اليونانيين ـ لاتقتصر على هذه النظرية المعروفة ، بل لقد انتقل فى مجال آخر من حقيقة مشاهدة بسيطة ، إلى تقديم نظرية كاملة عن العالم ، كان لها تأثيرها الكبير فى العصور اللاحقة ، وإن كان هذا الجانب من تفكيره أقل شهرة من نظريته الهندسية المعروفة . فقد أدرك فيثاغورس وجود علاقة بين النغمة الصوتية وطول الوتر الذى تصدر عنه النغمة عندما يتذبذب . وهذا هو

المبدأ الذى يسير عليه الموسيقيون عندما تتحرك أصابع يدهم اليسرى جيئة وذهابا على الأوتار فى الآلات الوترية لكى تجعل للوتر - تبعا لموضع الأصبع - طولا معينا ، هوالذى يحدد النغمة التى تصدر عنه .

هذه الحقيقة البسيطة لم تكن كافية لاستخلاص نتائج ذات أهمية كبيرة ، بل إن الأهم منها هو أن هذه العلاقة بين النغمة الصوتية وطول الوتر يمكن التعبير عنها بنسب رياضية معينة : فإذا قصرت الوتر إلى نصفه تصدر نغمة « الجواب » (أى الصوت الثامن فى السلم الموسيقى) ، وإذا قسمت الوتر بنسبة ٣:٢ كانت النغمة هى الصوت الرابع . ومعنى ذلك أن الأصوات الرئيسية فى السلم الموسيقى يعبر عنها بنسب رياضية ثابتة ، أو بعبارة أخرى أن التآلف والتناغم هو حقيقة رياضية ، ومن ثم فإن ما نجده فى الكون بأكمله من انسجام إيقاعى أشبه باللحن الموسيقى ، ومن انضباط ودقة تعبر عنها القوانين الطبيعية الثابتة ، يرتد آخر الأمر إلى الصيغ الرياضية المجردة . وكانت حصيلة هذا كله هى عبارة فيثاغورس المشهورة : « العالم عدد وتوافق أو نغم » .

فى هذا الاتجاه الذى سار فيه فيثاغورس نهتدى إلى بذرة النظرة العلمية إلى العالم : إذ أنه أرجع الاختلاف فى الكيفيات (أى فى الأصوات) إلى مجرد اختلاف فى الكم (أى فى طول الأوتار) ، وعمم هذه الحقيقة على الكون بأكمله حين جعل العالم كله « عددا وتوافقا » ، أى مقادير كمية ونسبا أو علاقات بينها . كذلك فإنه فى هذه العبارة يعبر عن سمة هامة من سمات التفكير العلمى ، هى محاولة الكشف عما يوجد وراء المظهر السطحى للأشياء . فالأصوات ، كما تدركها آذاننا ، تثير فينا أحاسيس متباينة ، ولكن من وراء هذا العالم « الظاهر » كله ، توجد حقيقة أساسية واحدة ، هى النسب العددية ، التى يمكن بواسطتها التعبير عن

أى اختلاف صوتى . وهنا نجد تلك التفرقة الحاسمة بين « مظهر الأشياء وحقيقتها » ، وهى تفرقة كان لها دور كبير فى الفكر اليونانى ، ولولاها لأصبح التفكير العلمى مستحيلا : إذ أن جوهر هذا التفكير هو ألا ننبهر بالشكل الظاهر للأشياء ، ولا ننساق وراءه ، وإنما نحاول البحث عما يكمن وراءه من حقائق أساسية .

ويترتب على هذه التفرقة بين المظهر والحقيقة ، إرجاع الأشياء المحسوسة إلى معان مجردة ، لأن من طبيعة العلم أن يجرد الظواهر من مظهرها العادى الملموس ، ويعبر عنها فى صيغ مجردة ، من معادلات أو نسب أو علاقات رياضية . ذلك هو المثل الأعلى الذى يحاول العلم تحقيقه فى جميع المجالات . فأقصى مايحلم به العالم هو أن يتمكن من التعبير عن كل مايحدث فى الطبيعة بقوانين ذات صبغة رياضية .

وربما كنا قد أطلنا قليلا فى التعقيب على هذه العبارة التى قالها « فيثاغورس » ، ولكننا قد اتخذنا منها أنموذجا يكشف لنا عن طبيعة الإنجاز الذى تحقق على أيدى اليونانيين ، ويضع أمامنا المثل الأعلى الذى كان الفكر اليونانى يتطلع إليه . ولا شك أن القارىء قد أدرك ، من خلال ما قلناه عن هذا الإنجاز ، أن اليونانيين القدماء قد تركوا فى التراث العلمى البشرى آثارا لا تمحى ، وأنهم خطوا أولى الخطوات فى ذلك الطريق الذى لم تستكشف البشرية بقية معالمه إلا بعد وقت طويل من انتهاء عهد الحضارة اليونانية القديمة بأسرها .

***

على أنه إذا كان اليونانيون قد خلفوا للبشرية عناصر أساسية ظلت ملازمة لمفهوم العلم فى عصور تقدمه اللاحقة ، وإذا كان التفكير العلمى مدينا لهم بأول تحديد دقيق لطبيعة ووظيفة هذا النوع من المعرفة ، الذى

نسميه علما ، فإن تصورهم للعلم كان فى الوقت ذاته مشوبا بعيوب أساسية ظلت هى الأخرى تكوّن عائقا هاما فى وجه نمو العلم ، وربما كانت بعض آثارها الضارة لاتزال ملازمة للعلم ، فى بعض جوانبه ، حتى يومنا هذا .

وبطبيعة الحال ، لم يكن اليونانيون أنفسهم على وعى بوجود عناصر صحيحة وعناصر باطلة فى تصورهم للعلم . فقد كان هذا التصور فى نظرهم متكاملا ، يؤلف وحدة واحدة اقتنع بها أصحابها اقتناعا تاما . ولكن التطور اللاحق للعلم قد عمل على تثبيت بعض جوانب هذا التصور ، فأصبحت فى نظرنا هى الجوانب الإيجابية ، على حين أنه سعى إلى التخلص من جوانب خرى هى التى نعدها سلبية . والحكم على ما هو إيجابى أو سلبى يتمّ فى ذه الحالة من خلال وجهة نظر العصور اللاحقة ، بعد أن أتيح للإنسان أن تبين ماذا فعل مضىّ الزمن فى فكرة اليونانيين عن العلم ، وأى عناصرها ستطاع أن يصمد خلال التاريخ ، وأيها أثبت أنه عائق ينبغى التغلب عليه .

والواقع أن نفس العناصر التى اكتسب بفضلها العلم اليونانى سماته المميزة ، هى التى انقلبت إلى عيوب بسبب تطرف اليونانيين فى تأكيدها . فاليونانيون قد أسدوا إلى البشرية خدمة كبرى حين أكدوا أن المعرفة لكى تكون صحيحة يجب أن تنصب على الحقائق النظرية ، والعامة ، ويجب أن ترتكز على براهين مقنعة . ولكنهم بالغوا فى تأكيد هذه الصفات إلى حد ألحق الضرر بتصورهم للعلم ، ولم تتمكن الإنسانية من إزالة هذا الضرر إلا بعد مضى وقت طويل جدا ، كان فيه العلم شبه متوقف ، وكان من الممكن استثماره على نحو أفضل بكثير لو لم يكن الجانب السىء من التصور اليونانى للعلم هو الذى ساد طوال هذه الفترة .

فعندما أكد المفكرون اليونانيون أن هدف العلم هو معرفة « النظرية »

التى تسير الظواهر وفقا لها ، وليس القدرة على استغلال هذه الظواهر والانتفاع بها فى المجال التطبيقى ، كانوا فى الواقع يؤكدون سمة أساسية من سمات العلم . ولكنهم لم يكتفوا بذلك ، بل تمسكوا بالتأكيد المضاد ، وهو أن العلم لاعلاقة له بمجال التطبيق ، ولاصلة له بالعالم المادى بأكمله ، وإنما الواجب أن يكون العلم « عقليا » فحسب . فالمثل الأعلى للعالم ، فى نظرهم ، هوالمفكر النظرى ، الذى يستخلص الحقائق كلها بالتأمل النظرى ، أما محاولة تدعيم هذه الحقائق بمشاهدات أوملاحظات أو تجارب تجريها على العالم المحيط بنا ، فكانت فى نظرهم خارجة عن العلم ، بل إنها تحط من قدر العلم وتجعله مجرد « ظن » أو تخمين . بل إن أفلاطون ، فيلسوف اليونان الأكبر، الذى كان فى الوقت نفسه ذا إلمام واسع بالرياضيات ، قد عاب على أحد علماء الهندسة التجاءه إلى « رسم » أشكال هندسية لإيضاح حقائق هذا العلم ، ورأى أن اعطاء علم رفيع كالهندسة صورة محسوسة يمكن رؤيتها بحاسة كالعين ، هو إنزال لهذا العلم من مكانته العالية ، فيصبح جزءا من عالم الأشياء المرئية والمحسوسة ، بينما ينبغى لكى يظل محتفظا بمكانته ، ألاتستخدم فيه التفكير العقلى وحده ، فتظل حقائق الهندسة « عقلية » على الدوام .

ويطول بنا الحديث لو حاولنا أن نتتبع مظاهر هذه النظرة العقلية الخالصة إلى العلم ، ومدى تطرف اليونانيين فى تأكيدها ، كما أن المجال لايتسع للتحدث طويلا عن الأسباب المحتملة لإصرار اليونانيين عليها . وحسبنا أن نقول إن هذا التأكيد المتطرف للعلم النظرى ، على حساب التطبيق العلمى ، ربما كان راجعا إلى أحد عاملين :

فمن الممكن أن يكون مرتبطا بنظرة إلى العالم المادى على أنه عالم ناقص ، وإلى العالم الروحى والعقلى على أنه عالم الكمال ، وهى نظرة ربما

كانت قد تسربت إلى الفكر اليونانى عن طريق معتقدات شرقية قديمة كان لها تأثيرها فى كثير من اليونانيين . ومن المعروف أن فيثاغورس نفسه كانت له « طريقة » ـ أشبه بالطريقة الصوفية ـ تأثرت طقوسها وشعائرها وتعاليمها بالعقائد الشرقية تأثرا بالغا؛ كما أن أفلاطون سار فى اتجاه مماثل . هذا الازدواج بين عالم رفيع ، غير مادى ، وعالم وضيع ، وهوالعالم المادى ، يمكن أن يكون قد انعكس على نظرة اليونانيين إلى العلم ، وأدى إلى الاعتقاد بأن العلم الجدير بهذا الاسم هو العلم العقلى ، وأن مجرد اقتراب العلم من العالم الطبيعى ، ومحاولته حل مشاكله ، يقضى على كل ماهو رفيع فى هذا العلم .

ومن الممكن أن يكون هذا التطرف فى تأكيد العلم العقلى راجعا إلى التقسيم الذى كان سائدا فى المجتمع اليونانى ـ الذى كان مجتمعا يسوده نظام الرق ـ بين المواطنين الأحرار وبين العبيد . ذلك لأن العبيد كانوا هم الذين يقومون بالأعمال الجسمية واليدوية الشاقة ، أى أنهم هم الذين كانوا يتصلون ، فى عملهم اليومى ، بالعالم المادى ، وبذلك كانوا يوفرون لأسيادهم الأحرار الوقت والجهد الذى يسمح لهم بممارسة التفكر والجدل والحوار فى المسائل النظرية الخالصة . وكان من الطبيعى فى هذه الحالة أن تنعكس مكانة الإنسان على نوع العمل الذى يمارسه ، بحيث يرتبط العالم المادى فى أذهانهم بالوضع الاجتماعى المنحط ، ويرتبط العالم العقلى بالوضع الاجتماعى الرفيع ، وبحيث يؤكدون فى النهاية أن الجهد اللائق بالإنسان الكريم ، والمثل الأعلى الذى ينبغى أن يسعى إلى تحقيقه ، هو التأمل النظرى الذى لاتشوبه من المادة شائبة ، وأن الاقتراب من العالم المادى فيه حط من كرامة الإنسان

وعلى إية حال فقد أدى ذلك إلى تجاهل اليونانيين لمبدأ تطبيق العلم فى

حل المشكلات الفعلية للعالم . وبالرغم من أن تفوقهم الهائل فى التفكير النظرى ، فى ميادين الفلسفة والرياضيات وما يتصل بها ، يشهد بأن قدراتهم العقلية كانت ممتازة ، فإنهم لم يكونوا ميالين أصلا إلى استخدام هذه القدرات لأغراض تطبيقية ، فكانت نتيجة ذلك أنهم تركوا للعالم فكرا نظريا رائعا ، ولكنهم لم يتقدموا خطوة تستحق الذكر فى الميدان التطبيقى .

ولقد عبر عن هذه الحقيقة العالم الإنجليزى الكبير « برنال » حين قال :

« إن الروعة العقلّية والفنية لليونانيين يمكن أن تبهرنا إلى حد يصعب علينا معه أن نتبين أن تأثير معرفتهم وذكائهم كان مرتبطا بالمظاهر أكثر مما كان مرتبطا بالحقائق العملية والمادية للحياة . فجمال المدن والمعابد والتماثيل والأوانى اليونانية ، ودقة منطق اليونانيين ورياضتهم وفلسفتهم ، تخفى عنا حقيقة أن أسلوب الحياة فى معظم شعوب البلاد المتحضرة كان عند سقوط الإمبراطورية الرومانية ، مماثلا إلى حد بعيد لما كان عليه قبل ذلك بألفى عام ، عندما انهارت الحضارة البرونزية القديمة (عند المصريين القدماء والبابليين ، الخ ..) ولو استثنينا بعض التحسينات الطفيفة فى الرى وشق الطرق ، وبعض الأساليب الجديدة فى العمارة الضخمة وتخطيط المدن ، فإن العلم اليونانى لم يطبق إلا على نطاق ضيق . وليس فى هذا ما يدعو إلى الدهشة ، إذ أن العلم ـ أولا ـ لم يكن يلقى اهتماما من المواطنين ميسورى الحال لأى هدف من هذا النوع ، بل كان هؤلاء يحتقرون مثل هذه الأهداف ـ وثانيا ـ لأن العلم الذى توصلوا إليه كان محدودا ، ذا طابع كيفى ، إلى حد يستحيل معه استخدامه على نطاق عملى واسع ، حتى لو استقر عزم العلماء على ذلك . » (١)

---

(1) J D. Bernal . Science in History . 3rd ed . Pelican Books 1969. Vol. 1 p. 235) .

وهكذا تركت الحضارة اليونانية والرومانية العالم دون أن يتغير كثيرا عما كان عليه فى الحضارات السابقة ، من حيث الإنجازات العملية والتطبيقية ، وإن كان اليونانيون قد هزوا عقل الإنسان هزا عنيفا ، وأيقظوا فيه التطلع إلى معرفة القوانين المجردة والأسس النظرية التى بنيت عليها الخبرات المتراكمة منذ القدم . ولم ينجح اليونانيون ، برغم امتياز عقولهم ، فى الجمع بين النظرية والتطبيق ، فكان لهم بذلك علم قادر على تغيير عقل الإنسان ، دون أن يكون قادرا على تغيير العالم .

وفى وسع القارىء أن يلمح ، خلال الحديث السابق عن مبالغة اليونانيين فى تأكيد الجانب النظرى للعلم ، نتيجتين سلبيتين كان من الضرورى أن يؤدى إليهم هذا الفصل القاطع بين عالم النظرية ، الذى هو وحده الجدير باهتمام المفكر اليونانى ، وعالم الواقع أو العالم المادى ، الذى وضعه الفكر اليونانى فى مرتبة دنيا من حيث جدارته بأن يكون موضوعا للبحث العلمى . النتيجة الأولى هى التفرقة بين مراتب العلوم ، والثانية هى العجز عن تطبيق النظريات الرياضية على البحث فى عالم الطبيعة . فلنتحدث عن كل من هاتين النتيجتين على حدة .

ففى كتابات الفلاسفة اليونانيين نجد تفرقة واضحة بين علوم عليا وعلوم دنيا ، أو علوم شريفة وعلوم وضيعة . ويكون العلم شريفا كلما كان الموضوع الذى يبحثه أرفع ، وكلما كان منهج بحثه أقرب إلى المنهج العقلى الصرف . فالفلك مثلا علم رفيع ، لأنه يبحث فى كائنات علوية ، هى الأفلاك ، التى كانت فى نظر الحضارات القديمة كلها كائنات سماوية رفيعة لها طبيعة تسمو على الطبيعة الأرضية . والرياضيات علم رفيع ، لأننا لانحتاج فى ممارستها وتعلمها إلا إلى العقل وحده . ومثل هذه التفرقة بين مراتب العلوم كان من الضرورى أن تأتى بنتائج سيئة على تطور التفكير

العلمى ، إذا أنها أدت إلى استبعاد موضوعات عظيمة الأهمية من مجال العلوم الجديرة بالاهتمام . فالكيمياء مثلا ، بوصفها علما يبحث فى المواد وتفاعلاتها ، لم يكن من الممكن أن تظهر بين اليونانيين لأن موضوعها غير جدير ، فى نظرهم ، باهتمام العالم ، ولأن طريقة بحثها ليست عقلية بحتة ، بل تحتاج إلى تعامل مع المادة . ولو تصورنا أن أحدا قد اقترح على اليونانيين البحث فى علم كالجيولوجيا ، لقوبل منهم بسخرية مريرة ، إذ أنه يبحث فيما يوجد فى باطن الأرض ، وفى العالم الأدنى ، على حين أن العالم لايليق به إلا البحث فى الأمور العليا . ولو تخيلنا أن عالما للحشرات قد زار اليونان القديمة ، لما وجد منهم إلا الازدراء ، لأن الحشرات التى يبحثها كائنات منحطة . وهكذا ألحق الفكر اليونانى ضررا بالغا بمفهوم العلم حين أصر على أن يضع العلوم فى مراتب متسلسلة ، منها الرفيع ومنها الوضيع . وكان لابد من جهد كبير لكى يحقق الفكر البشرى المساواة بين جميع علومه ، ولايرى أيا منها جديرا بالازدراء . بل إن العلمين « المحتقرين » السابقين يحتلان فى عالم اليوم مكانة رفيعة : الأول حين يتوصل مثلا إلى كشف بترولى هام ، والثانى حين يهتدى إلى وسيلة تخلص البشرية من آفة مثل دودة القطن أو ديدان البلهارسيا . وإذا كان هناك تسلسل فى المراتب بين علوم اليوم ، فإن المرء يكاد يشعر بأن الترتيب قد انعكس ، لأن العلوم التى تبحث فى الأشياء المادية : كالطبيعة والكيمياء وعلم الأحياء ، هى التى أصبح لها مكان الصدارة ، على حين أن العلوم العقلية تجاهد لكى تجد لنفسها مكانا إلى جانب العلوم الطبيعية .

أما النتيجة الثانية ، فهى أن الحرص على أن تظل العلوم العقلية محتفظة بنقائها ، بعيدا عن أدران العالم المادى ، قد أدى إلى انفصال العلوم الرياضية عن العلم الطبيعى ، فنمت الرياضيات على أيدى اليونانيين

نموا ملحوظا ، ولكنهم لم يحاولوا تطبيقها على مشكلات الطبيعة ، واستخدامها أداة للتعبير عن قوانين العالم المادى . وهكذا كان العلم الطبيعى يعانى من الإهمال أولا ، ومن الانصراف عن تطبيق الرياضيات فى صياغة قوانينه ثانيا . وكانت نتيجة ذلك أن اتسمت نظرة اليونانيين إلى العالم الطبيعى بالتخلف الشديد ، وأدى عدم تطبيق الرياضيات (الكمية) عليه إلى سيادة النظرة « الكيفية » إلى الأشياء . فحين يتحدثون عن خصائص العناصر الطبيعية يصفونها من خلال « كيفيات » فيقولون إنها حارة أو باردة ، خفيفة أو ثقيلة ، أما التعبير « بالأرقام » عن درجة الحرارة أوالوزن فلم يخطر ببالهم ، لأن الرياضة فى نظرهم لها عالمها الرفيع الذى لاينبغى أن يقترب من عالم الأشياء الأرضية . ولاشك أن هذه النظرة « الكيفية إلى العلم الطبيعى كانت تعنى تخلفا تاما فى هذا العلم ، فلاغرابة فى ألا يبدأ بحث الطبيعة بحثا علميا دقيقا إلا بعد انقضاء عصرالحضارة اليونانية بقرون متعددة .

ولقد سبق أن ذكرنا ، ضمن المزايا التى اتسم بها العلم اليونانى ، بحثه عما هو « عام » فى الظواهر ، وقلنا إن هذه سمة أساسية فى كل علم ، لأن العلم لايهتم بالأفراد إلا بقدر مايمثلون القاعدة أو القانون « العام » . ولكن اليونانيين كانوا مغالين فى هذه الصفة بدورها . فقد بالغوا فى التعميم إلى حد أنهم كانوا يطلقون كثيرا من الأحكام المتسرعة ، وتجاهلوا السمات الفردية المميزة للظواهر إلى حد الاكتفاء بأوسع وأعم صفاتها ، أعنى تلك الصفات التى لاتفيد كثيرا فى تقدم العلم .

وكان من نتيجة ذلك أن الحد الفاصل بين العلم والفلسفة لم يكن موجودا عند اليونانيين ، وإنما كان هناك نوع واحد من« المعرفة » ، قد تختلف وسائله أحيانا ، ولكنه يمثل فى كل الحالات نشاطا عقليا واحدا .

وإذا كانت الفلسفة تجد فى هذا التوحيد بينها وبين العلوم أيام اليونانيين مصدرا للفخر والاعتزاز ، فتتباهى بأنها « أم العلوم » التى خرج كل علم من حضنها عندما شب عن الطوق ، فإن العلم يجد فى هذا التوحيد ذاته سببا من أهم أسباب تخلفه : إذ أن البحث العلمى شىء والتفكير الفلسفى شىء آخر . وصحيح أن بين الاثنين عناصر مشتركة ، كالتفكير المنظم والاحتكام إلى المنطق السليم ، ولكن الطريقين يفترقان فى المنهج وفى الهدف ، وكل محاولة للبحث فى الموضوعات العلمية بالطريقة الفلسفية لابد أن تؤدى إلى تأخر العلم . وهكذا فإن العلم يرد على تباهى الفلسفة فيقول إنه يعترف بأمومتها ، ولكنه لاينسى أن هذه الأم كانت متسلطة على بنيها أكثر مما ينبغى ، ولم تعترف باستقلالهم إلا رغما عنها ، وفى وقت تأخر حلوله أكثر مما يجب .

***

وأخيرا فإنى أود قبل أن أختم هذا العرض لسمات التفكير العلمى فى العصور القديمة ، أن أشير إلى أمرين لهما أهمية خاصة :

أول هذين الأمرين هو أن الصورة التى قدمتها للتفكير القديم ، وخاصة عند اليونانيين ، لاتتناول سوى الإطار العام وحده . ولو كان المجال يتسع للمعالجة التفصيلية لأمكننا أن نشير إلى وجود حالات للتفكير العلمى اليونانى تخرج عن هذا الإطار الذى أشرنا إليه ، كما هى الحال فى البحوث الطبيعية والبيولوجية ذات الطابع التجريبى عند أبقراط وجالينوس ، أو فى كشوف أرشميدس فى ميدان الفيزياء ، أو فى ذلك المنهج العلمى الدقيق ، الذى يقترب كثيرا من المنهج الحديث ، الذى كان يتبع فى مدرسة الإسكندرية ، وهى مدرسة يونانية متأخرة كانت أساليب البحث فيها مغايرة لمعظم ماقلناه عن اليونانيين . ولكننا حرصنا على أن نقدم الصورة المجملة ،

دون خوض في التفاصيل ، وعلى أن نعرض للقارىء القاعدة العامة ، دون تقديم للاستثناءات ، رغم اعترافنا بأن بعضها كان عظيم الأهمية .

والأمر الثاني هو أن القارىء قد يجد في هذا العرض الذي قدمناه للفكر العلمي اليوناني ، برغم اكتفائه بالإطار العام دون التفاصيل ، شيئا من الإطالة . ولكن هذا أمر متعمد ، إذ أن من مزايا المرحلة اليونانية أنها تركت طابعها ، إيجابا أو سلبا ، على كثير من المراحل التالية ، ومن ثم فإن الاهتمام بتجربة الفكر العلمي عند اليونانيين يفيد في إلقاء الضوء على ما ورثته العصور اللاحقة عنهم من عناصر إيجابية ، وما اضطرت إلى مكافحته من عناصر سلبية ، فضلا عن أنه يعفينا من إعادة عرض تلك العناصر كلما عادت إلى الظهور في مرحلة تالية . فاليونانيون كانوا نقطة انطلاق عظيمة الأهمية ، وهم الذين وضعوا جزءا كبيرا من الأساس ، ولم يكن في وسع أي عصر تال أن يتجاهلهم ، بل كان لابد أن يذكرهم إما بالمدح وإما بالنقد ، ومن هنا كان من الضروري أن تأتي معالجتنا لهذه المرحلة الأساسية مسهبة نسبيا ، إذا قسناها بغيرها من المراحل .

العصور الوسطى :

لابد لنا ، عند معالجة معنى العلم في العصور الوسطى ، من أن نفرق بين العصور الوسطى في أوروبا والعصور الوسطى في العالم الإسلامي . ففي تلك الفترة الزمنية الواحدة ، كان هناك تفاوت هائل في مستوى العلم بين هاتين المنطقتين من العالم . وعلى حين أن العلم الأوروبي هبط إلى الحضيض في هذه الفترة ، فإن العلم الإسلامي وصل إلى قمته خلالها ، وكان هو مركز الإشعاع في العالم كله . وكما نعلم جميعا ، فإن لفظ « العصور الوسطى » يرتبط في ذهن الأوروبين بالتخلف والرجعية

والتعصب والركود الفكرى ، على حين أنه يرتبط فى أذهاننا بالمجد الغابر الذى نتغنى به ونحاول ـ دون جدوى فى معظم الأحيان ـ أن نستعيد قدرا منه . ومن هنا فسوف نتحدث عن كل من هاتين الحضارتين الأوروبية والإسلامية ، على حدة .

كانت مرحلة العصور الوسطى فى أوروبا طويلة إلى حد غير عادى . وإذا كان المؤرخون يختلفون فى تحديد نقطة نهايتها ، فإن الرأى المرجح بينهم هو أنها تمتد من القرن الثالث الميلادى حتى القرن الرابع عشر . وطوال الألف ومائتى سنة التى دامتها هذه المرحلة ، لم يحرز العلم تقدما حاسما فى أى مجال ، ولم يظهر تغيير جديد فى مفهوم العلم ، بل لقد احتفظت هذه العصور بأسوأ عناصر المفهوم اليونانى للعلم وعملت على تجميدها وتحويلها إلى مايشبه العقيدة التى لاتناقش .

ففى مجال المنهج العلمى ، كان أسلوب « الخضوع للسلطة » (١) هو الشائع فى طريقة التفكير فى هذه العصور . فقد ساد الاعتقاد بأن العلم بلغ قمته العليا عند أرسطو ، وبأن ما قاله هو الكلمة الأخيرة فى أى ميدان من ميادين العلم . وحدث تحالف وثيق بين معتقدات الكنيسة المسيحية وتعاليم أرسطو الفلسفية ، بالرغم من أن هذه التعاليم الأخيرة قد ظهرت فى إطار وثنى ، فكان من نتيجة هذا التحالف أن اكتسبت آراء أرسطو مايشبه القداسة الدينية ، وأصبح الاعتراض عليها نوعا من التجديف والضلال ، ولم يكن العلم فى صميمه إلا ترديدا لهذه الآراء . أما النقد والتجديد فكان يعرض صاحبه لأشد الأخطار .

أما أسلوب التفكير فكان هو الجدل اللفظى العقيم ، وكان ذلك أمرا طبيعيا فى عصر تستمد فيه عناصر المعرفة من الكتب القديمة ، لامن الطبيعة

---

(١) انظر الفصل الثانى

ذاتها . فقد برع مفكرو ذلك العصر فى إقامة الحجج والبراهين اللفظية الخالصة ، وتلاعبوا بالاستدلالات الشكلية والمغالطات التى تتخذ فى ظاهرها صيغة منطقية ، ولكنهم لم يتوصلوا إلى أى منهج فى البحث يعين على معرفة مباشرة . فالألفاظ كانت عندهم حاجزا يحجب الواقع ، والاستدلال الوحيد المعروف عندهم هو قياس الجديد على القديم ، أى على ماهو معروف من قبل ، ومن هنا فإن كتبهم كانت كلها دعما لمعارف قديمة ، أما الكشف الجديد فلم يكن من المتوقع أن يسعى إليه عصر يؤمن بأن المعرفة كلها قد اكتملت فى عصر من العصور الماضية .

ولعل هذا الاهتمام المفرط بالحجج اللفظية الخالصة ، والاعتقاد بأنك إذا استطعت أن تثبت « بالكلام البحت » شيئا ، فلا بد أن يكون هذا الشيء متحققا ـ أقول لعل هذا أن يكون سمة من السمات المميزة لمنهج الفكر فى كل عصر متدهور . وكلنا نعلم أن الإغراق فى الجدل اللفظى الأجوف ، والاستعاضة عن الإنجاز الفعلى بالبلاغة اللفظية الرنانة ، والاعتقاد بأن التعبير الكلامى عن أمنياتنا ، وتصويرها كما لو كانت قد تحققت بالفعل ، يغنى عن بذل الجهد والكفاح من أجل تحقيق هذه الأمنيات فى عالم الواقع ـ كلنا نعلم أن هذه صفات ملازمة لفكرنا العربى فى مرحلة انحطاطه ، ومازالت آثارها باقية فى طريقة تفكيرنا حتى اليوم . واستمرار هذه الصفة فينا معناه أننا لم نتمكن بعد من أن نتجاوز إلى غير رجعة مرحلة العصور الوسطى ـ بالمعنى السيء لهذا التعبير ـ فى تفكيرنا .

أما من حيث مضمون الفكر العلمى فى العصور الوسطى الأوروبية ، فيلاحظ عليه بوجه عام أنه لم يكن معنيا بتلك العلوم التى تركز اهتمامها على فهم العالم من أجل تغييره والسيطرة عليه . ولقد كان هذا أمرا طبيعيا فى عصر كان يُنظر فيه إلى الحياة الدنيا بأسرها على أنها مرحلة عارضة

زائلة . ولم تكن هذه النظرة تخلو من النفاق . إذ كان من المعروف أن أقطاب الكنيسة الأوروبية كانوا يستمتعون بحياتهم إلى أقصى حد ، في الوقت الذي كانوا فيه يدعون عامة الناس إلى الزهد والعزوف عن متع الحياة . وعلى أية حال فإن سيادة هذه العقلية الزاهدة من شأنها أن تقلل من أهمية العلوم الباحثة في الطبيعة ، وربما تركت قدرا من الاهتمام بالدراسات الأدبية واللغوية الخالصة ، ولكن أعظم جهودها كانت موجهة إلى علم اللاهوت .

وهكذا كانت كتابات أرسطو كافية في نظرهم لتقديم تفسير كامل للطبيعة والعالم المحسوس بأسره . وكان العالم كله يُفهم من خلال معانٍ كيفية ذات أصل فلسفي بحت : كأن يقال مثلا إن هذا الشيء موجود بالفعل أو بالقوة ، أو إنه مادة أو صورة ، وهذه المادة حارة أو باردة ، ثقيلة أو خفيفة ، دون أي محاولة لتطبيق الرياضيات ، التي كانت قد أحرزت في العصر اليوناني تقدما كبيرا ، على طريقة فهمنا للظواهر الطبيعية من أجل فهم قوانينها الكامنة .

ولقد كان التحالف بين العلم القديم وبين تعاليم الكنيسة مؤديا إلى تكوين صورة للعالم كله تمتزج فيها تصورات القدماء مع تفسيرات رجال اللاهوت . وكان أول مايحرص عليه هؤلاء الأخيرون هو إدخال العناصر الدينية (كما كانوا يفهمونها) في فكرة الناس عن العالم . ومن هنا لم يكن من غير المألوف أن تجد في كتاب علمي صرف حديثا عن عناصر الطبيعة وعن عالم الملائكة والجن في آن واحد ، وكان من الطبيعي أن يصوّر الكون بصور ترضي رغبة الإنسان في أن يجد حوله عالما متعاطفا معه ، متجاوبا مع رغباته ، محققا للقيم التي يتوق إليها . ولم يكن من غير المألوف أن يختلط بحث الإنسان عن حقائق الأشياء ، برغبته في أن يراها جميلة متناسقة متجاوبة مع ذوقه ومزاجه ، فكان يغير من نظرته إلى العالم

بالطريقة التى تحقق له هذه الرغبة ، ويخلط بين السعى إلى الحقيقة والبحث عن التناسق والانسجام ، ولايجد غضاضة فى أن يؤكد أن النجوم تسير فى مسارات دائرية ، لا لأنه رصد حركاتها وتأكد من ذلك ، بل لأنه يؤمن بأن النجوم كائنات ذات طبيعة أثيرية شبه إلهية ، ومثل هذه الكائنات التى تتصف بكل هذا الكمال لابد أن تسير وفقا لأكمل الأشكال ، وهو الدائرة . كما كان يتمسك فى تفسيره للظواهر الأرضية والسماوية بأعداد معينة احاطتها عقول الناس بقداسة خاصة منذ أقدم العصور ، كالعدد عشرة أو سبعة ، بغض النظر تماما عما تشهد به التجربة الفعلية بشأن هذه الظواهر .

ومجمل القول إن العلم فى العصور الوسطى الأوروبية قد تمسك بأضعف العناصر فى التراث القديم ، اليونانى والرومانى ، وأضاف إليها ذلك الجمود والتعصب الذى كانت تتطلبه كنيسة متسلطة لا تريد معارضة أو تجديدا . ومن الجائز أنه كانت هناك ، تحت هذا السطح الخارجى ، تيارات أخرى خفية ظلت تتراكم حتى خرج تأثيرها إلى النور فى عصر النهضة الأوروبية . وهذا بالفعل ما يقول به بعض مؤرخى العلم ، الذين يرفضون الاعتراف بأن الإنسان الأوروبى ظل متجمدا طوال مايزيد عن الألف عام ، ويؤكدون أن عوامل التغيير كانت موجودة ، وكل ما فى الأمر أنها كانت بطيئة ، تعمل فى الخفاء ، وأن أديرة الرهبان ذاتها قد شهدت تراكما فى المعرفة العلمية ظهر تأثيره بوضوح فى تلك النهضة السريعة التى حققتها أوروبا فى مطلع العصر الحديث . وربما كان هذا الرأى على قدر من الصواب ، إذ أن من الصعب أن نفسر سرعة التقدم الذى طرأ على العلم الأوروبى فى القرن السابع عشر ، والذى نقل أوروبا من التفكير فى عالم أرسطو الذى لايتحرك إلا لأنه يعشق « المحرك الأول » ، إلى عالم نيوتن الذى يسوده قانون طبيعى واحد هو قانون الجاذبية الكونية ـ من الصعب أن

نفسر ذلك إلا إذ قلنا بأن عوامل أخرى قد مهدت له ، بالرغم من أن تأثيرها لم يكن فى البداية ظاهرا .

على أن هذه العوامل المتراكمة لم تكن مجرد تطور ذاتى داخلى للمعرفة العلمية فى أوروبا خلال العصر الوسيط . فهذه المعرفة ، مهما تطورت ، لم تكن تبشر بنتائج ذات قيمة كبيرة . وإنما كان هؤلاء العلماء فى حاجة إلى دفعة قوية تأتيهم من مصدر خارجي ، لكى تنير الطريق ، وتكشف لهم عن أفضل السبل المتاحة للبحث العلمى فى ذلك الحين . وقد تحقق ذلك بفضل تأثر العلم الأوروبى بالعلم الإسلامى الذى كان يحتل المرتبة العليا فى ذلك العصر .

***

كانت صورة العلم فى العصور الوسطى الإسلامية مختلفة عن صورة الركود والجمود الأوروبى كل الاختلاف . ففى العالم الإسلامى كانت هناك حضارة فتية نشطة ، تتسم بالإيجابية والتوسع والانفتاح على العالم ، وتوائم نفسها مع هذا العالم المتغير الذى وجدت نفسها تتعامل معه . وكان ميدان العلم من أهم الميادين التى حققت فيه هذه الحضارة الوليدة أعظم أمجادها .

ولقد كان التقدم العلمى الذى عرفته الحضارة الإسلامية فى عصر ازدهارها مثلا رائعا من أمثلة التفاعل الخصب بين الحضارات . فنقطة البداية فى هذا العلم كان ذلك التفتح الفكرى الذى ألهم خلفاء المسلمين ، فى العصر العباسى بوجه خاص ، أن ينقلوا كل ماأتيح لهم من علوم القدماء وفلسفاتهم فى ترجمات أمينة تعد من أروع الأعمال التى تحققت حتى ذلك العصر ، بالمقاييس الأكاديمية الخالصة . وذلك إذا أخذنا فى اعتبارنا أن اللغة العربية لم تكن حتى ذلك الحين قد كونت لنفسها مصطلحات علمية تكفى للتعبير عن كل ماخلفه القدماء من معارف . وهكذا عرف المسلمون

علوم اليونان والفرس والهنود ، ولم يترددوا في استخدام كل الذخيرة الضخمة من المعلومات العلمية التي كدستها البشرية حتى ذلك الحين ، من أجل تلبية حاجات المجتمع الإسلامي الذي كان ينمو ويزداد تعقدا يوما بعد يوم .

ولقد أسهم في هذه الحركة العلمية النشطة علماء من أصل عربي وآخرون ينتمون إلى مختلف البلاد التي أصبحت تدين بالإسلام ، ولكن الجميع كانوا يكتبون ويفكرون بالعربية ، وكان الجو الذي يشيع في كتاباتهم إسلاميا بحتا ، وكانوا ينظرون إلى أنفسهم ـ مهما بعدت بلادهم في أقصى أطراف آسيا الوسطى أو الأندلس ـ على أنهم ينتمون ، قلبا وروحا ، إلى تلك الحضارة التي انبعثت اشعاعاتها الأولى من قلب الجزيرة العربية .

ولقد رأى كثير من الكتاب الغربيين في العلم الإسلامي مجرد امتداد للعلم اليوناني ، وأكدوا أن كل ما قام به المسلمون في مجال العلم كان يدور في ذلك الإطار الذي حدده اليونانيون قبل ذلك بفترة لاتقل عن ألف عام . وأراد غير هؤلاء أن يكونوا أكثر إنصافا ، فأكدوا أن التفكير العلمي الإسلامي وإن ظل في إطاره العام يونانيا ، قد أعاد النظر في التراث العلمي اليوناني من جديد ، وبحث فيه بروح تقدمية فيها قدر من الاستقلال . ولكن المهم في كلتا الحالتين هو أن العلماء المسلمين ـ وفقا لرأي هؤلاء الكتاب ـ لم يخرجوا عن فلك التفكير العلمي اليوناني .

وقد يبدو ظاهريا أن لهؤلاء الكتاب بعض العذر في التقريب بين العلم الإسلامي وتراث اليونانيين : إذ أن الأسماء اليونانية ، مثل أرسطو وأبقراط وجالينوس ، كانت تتردد كثيرا في المؤلفات العلمية الإسلامية . كما أن الإطار الفكري لهذه المؤلفات كان يحتفظ بقدر غير قليل من مفهوم العلم عند اليونانيين : إذ نجد عند فلاسفة الإسلام نظرة متدرجة إلى

العلوم ، تعلى من قدر العلم النظرى البحت وتقلل من شأن العلم التطبيقى ، وتجعل مكانة أى علم مرتبطة بمكانة الموضوع الذى يبحث فيه . ولكن كتابات الفلاسفة كانت تسير فى طريق وممارسة العلماء كانت تسير فى طريق آخر مختلف كل الاختلاف : إذ أن الاهتمام بالعلم التجريبى ، وباستخدام البحث العلمى من أجل فهم قوانين الطبيعة المحيطة بنا ، كان هو الهدف الرئيسى من أعمال علماء مشهورين مثل جابر بن حيان فى الكيمياء ، والحسن بن الهيثم فى البصريات (علم الضوء) والبيرونى فى الفلك والرياضيات . والرازى وابن سيناء وابن النفيس فى الطب . ومن الصعب ، إذا كان المرء منصفا ، أن يصدق الحكم القائل بأن الإطار الذى كان يدور فيه هؤلاء العلماء الكبار كان إطارا يونانيا صرفا ، وأنهم لم يضيفوا إلى الحضارة الإنسانية إضافات أصيلة تنبع من طبيعة البيئة الثقافية التى عاشوا فيها .

وعلى أية حال ، فإن الاعتراف يزداد الآن ، بين مؤرخى العلم الغربيين أنفسهم ، بأن العلم الإسلامى لم يكن مجرد جسر عبر عليه العلم اليونانى لكى ينتقل إلى أوروبا الحديثة ، أعنى مجرد أداة توصيل بين الحضارة الأوروبية القديمة والحضارة الأوروبية الحديثة . وكما حدث فى حالة العلاقة بين اليونانيين ، فى مبدأ ظهور علمهم وفكرهم الفلسفى ، وبين الحضارات الشرقية السابق عليهم ، حين أخذ الغربيون يتنبهون فى الآونة الأخيرة على نحو متزايد إلى أن اليونانيين مدينون للشرق القديم بأكثر مما كانوا يظنون من قبل ، فكذلك حدث فى حالة العلاقة بين العلم الإسلامى والعلم اليونانى أن بدأ مؤرخو العلم الغربيون يدركون على نحو متزايد أهمية الإضافة التى أضافها المسلمون إلى العلوم التى ورثوها عن الحضارات السابقة عليهم ، أى أنهم فى الحالتين أصبحوا أكثر واقعية وأقل مبالغة فى تقدير دور « المعجزة اليونانية » ، وأميل إلى الاعتراف للشعوب الشرقية بحقها فى أن

تفخر بالدور الذى أسهمت به من أجل دفع عجلة العلم إلى الأمام .

والواقع أن أعظم مايمكن أن يفخر به العلم الإسلامى ، فى عصر ازدهاره ، هو أنه أضاف بالتدريج إلى مفهوم العلم معنى جديدا لم يكن يلقى اهتماما بين اليونانيين ، وهو استخدام العلم من أجل كشف أسرار العالم الطبيعى وتمكين الإنسان من السيطرة عليه . فقد عرف اليونانيون الرياضيات وتفوقوا فيها ، ولكنهم لم يعرفوا كيف يستخدمونها لحل المشكلات الواقعية التى تواجه الإنسان . وفى مقابل ذلك كان المسلمون بارعين فى استخدام الأرقام ووضع أسس علم الحساب الذى يمكن تطبيقه فى حياة الناس اليومية

وكان اختراعهم للجبر ، وتفوقهم فى الهندسة التحليلية وابتكارهم لحساب المثلثات ، إيذانا بعصر جديد تستخدم فيه الرياضة للتعبير عن قوانين العالم الطبيعى ، وتطبق فيه مبادئها من أجل حل مشكلات المساحة الأرضية ، وحساب المواقيت وصناعة الأجهزة الآلية . وكذلك كانت كشوفهم الفلكية مرشدا هاما للملاحين والجغرافيين ، وساعدت على فهم أفضل للعالم الذى نعيش فيه . أما بحوثهم الطبية والصيدلانية فكانت ذات دلالة تطبيقية لاتخطئها العين .

ولقد كان هذا الاتجاه الذى يجمع بين النظرية والتطبيق أمرا طبيعيا فى حضارة قامت على أساس الجمع بين الدنيا والدين ، وارتكزت على شعار : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » . وبالفعل كان العلم الإسلامى ينطوى على جانبى الدنيوية والأزلية فى آن واحد ، ويستهدف خدمة الحياة الإنسانية فى هذا العالم الأرضى ، فى إطار ترتكز أصوله على النظر فى عالم السماء والأرض واستخلاص العبرة من نظامه المحكم وقوانينه الأزلية . وهكذا كان العلماء يقومون ببحوثهم مؤمنين بأن العلم ركن أساسى من أركان العقيدة ، ولم تكن فكرة

التعارض بين العلم والإيمان الديني تخطر ببال أحد منهم ، بل إن كل من أثاروا هذه الفكرة لم يكونوا من العلماء ، ولم تكن لديهم أدنى فكرة عن الطبيعة الحقيقية للبحث العلمي وعن أهدافه الإنسانية الرفيعة .

ومن المعترف به أن العلم الإسلامي قد احتفظ ببعض العناصر السلبية التي ترجع إلى اليونانيين : ففكرة « الأمزجة » التي أكدتها كتابات الأطباء اليونانيين ، ظلت قائمة في الطب الإسلامي ، وسلم بها ابن سينا في كتابه المشهور « القانون » . كذلك كانت فكرة « العناصر الأربعة » (الماء والهواء والنار والتراب) ، الموروثة عن الفلاسفة اليونانيين الأوائل ، تتردد كثيرا في كتابات العلماء الإسلاميين . وترتب على ذلك ضياع وقت وجهد غيرقليلين في أبحاث علمية تعد عقيمة بمقاييسنا الحديثة : كالتنجيم وقراءة الطالع ، وكالبحث عن « حجر الفلاسفة » وتحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب . ولكن ينبغي أن نعلم أن الحكم بإدانة هذا النوع من الأبحاث هو حكم صادر من وجهة نظر حديثة : فنحن نصف هذه الأبحاث الآن بأنها غير علمية لأن التطور التالي للعلم ، في عصرنا الحديث ، قد تجاوزها . أما من وجهة نظر العصر نفسه فلم يكن هناك حد فاصل بين هذه الأبحاث العقيمة والأبحاث العلمية الأخرى ذات النتائج الإيجابية . ولذلك فمن الصعب أن نعد هذا خطأ ندين من أجله العلم الإسلامي . وحسبنا أن نذكر أن العلم الأوروبي ظل حتى القرن السابع عشر ، وربما حتى القرن الثامن عشر في بعض الحالات ، يحتفظ بآثار من هذه الأخطاء القديمة ، وأن كبار علماء العصر الحديث ، وعلى رأسهم كبلر ، كانوا يمارسون التنجيم ، ولم يكونوا يجدون أي تعارض بين أبحاثهم الفلكية الأصلية وقراءتهم طالع الملوك والأمراء من رصد النجوم . أما فكرة العناصر الأربعة فقد ظلت معترفا بها في أوروبا حتى القرن الثامن عشر ، ولم تهدم إلا على يد الكيميائي

الفرنسي المشهور « لافوازييه » .

تلك إذن أخطاء ينبغى ألا تُحسب على العلم الإسلامى . وفى مقابل ذلك فقد كانت لهذا العلم إنجازات تعلمت أوروبا منها الشيء الكثير . فقد وضحت على يد العلماء الإسلاميين أصول المنهج التجريبى ، بمايقتضيه من ملاحظات دقيقة دائبة ، ومن تسجيل منظم لهذه الملاحظات ، ثم وضع الفروض لتفسيرها وإجراء التجارب للتحقق من صحة هذه الفروض . وكان الطب الإسلامي نموذجا يقتدى به الأطباء الأوروبيين في دقة الملاحظة ووصف الأعراض وتشخيصها وعلاجها بالعقاقير أو بالجراحة أوبممارسة العلاج الطبيعى ، كما كان أول أمثلة المستشفيات ، بمعناها الحديث ، هو « البيمارستان » الإسلامى ، بل بدأ لديهم الاهتمام بالطب النفسى والعلاقة المتبادلة بين الجسم والنفس فى بعض الأمراض . وما الطب إلامثل واحد من أمثلة هذه العقلية المتقدمة التى أزالت الحد الفاصل بين النظرية والتطبيق ، وجمعت فى مركب واحد بين التأمل العقلى والفعل العملى ، وأعطت بذلك للإنسانية عامة ، وللحضارة الإوربية الحديثة بوجه خاص ، درسا رائعا فى منهج البحث العلى الأصيل .

هذا العلم الإسلامى ، الذى ارتكز على دعائم قوّية من المنهج التجريبى ومن الحقائق الرياضية الدقيقة ، كان واحدا من أهم العوامل التى أدت إلى ظهور النهضة الأوروبية الحديثة . فمنذ القرن الثانى عشر الميلادى ، أخذت المؤلفات العربية الكبرى تترجم على نطاق واسع إلى اللغة اللاتينية ، لغة العلم فى أوروبا خلال العصر الوسيط . ولم يكن من المصادفات أن ينظر عدد غيرقليل من الباحثين الأوروبيين إلى هذا القرن بالذات على أنه نقطة البداية الحقيقية فى النهضة الأوروبية ، أو نقطة التحول من العصور الوسطى المظلمة إلى المرحلة الممهدة لظهور العصر

الحديث . ولم يكن من المصادفات أيضا أن تكون الجامعات ومعاهد العلم الأوروبية القريبة جغرافياً من مراكز الثقافة العربية ، في جنوب إيطاليا وصقلية وفرنسا ، هي مراكز الإشعاع الأولى لهذه النهضة . وكما ذكرنا من قبل ، فقد شاع في وقت ما ، بين الكتاب الغربيين ، حكم جائر مؤداه أن المرحلة الإسلامية في العلم إنما كانت همزة وصل بين الحضارة اليونانية والحضارة الأوروبية الحديثة ، وأن فضل العلماء المسلمين ينحصر في المحافظة على التراث العلمي القديم ونقله بأمانة إلى أوروبا لتبدأ به نهضتها الحديثة . على أن هذا الحكم لا يلقى في أيامنا هذه تأييدا ، حتى من الكتاب الأوروبيين أنفسهم ، ولعله كان أثرا من آثار نعرة العنصرية الأوروبية المتعالية في القرن التاسع عشر . ذلك لأن إسهام العلم الإسلامي كان جديدا من نواح كثيرة ، وكان أهم ما فيه هو ذلك التجديد الرائع في مناهج البحث العلمي وأساليبه ، وذلك الفهم واسع الأفق للعلم على أنه معرفة نظرية تستهدف أغراضا عملية تطبيقية ـ وهي أمور لم تكن واضحة في العلم اليوناني القديم إلا خلال فترة قصيرة من عمره ، هي تلك الفترة التي انتقل فيها ذلك العلم إلى الإسكندرية . ولكن تأثير هذه الفترة كان ضئيلا ، لأن التقدم العلمي فيها كان مصحوبا بتدهور عام في الحضارة اليونانية بأسرها . وهكذا كان للعصر الإسلامي دوره الذي لاينكر في إضافة معان جديدة إلى مفهوم العلم ذاته .

ولا شك أن القارىء العربي والإسلامي المعاصر حين يذكر هذه الحقائق ، يشعر بالأسى إذ يجد تلك النهضة العلمية التي قام بها أجداده قد توقفت منذ قرون عديدة ، مع أنها لو كانت قد استكملت لكانت هذه المنطقة من العالم رائدة في ميدان العلم الحديث . وقد يعلل المرء ذلك بالانحلال الداخلي ، الاجتماعي والسياسي ، الذي طرأ على العالم الإسلامي بعد

عصره الذهبى فى العلم والحضارة ، وقد يعلله بأسباب خارجية ، كالغزو التركى ثم الأطماع الأوروبية فى هذه المنطقة الحيوية . وأيا كان السبب فى التدهور اللاحق ، فإن من أبرز مظاهر هذا التدهور أن العالم العربى قد أغلق على نفسه الأبواب فى عصور انحلاله ، وتصور أنه يستطيع الاكتفاء بذكرى أمجاده الماضية ، ونسى ذلك الدرس العظيم الذى قدمته له الحضارة الإسلامية وهى فى أوج عظمتها : وأعنى به أن التفاعل بين الثقافات هو الدافع الأول إلى تقدم العقل البشرى . فلم يخجل المسلمون فى عصرهم الذهبى من استيعاب علوم الثقافات الأخرى الأقدم منهم عهدا ، بل كان فى ذلك نقطة انطلاق لهم إلى فهم العالم . ولم يخجل الأوروبيون من ترجمة أمهات الكتب الإسلامية وتدريسها ـ بوصفها كتبا مقررة ـ فى أعظم جامعاتهم خلال مطلع العصر الحديث . والأهم من ذلك ، أن نفس العقول المتزمتة التى تدعونا إلى الابتعاد عن الثقافات « الدخيلة » فى عصرنا الحاضر لاتجد فى مسلك الأوروبين إزاء العلم الإسلامى مايعيبهم ، ولاتعير الغرب بأنه قد تنكر لتراثه أو لأصوله ، وانسلخ عن هويته الأصلية ، عندما اغترف بكلتا يديه من علوم المسلمين . فهى إذن تعترف بقيمة تفاعل الثقافات عندما نكون نحن الذين نعطى ، وتنكرها حين نكون نحن الآخذين ، مع أن هذا التفاعل واحد فى كلتا الحالتين ، وهومصدر نفع للبشرية أينما حدث .

العصر الحديث :

تضافرت عوامل متعددة أدت إلى الانتقال بأوروبا من أسلوب التفكير السائد فى العصور الوسطى إلى أسلوب التفكير العلمى الحديث . وكان بعض هذه العوامل داخليا ، يتعلق ببناء المجتمع الأوروبى ذاته ، وبعضها

الآخر خارجيا ، كالتأثير الإيجابى الذى مارسته الحضارة الإسلامية على العقل الأوروبى . وليس من مهمتنا فى هذا الكتاب أن نتحدث عن هذه العوامل إجمالا أو تفصيلا ، بل إن مايهمنا هو حصيلتها النهائية ، وأعنى بها التغيير الذى طرأ على مفهوم العلم ذاته ، أعنى العناصر التى أسقطها العصر الحديث من مفهوم العلم فى العصور السابقة ، وتلك التى أضافها إلى هذا المفهوم .

ومن الأمور التى تسترعى انتباه الباحث فى هذه الفترة أن المفهوم الحديث للعلم لم يتشكل على أيدى العلماء وحدهم ، بل لقد أسهم فيه الفلاسفة بدور عظيم الأهمية . ولعل القول بأن الفلسفة مرآة للعصر ، لايصدق على أية فترة بقدر مايصدق على هذا العصر الأول من عصور العلم الأوروبى الحديث ، إذ كانت لفلاسفة ذلك العصر رؤية واضحة تمام الوضوح لمتطلبات العلم ، وكانت بصيرتهم النفاذة تدرك مايحتاج إليه العقل البشرى من مناهج للبحث وطرق للتفكير حتى ينتقل إلى عصر جديد .

ومن الغريب حقا أنه فى نفس الوقت الذى كان فيه فلاسفة ذلك العصر يدعون إلى قيادة نوع جديد من العلم ، كان العلم ذاته يخطو خطواته الحاسمة بعيدا عن الفلسفة . وقد تبدو فى هذا مفارقة صارخة : إذ يخيل إلينا لأول وهلة أن تحمس الفلاسفة للعلم كان لابد أن يؤدى إلى مزيد من التحالف والتداخل بين الفلسفة والعلم . ولكن حقيقة الأمر هى أن عملية انفصال العلم عن الفلسفة لم تكن فى بدايتها عملية واعية : فقد ظهر نوع جديد من المعرفة ، يستخدم أساليب فكرية مختلفة عن تلك التى دأبت الفلسفة على استخدامها حتى ذلك الحين ، ولكن هذا النوع ، برغم تميزه الواضح هذا ، كان لا يزال يسمى « فلسفة » : إذ أن الكثير من علماء ذلك العصر ـ ومنهم نيوتن ذاته ـ اطلقوا اسم « الفلسفة التجريبية » أو

« الفلسفة الطبيعية » على عناوين أبحاثهم الرئيسية . ولكن المهم فى الأمر أن التميز بين طريقتى البحث الفلسفية والعلمية ، أصبح ظاهرا للعيان ، وأن فئة « العلماء » ، المستقلين عن الفلاسفة فى تفكيرهم استقلالا تاماً ، أصبحت فئة معروفة ، يزداد نفوذها يوما بعد يوم . ولم يكن الفلاسفة أنفسهم يقفون حائلا فى وجه هذا الاستقلال ، بل كانوا يشجعون عليه ، وينظرون إلى أنفسهم على أنهم دعاة مخلصون للعلم . وكان ذلك وضعا جديدا للعلاقة بين الفيلسوف والعالم، لم تعرفه العصور السابقة : إذ أصبح الفيلسوف ينظر إلى نفسه ، لا على أنه هو ذاته الذى يأخذ على عاتقه مهمة توسيع نطاق المعرفة البشرية فى كافة المجالات ودفعها إلى الأمام ، بل على أنه هو الذى يضع « الأساس » الفكرى للعمل الذى يقوم به أشخاص اخرون مستقلون عنه ، أى أنه ليس هو « خالق » المعرفة بل هو « منظرها » فحسب .

لقد كان الفيلسوف الإنجليزى الكبير « فرانسس بيكن Francis Bacon» أعظم دعاة هذه النظرة الجديدة التى يستقل فيها العلم عن الفلسفة استقلالا تاما . فهو يسخر من ادعاءات فلاسفة العصور القديمة والوسطى الذين كانوا يتصورون أن باستطاعتهم حل مشكلات العالم الكبرى بالتأمل النظرى وحده، ويهاجم مفكرى الأبراج العاجية الذين يعتقدون أنهم قادرون على فهم الطبيعة وما وراء الطبيعة باستخدام مجموعة من الاستدلالات اللفظية التى يتلاعبون بها ببراعة ، ويظنون أن ماتوصلهم إليه هذه الألاعيب اللفظية لابد أن يكون حقيقة واقعة . وفى مقابل ذلك يدعونا بيكون إلى إجراء حوار مباشر مع الطبيعة ، واستخدام حواسنا وعقولنا فى ملاحظة وقائعها وتسجيلها بأمانة ، وينادى بضرورة إزالة هذا الحاجز اللفظى الخداع الذى وضعه القدماء بيننا وبين حقائق العالم ، ويؤكد أن المعرفة الصحيحة إنما تكون فى طرح الأسئلة

المباشرة على الطبيعة ، بدلا من التقوقع داخل عالم الألفاظ . وهكذا حدد بيكن سمة من أهم سمات التفكير العلمى الحديث ، وهى الاعتماد على ملاحظة الظواهر ومشاهدتها تجريبيا ، بدلا من الاكتفاء « بالكلام » عنها .

ومن السمات الأخرى التى أكد بيكن أهميتها فى كل تفكير علمى ، أن هذا التفكير لايسارع إلى التعميم ، كما كانت تفعل الفلسفات القديمة ، ولا ينساق وراء الطموح الزائد الذى يصور لكل فيلسوف أنه قادر على تقديم إجابات عن الأسئلة الكبرى ذات الطابع العام ، مثل أصل العالم ومصيره وغاياته الخ ... بل إن التفكير العلمى فى رأيه أشد تواضعا من ذلك بكثير: فهويضع لنفسه أهدافا محدودة ، وينتقل بثقة من حقيقة جزئية إلى حقيقة جزئية أخرى ، ولايعمم نتائج أبحاثه إلا بحذر شديد ، وبقدر ما تسمح الحقائق الموجودة فحسب . ومن مجموع هذه الحقائق الجزئية يعلو بناء المعرفة بالتدريج على أيدى الأعداد الكبيرة من العلماء ، الذين يتقاسمون فيما بينهم ، خلال الجيل الواحد ، المشكلات المطلوب حلها ، والذين يبدأ كل جيل جديد منهم من حيث انتهى الجيل السابق . وتلك كلها قد تبدو اليوم ، فى عصرنا الذى أصبح فيه التخصص أساسا للعمل العلمى ، بديهيات مسلما بها ، ولكنها فى عصر بيكن كانت شيئا جديدا بالقياس إلى أساليب الفلاسفة السابقين ، الذين كان كل واحد منهم يتصور أنه يحتكر لنفسه الحقيقة كاملة ، ويعتقد أن المعرفة البشرية كلها يمكن أن تتكشف لعقل واحد .

ولقد كان من الصفات الهامة التى أضافها بيكن إلى مفهوم العلم ، قابلية كل علم للتطبيق . وتلك صفة رأيناها ماثلة من قبل فى العلم الإسلامى بوضوح ، غير أن بيكن هو الذى يرجع إليه الفضل فى نشرها فى العالم الغربى على أوسع نطاق . فعلى حين أن العلم القديم كان معرفة لأجل

المعرفة ، نجد بيكن يؤكد أن العلم الذى لايقبل التطبيق العلمى بصورة من الصور لايستحق أن يسمى علما . وربما كان هذا موقفا متطرفا ، ولكنه كان ضروريا لمواجهة التطرف المضاد فى العلم النظرى البحت ، كما عرفه الفلاسفة اليونانيون الذين كانوا يزدرون أية معرفة تقترب من مجال الواقع المادى وتدخل نطاق التطبيق . وهكذا هيأ بيكن أذهان الناس لقبول عدد كبير من العلوم التى تتصل بموضوعات « أرضية » « مادية » ، ووصل به الأمر إلى الدعوة إلى بحث « التغذية » وكيفية صنع الطعام وحفظه على أسس علمية ، وهو أمر كان خليقا بأن يلقى من اليونانيين سخرية مريرة . فهدف العلم عند بيكن هو أن يجعل الإنسان سيدا للطبيعة ومسيطرا عليها . وإذا كان كارل ماركس هو الذى قال لأول مرة بعبارات صريحة فى القرن التاسع عشر : « لقد اقتصر الفكر حتى الآن على تفسير العالم على أنحاء شتى ، ولكن المهم هو تغييره » ، فمن المؤكد أن هذه العبارة تصلح شعار الفلسفة بيكن كلها ، وذلك لسببين : أولهما أنه كان بدوره ناقدا شديدا للاتجاه النظرى الخالص عند الفلاسفة السابقين ، وثانيهما أنه كان يدعو بكل حماسة إلى أن تكون المعرفة ، فلسفية كانت أم علمية ، وسيلة لتغيير العلم وتحقيق سيطرة الإنسان عليه . وكانت دعوة بيكن هذه هى فى واقع الأمر ، الأساس الفكرى الذى ارتكزت عليه حركة التقارب بين العلم والتكنولوجيا فى القرون التالية .

على أن بيكن ، بالرغم من كل ما أضافه إلى مفهوم العلم من معان هامة كان لها أبلغ الأثر فى التطور التالى للمعرفة العلمية ، لم يركز اهتمامه إلا على جانب واحد من جوانب العلم ، وهو الجانب التجريبى المبنى على مشاهدة الظواهر وتسجيلها واستخلاص أسبابها عن طريق الملاحظة الدقيقة والتجربة . وهذا بغير شك جانب عظيم الأهمية ، وخاصة إذا نظرنا إليه فى ضوء الفترة التاريخية التى عاشها بيكن ، والتى لم تكن تعرف قبل

ذلك إلا العلم المدون في الكتب ، ولم تكن تستخلص المعرفة إلا من أفواه الحكماء الأقدمين . وهكذا كان بيكن ، شأنه شأن كل رائد يستكشف ميدانا جديدا ، متحمسا أشد التحمس لذلك التصور الذي كونه لنفسه عن العلم ، والذي يرتكز على الملاحظة والتجربة المباشرة . ولكن هذا لم يكن ، كما قلنا ، سوى جانب واحد من جوانب العلم ، إذ أن العلم يحتاج إلى الصياغة الرياضية الدقيقة ، إلى جانب احتياجه إلى الملاحظة والتجربة ، والرياضة علم عقلي لا شأن له بملاحظات الحواس وتجاربها .

ولقد كان الفيلسوف الفرنسي « ديكارت Descartes » هو الذي أكد أهمية هذا الجانب الآخر ، أعني الجانب الرياضي العقلي ، للعمل العلمي ، وتطرف بدوره في هذا الاتجاه حتى تصور أن مهنة العالم ، في مختلف المجالات ، لاتختلف عن مهمة الباحث في الهندسة : إذ يستنبط بدقة النتائج التي تترتب على مقدمات واضحة كل الوضوح ، يضعها العقل وهو موقن بأنها تصلح أساسا متينا لكل معرفة تالية . وكان المبرر الذي ارتكز عليه ديكارت في تأكيده هذا ، هو أن العلم الرياضي أدق العلوم ، بل هونموذج الدقة في كل تفكير . فإذا شئنا أن تصل معارفنا ، في ميدان من الميادين ، إلى مستوى الدقة الجديرة باسم العلم ، كان لابد لنا أن نتبع هذا النموذج الذي اعتاد الباحثون في الرياضيات أن يتبعوه منذ أقدم العصور ، والذي تمكنوا بفضله من أن يجعلوا علمهم مثلا أعلى لليقين العقلي .

وهكذا فإن هذين الفيلسوفين اللذين ظهرا في مطلع العصر الحديث ، قد نبها الأذهان إلى الجانبين اللذين أصبح العلم الحديث يرتكز عليهما خلال تطوراته التالية : وأعني بهما الملاحظة الأمينة للواقع من جهة ، والقدرة على صياغة قوانين هذا الواقع بطريقة رياضية من جهة أخرى . ومن الجدير بالذكر أن العلماء الكبار في ذلك العصر ، وعلى رأسهم العالم الإيطالي العظيم

« جاليليو Galileo » ، قد توصلوا ـ دون أن يكونوا قد اتصلوا بهؤلاء الفلاسفة اتصالا مباشرا ـ إلى الطبيعة الحقيقية لطريقة البحث العلمى : إذ كان جاليليو ، في إثباته لقانون مثل سقوط الأجسام ، يجرى التجارب ويتحقق منها أولا ، ثم يعبر عن النتيجة التى يتوصل إليها بقانون يتخذ شكل معادلة رياضية أو نسبة حسابية ، ألخ . وهكذا جمع هؤلاء العلماء بين نتائج تفكير الفيلسوفين الكبيرين فى ذلك العصر بطريقة تلقائية ، وتمكنوا من تحقيق الاتزان بين الجناحين اللذين لا يستطيع العلم التحليق إلا بهما معا : وأعنى بهما الملاحظة والتجربة من جهة ، والصيغة الرياضية من جهة أخرى .

وأخيرا فإن من العناصر الهامة التى أضيفت إلى مفهوم العلم منذ أوائل العصر الحديث ، ذلك الطابع الجماعى للعلم ، الذى أشرنا من قبل إلى أن بيكن كان من أول من نبهوا إليه . فعلماء العصر الحديث لم يكونوا مؤمنين بأن العلم جهد فردى ، بل كانت تسود عملهم منذ بدايته « روح الفريق » . ومنذ أن أصبح العلم نشاطا مستقلا عن الفلسفة ، أخذ عدد المشتغلين به يتزايد بالتدريج ، لأن الباحثين عن الحقيقة أدركوا أنهم توصلوا إلى نوع آخر من المعرفة قابل للنمو والتوسع من جيل إلى جيل ، وليس مجرد محاولات فردية تلمع خلال حياة صاحبها ثم تنطفىء لكى تبدأ محاولة أخرى من جديد . وكان العلماء فى البداية يحققون أهدافهم فى تبادل المعرفة عن طريق الرسائل ، ولكن سرعان ما اتضح أن الرسائل المتبادلة أسلوب بطىء لايسمح بنشر المعرفة وإخضاعها لنقد العقول الأخرى وتحليلها ، إذ لم تكن ظروف ذلك العصر تسمح للعلماء إلا بتبادل رسالة أو رسالتين فى العام كله . ومن جهة أخرى فقد كان عدد الأبحاث العلمية يتزايد باستمرار. ومن هنا بدأ التفكير ـ لأول مرة فى تاريخ البشرية ـ فى إنشاء جمعيات

علمية يتبادل فيها العلماء أبحاثهم وآراءهم ، ويقسمون العمل العلمى فيما بينهم وفقا لخطط مرسومة .

ومن الوجهة التاريخية الخالصة ، يمكن القول إن أول جمعية علمية هى التى أنشئت فى فلورنسة بإيطاليا عام ١٦٥٧ باسم « Academia de Cimento » (وتعني : أكاديمية التجربة العلمية) . ولكن البداية الحقيقية للجمعيات العلمية بكل مقوماتها الحديثة كانت هى الجمعية الملكية في لندن (Royal Society » عام ١٦٦٢. ومنذ ذلك الحين تعاقبت الجمعيات بسرعة ، فأنشئت الأكاديمية الفرنسية فى باريس عام ١٦٦٦، ثم أكاديمية سان بطرسبوج الروسية عام ١٧٢٩ وأكاديمية برلين عام ١٧٤٤.

وبفضل هذه الجمعيات العلمية الرائدة ، لم يتحقق مبدأ العمل الجماعى والتخطيط المنظم فى العلم فحسب ، بل إن انشاءها قد دعم مبدأ رعاية الدولة للعلماء وإنفاقها على أبحاثهم . ومن المؤكد أن العلم أفاد كثيرا من هذا المبدأ ، لاسيما وأن نفقات البحث العلمى كانت فى تزايد مستمر . كما أن الدول بدورها اكتسبت فوائد هامة من رعايتها للعلماء : إذ كانت تجد فى نجاح علمائها مبعثا للفخر المعنوى ، كما كانت تكلفهم بإجراء البحوث التى تفيدها فى تحقيق أهدافها الاقتصادية والعسكرية . وسوف نرى فيما بعد أن هذا المبدأ ذاته قد أصبح فى عصرنا الحاضر سلاحا خطيرا ذا حدين .

الفصل الرابع

العلم والتكنولوجيا

فى رحلة التفكير العلمى التى نتتبعها هاهنا بإيجاز ، عبر عصور التاريخ البشرى ، لن نستطيع أن ننتقل إلى العصر الحاضر إلا إذا قدمنا إلى القارىء صفحات قليلة عن العلاقة بين العلم والتكنولوجيا طوال عصور المعرفة البشرية . ذلك لأن التداخل بين هذين الضربين من النشاط هو فى أساسه ظاهرة جديدة ، يتميز بها عصرنا هذا بالذات عن غيره من العصور ، بحيث لا نكون مبالغين إذا قلنا إنها هى السمة الأساسية المميزة للعلم فى مرحلته الراهنة . ومن هنا كان لزاما علينا أن نلقى الضوء ــ فى لمحة سريعة ــ على معنى التكنولوجيا وصلتها بالعلم منذ مراحله الأولى حتى عصرنا الحاضر .

إن لكلمة التكنولوجيا ، عند كثير من الناس ، رنينا حديثا يجعلهم يظنون أن العالم لم يعرف التكنولوجيا إلا فى عصر قريب ، وأن التكنولوجيا هى المخترعات الحديثة الراقية التى غيرت معالم الحياة البشرية فى العصر الحديث ، وخاصة فى القرن العشرين . ولكن واقع الأمر هو أن الشىء الوحيد الحديث فى هذا الموضوع كله هو اللفظ ذاته ، أما الظاهرة نفسها فهى قديمة قدم الإنسان . ومن الخطأ أن نربط بين التكنولوجيا وبين المخترعات الحديثة ، لأن هذه المخترعات لا تعدو أن تكون آخر المراحل فى

تطور طويل بدأ منذ فجر الوعى البشرى .

واول معنى يطرأ على ذهن الإنسان حين يحاول تعريف التكنولوجيا هو معنى التطبيق العلمى .. فالعلم معرفة نظرية ، والتكنولوجيا تطبيق لهذه المعرفة النظرية فى مجال العمل البشرى . ولكن ، على أى شىء ينصب التطبيق ؟ إذا كنا نقصد أنّه تطبيق للمعرفة العلمية النظرية ، فإن هذا بدوره معنى حديث ، إذا أن التكنولوجيا ــ كما سنرى ــ لم تكن مرتكزة على العلم طوال الجزء الأكبر من تاريخها . والأصح أن نقول إنها تطبيقية بمعنى أنها تنتمى إلى الميدان العملى ، ميدان الفعل وبذل الجهد . فهى شىء يرتبط باليد أكثر مما يرتبط بالمخ أو الرأس ، وإن كانت الصلة بين اليد والرأس قد أصبحت وثيقة كل الوثوق فى عصرنا الحاضر .

والمعنى الثانى الذى تثيره كلمة التكنولوجيا هو أنها وسيلة تستخدم فى العمل البشرى . فمنذ أقدم عصور التاريخ البشرى كان الإنسان يستعين بأدوات تساعده فى عمله ، وهى أدوات تستحق اسم التكنولوجيا . فتهذيب قطعة من الحجر أو المعدن وربطها بقطعة خشبية من جذع شجرة واستخدامها فأسا لقطع الاشجار أو لتقليب الأرض هو نوع من التكنولوجيا .. واستخدام النار فى الطهى أو فى التدفئة أو فى صهر المعادن كان كشفا تكنولوجيا عظيم الأهمية بالنسبة إلى عصره ، بل إن أهميته بالنسبة إلى العصر البدائى الذى ظهر فيه ، تفوق بكثير أهمية الطاقة الذرية بالنسبة إلى عصرنا الحاضر . واختراع العجلة لتيسير عملية نقل البضائع أو انتقال الأشخاص أو محاربة الأعداء ، كان فى عصره انقلابا تكنولوجيا لا يقل أهمية عن اختراع الطائرات فى أيامنا هذه .

وإذن فكل ما كان الإنسان يستعين به للقيام بأعماله ، بالاضافة إلى أعضائه وقواه الجسمية ، يستحق أن يسمى تكنولوجيا . ولكن ما علاقة هذه

الوسائل التى يضيفها الإنسان إلى جسمه ، لكى تساعده على إنجاز أعماله، بالجسم البشرى ذاته ؟ إنها قطعا امتداد له ــ ولكن بأى معنى تعد امتداداً للجسم ؟ هل هى مناظرة لهذا الجسم أم مكملة له ؟ لا جدال فى أن الوسائل التى يستعين بها الإنسان فى أداء عمله تكمل ما لديه من قدرات . فالفأس لا تماثل اليد أو الذراع البشرية ، ولكنها تكملها وتساعدها على أداء عملها بمزيد من الكفاءة . والعجلة بعيدة كل البعد فى شكلها وطابعها العام ، عن أرجل الإنسان ، ولكنها تحل محل هذه الأرجل فى الانتقال من مكان إلى آخر ، وتحقق هذا الهدف بمزيد من الفعالية . والنار لا نظير لها عند الإنسان أصلا ، ولكنها بدورها تعين الإنسان على أداء أعمال يعجز عن أدائها بقوته الجسمية وحدها . وهكذا نصل إلى عنصر آخر فى معنى التكنولوجيا ، هو أنها الوســائل التى يستعين بها الإنسان لتكملة ما ينقصه من القوى والقدرات .

ومادمنا قد تحدثنا عن تكمله النقص فى قدرات الإنسان ، فمن الواجب أن ننبه إلى أن هذا النقص يتغير فى طبيعته ومداه تبعا لظروف كل عصر . ومعنى ذلك أن العامل الاجتماعى له دور فى تحديد مستوى التكنولوجيا المطلوبة . وأوضح دليل على ذلك إنه فى العصور التى لم تكن فيها الآلات الميكانيكية ضرورية ، نظراً إلى وجود قوة عمل العبيد أو الأرقاء الذين كانوا يقومون بدور « الآلات البشرية » ، لم تظهر تكنولوجيا الآلات ، مع أن المعرفة العلمية فى ذلك العصر كانت قادرة على توصيل الإنسان إلى صنع بعض أنواع الآلات على الأقل . فأرشميدس ، العالم اليونانى المشهور ، قد صنع بعض أنواع الالات التى تسير بطريقة أوتوماتيكية ، ولكنه كان يعاملها على أنها « لعب » يلهو بها الإنسان ، بل كان يخجل من الإشارة إليها فى أبحاثه لأن ظروف المجتمع فى العصر الذى كان يعيش فيه لم تكن تتطلب

وجود آلات . وهكذا فإنه ، مع معرفته بطريقة إنتاج الآلات ، لم يحاول أن يستعين بها فى ميدان العمل البشرى الجاد . وفى العصر الذى احتاج فيه المجتمع إلى الآلة فى ميدان العمل ، ظهرت الآلة بالفعل . وإذا كان القارىء يجد صعوبة فى الاقتناع بهذه الحقيقة ، أو يجد الموضوع معقدا إلى درجة يصعب على العقل استيعابها ، فليتذكر أن هناك مثلا بسيطا نستخدمه كلنا فى لغتنا العربية ، وأعنى به : « الحاجة أم الاختراع » ، وهذا المثل يتضمن كل ما قلناه من قبل فى هذا الموضوع : فهو يدل ، فى عبارة موجزة ، على أن هناك ارتباطا وثيقا بين مستوى التكنولوجيا فى أى عصر وبين حاجات المجتمع ، وعلى أن الاختراع لا يظهر إلا إذا كانت الظروف الاجتماعية مهيأة لظهوره ، أى أنه يعبر عن العنصر الرابع والأخير فى معنى التكنولوجيا : وأعنى أن التكنولوجيا تظهر لكى تسد نقصا يشعر به المجتمع فى مرحلة معينة من مراحل تطوره .

وبالجمع بين هذه العناصر كلها نستطيع أن نعرّف التكنولوجيا بأنها الأدوات أو الوسائل التى تستخدم لأغراض عملية تطبيقية ، والتى يستعين بها الإنسان فى عمله لإكمال قواه وقدراته ، وتلبية الحاجات التى تظهر فى إطار ظروفه الاجتماعية ومرحلته التاريخية الخاصة (١) .

ومادمنا قد تحدثنا عن وجود صلة وثيقة بين مستوى التكنولوجيا فى أى

---

(١) نظرا إلى التركيب اللفظى الخاص لكلمة « تكنولوجيا » ، الذى ينتهى نهاية تدل على « العلم » كما هى الحال فى السيكولوجيا أو الجيولوجيا ، فإن البعض يفضلون استخدام لفظ « التكنولوجيا » بمعنى « علم » التطبيقات العملية ، أى دراستها المنظمة ، بينما التطبيقات نفسها هى « التقنية » وهذا استخدام مشروع ، ولكن الأكثر منه شيوعا استخدام لفظ « التكنولوجيا » للتعبير عن عملية الانتاج التقنية نفسها ، بالاضافة إلى تعبيرها عن « العلم » الذى يدرس هذه العملية ، وهو علم لم يظهر إلا حديثا .

عصر وحاجات المجتمع فى ذلك العصر ، فمن واجبنا أن نتساءل : هل يعدالعلم واحدا من العوامل التى تحدد حاجات المجتمع ؟ إن المجتمع قد يحتاج إلى اختراع تكنولوجى معين لكى يحل مشكلة تتعلق بالزراعة أو بحرفة يدوية أو بالصناعة ، ولكن هل يدخل العلم دائما ضمن العناصر التى تتحكم فى تحديد هذه المشكلة ، وفى توجيه التكنولوجيا إلى حلها ، وبعبارة أوضح : هل كان العلم مرتبطا بالتكنولوجيا فى جميع عصورها ؟

إن أبسط نظرة يلقيها المرء على التطور التكنولوجى للإنسان عبر العصور المختلفة ، تقنعه بأن الاتصال الوثيق بين العلم والتكنولوجيا ظاهرة حديثة العهد . وإذا كنا قد ذكرنا من قبل أن التكنولوجيا ظاهرة موغلة فى القدم ، فإنها كانت طوال الجزء الأكبر من هذا التاريخ تسير على نحو مستقل عن العلم ، وتتطور دون أن تكون معتمدة عليه .

فكل ما توصل إليه الإنسان من كشوف واختراعات تكنولوجية فى العصور القديمة ، قد تحقق بمعزل عن العلم . ونحن نعلم أن عصور ما قبل التاريخ تقسم إلى مراحل كبرى ، كالعصر الحجرى والبرونزى والعصر الحديدى . وهذه المراحل تعبر فى الواقع عن مستوى التكنولوجيا فى كل عصر : ففى العصر الحجرى كانت أهم الأدوات المستخدمة لمساعدة الإنسان فى عمله مصنوعة من الحجر ، وهلم جرا .. ومن المؤكد أن الانتقال من عصر إلى آخر يعبر عن تطور تكنولوجى هائل ، بمقاييس العصور القديمة ، إذ أن قدره الإنسان على استخدام معدن كالحديد مثلا تعنى تقدما كبيرا فى استخدام النار لأغراض الصناعة وفى استخراج الخام من الأرض وفى تشكيل الحديد المصهور ، الخ ... ولكن هذه التطورات كلها لم تكن تدين للعلم بشىء : فالذين قاموا بها لم يكونوا علماء ولم يكونوا قد درسوا نظريات علمية معينة ثم طبقوها فأتاح لهم تطبيقها التوصل إلى اختراع جديد ، بل

كان هؤلاء صناعا مهرة ، توارثوا خبراتهم جيلا بعد جيل ، وأضافوا إليها من تجاربهم الخاصة فتطورت صنعتهم ببطء شديد ، مما جعل الانتقال من عصر إلى آخر يستغرق آلاف السنين . وخلال ذلك لم يكن المبدأ المتحكم فى عملهم هو الدراسة ، بل كان مبدأ المحاولة والخطأ والتجربة العشوائية ، بحيث أن المحاولة التى تصيب ، والتجربة التى تنجح ، تتناقل من جيل إلى جيل . وهكذا فإن كشوفا حاسمة فى تاريخ البشرية ، كالنار والخزف والنسيج والعجلة والسفينة ، تم تحقيقها على نحو مستقل تماما عن العلم (١) .

وينطبق ذلك أيضا على العصر اليونانى القديم ، الذى طورت فيه التكنولوجيا فى بعض الميادين ، ولكنها ظلت منفصلة عن العلم . بل إن هذا الانفصال قد ازداد حدة نظرا إلى ذلك الفهم الخاص للعلم ، الذي ذكرنا من قبل أن اليونانيين كانوا يتمسكون به ، وهو أن العلم جهد نظرى يستهدف إرضاء حب الاستطلاع لدى العقل الإنسانى ، ولا يتجه إلى تحقيق أية أغراض عملية . وبالمثل فإن العصور الوسطى الأوربية والأسلامية ، بل وأوائل العصر الحديث ، قد شهدت كشوفا تكنولوجية هامة لم تكن مبنية على أساس علمى : فاختراع البارود الذى كان له تأثير حاسم فى الحروب ، والطباعة التى غيرت مجرى العلم والثقافة ، والعدسات المكبرة والمقربة التى كشفت للإنسان أبعاد الكون الشاسع وتفاصيل الحياة الدقيقة ــ كل هذه الكشوف تمت على أيدى صناع مهرة ، لا يسترشدون فى عملهم بنظرية علمية ، بل يستعينون بما توارثوه من خبرات ، وبما يضيفونه إليها باجتهادهم

---

(1) J . D Bernal : Science in History . Pelecan Books , 1969 .Vol . IV , P . 1229

وحدسهم الشخصى ، وبما يستشعرونه من حاجة المجتمع الملحة إلى هذه الاختراعات .

ولو شئنا الدقة لقلنا إن التكنولوجيا هى التى كانت تؤثر فى العلم طوال هذه الفترة . فكل مرحلة هامة من مراحل الكشف كان يسبقها تقدم تكنولوجى يمهد لها الطريق . وصحيح أن هذا التقدم التكنولوجى لم يكن يحدث لأسباب متعلقة بالعلم، وأن الصناع الذين حققوه لم تكن فى أذهانهم أدنى فكرة عما يمكن أن يترتب على عملهم من تأثير علمى لاحق . ولكن العلماء كانوا يتأثرون ـ عن وعى أو بغير وعى ـ بالكشوف التكنولوجية ، ويتخذون منها منطلقا لأبحاثهم النظرية . والدليل على ذلك أن العلم اليونانى ـ كما ذكرنا من قبل ـ يدين بالكثير لتلك الخبرات التكنولوجية التى تراكمت لدى الحضارات الشرقية القديمة ، والتى أعطت العالم النظرى حافزا للتأمل والتفكير . ولولا هذا التراكم الضخم من المعارف العملية لما استطاع العلم اليونانى النظرى أن يحقق إنجازاته هذه فى تلك الفترة الوجيزة . ومثل هذا يمكن أن يقال عن الفترة التى بدأ فيها ظهور العلم الأوروبى الحديث فى عصر النهضة : إذ أن العصور الوسطى الأوروبية لم تكن فترة خاملة من الوجهة التكنولوجية ، بل ظهرت فيها مجموعة من الاختراعات ذات الأهمية الحاسمة ، التى كان لها دور كبير فى الانبثاق المفاجىء والتقدم المتلاحق للعلم الأوروبى خلال فترة وجيزة .

فمن المؤكد مثلا أن تطوير الساعة بحيث تصبح جهازا ميكانيكيا (بدلا من الساعة الرملية أو الشمسية أو المائية) يدل على الوقت بدقة ، كان له دور كبير فى علوم كثيرة يستحيل إجراء ملاحظاتها أو تجاربها إلا باستخدام توقيت دقيق . كذلك فإن طواحين الهواء والماء ، التى أحرزت تقدما ملحوظا فى العصور الوسطى ، قد ساعدت على ظهور علم الميكانيكا

الذى كان أهم العلوم وأدقها فى المرحلة الأولى من تاريخ العلم الحديث . أما كشف العدسات فقد كان تأثيره العلمى حاسما : إذا أن التلسكوب الذى استخدمه جاليليو كان أداة عظيمة الأهمية فى أبحاثه العلمية النظرية فى ميدان الفلك والطبيعة . وبالمثل فإن ظهور الميكروسكوب الذى تم على أيدى صناع بارعين فى صقل العدسات ، لم تكن لديهم خبرة علمية كافية ، قد ساعد علماء آخرين على كشف عالم الأحياء الصغيرة الدقيقة ، بحيث يمكن القول دون مبالغة إن ظهور علم الأحياء بوصفه دراسة ذات منهج علمى راسخ يرجع إلى هذا الكشف التكنولوجى قبل كل شىء .

***

وإذن ، فطوال الجزء الأكبر من تاريخ البشرية لم تكن التكنولوجيا تدين للعلم بشىء ، بل كان العلم هو المدين لها بالكثير ، حتى فى تلك الفترات التى كان يتصور فيها أنه علم نظرى خالص منبثق عن العقل وحده . ويمكن القول إن هذا الوضع قد استمر حتى عصر الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر ، بل ظل قائما فى مجالات معينة طوال جزء كبير من القرن التاسع عشر .

ولكن شيئا جديدا كان قد بدأ يظهر فى هذا المجال منذ بداية العصر الحديث فى العلم الأوروبى ، أعنى منذ القرن السادس عشر أو السابع عشر . ولم يأت هذا الشىء الجديد بنتائج واضحة فى البداية ، ولكنه كان نقطة البدء فى تطور أصبح له فى عصرنا الحاضر أهمية عظمى فى حياة الإنسان . هذا الشىء الجديد هو التفكير فى استخدام العلم للأغراض التكنولوجية بحيث لا تُترك الكشوف التكنولوجية لبراعة الصانع الشخصية أو تدريبه الفعال ، وإنما تعتمد على نظرية علمية مؤكدة . لقد ذكرنا من قبل أن الفيلسوف الإنجليزى « فرانسس بيكن » كان رائدا فى هذا الميدان. حين

دعا إلى نوع جديد من العلم ، يكون هدفه تحقيق سيطرة الإنسان على الطبيعة ، وتسخير قواها لخدمته وإسعاد حياته . وصحيح أن دعوة بيكن هذه ، التى ظهرت فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ، لم تؤت ثمارها كاملة إلا بعد قرنين أو أكثر من وفاته ، ولكنها كانت نقطة الانطلاق نحو عصر جديد ، ونحو فهم جديد لوظيفة العلم وعلاقته بالتكنولوجيا .

ولقد كانت دعوة بيكن هذه هى التى حفزت الإنجليز على انشاء الجمعية الملكية للعلوم ، على النحو الذى أوضحناه من قبل . ومما يثبت أن تأثير بيكن كان حاسما فى هذا المجال ، أن الأهداف التى وضعتها هذه الجمعية لنفسها تكاد تكون صورة طبق الأصل مما سبق أن دعا إليه بيكن فى كتاباته . وكان الجانب العلمى أو التطبيقى يحتل مكانة بارزة وسط الأبحاث التى قام بها أعضاء هذه الجمعية منذ مراحلها الأولى . فقد لاحظ بعض الباحثين أن الجمعية قد أجرت خلال سنواتها الأربع الأولى بحوثا تستهدف حل حوالى ثلاثمائة مشكلة ، ومن بين هذه المشكلات مائتان لها تطبيقات عملية فى صناعة التعدين والملاحة البحرية (١) ، وهما صناعتان أساسيتان فى الحياة الاقتصادية لذلك العصر : إذا أن التعدين هو أساس الصناعة ، والملاحة البحرية هى وسيلة التجارة وتصريف المنتجات .

ولكن الأمر الذى ينبغى تأكيده هو أن المسألة لم تكن مجرد عبقرية شخصية من بيكن - وإن كان لهذا العنصر أهميته التى لا تنكر - بل إن بيكن كان يعيش فى جو جديد ، استطاع أن يكتشف فيه اتجاهات المستقبل قبل أن تظهر معالمها بوضوح ، وأن يتخذ من الدعوة إليها رسالة لحياته

---

(1) H . Rose & S . Rose : Science and Society . Pelican Books , London , 1971 . p . 14 .

الفكرية . وكان هذا الجو هو انهيار الإقطاع فى أوروبا ، وظهور مجتمع تجارى ثم رأسمالى له احتياجات تكنولوجية هائلة تعجز عن الوفاء بها أساليب الصناع القديمة ، مهما كانت براعتهم . وهكذا كان من الضرورى أن يدعو بيكن إلى إعطاء التقدم التكنولوجى دفعة قوية إلى الأمام عن طريق ربطه بالبحث العلمى . ولم يكن من الممكن أن تظهر ثمار هذه الدعوة دفعة واحدة ، بل كانت فى حاجة إلى فترة تمهيدية تتراكم فيها المعرفة العلمية ، وتقترب فيها من مجال التطبيق التكنولوجى بالتدريج . ولكن المرء حين يتأمل جيدا دلالة دعوة بيكن هذه ، الذى أطلق عليه البعض ، عن حق ، لقب « فيلسوف الثورة الصناعية » ، قبل ظهور هذه الثورة بمائتى عام ، وكذلك اتجاه الأبحاث التى كانت تتولاها الجمعية الملكية فى لندن ، سيقتنع بأن ظهور الثورة الصناعية فى إنجلترا بالذات ، وريادتها للعالم فى الميدان الصناعى حتى أواسط القرن التاسع عشر ، لم يكن على الإطلاق من قبيل المصادفات .

وكما قلنا ، فقد كان لابد من مضى فترة انتقالية منذ دعوة بيكن حتى الوقت الذى تحقق فيه التلاحم الوثيق بين العلم و التكنولوجيا . وخلال هذه الفترة ظهر نوع جديد من التخصص ، يحتل موقعا وسطا بين العالم والصانع ، هو مهنة « المهندس Engineer » التى لم تكن معروفة من قبل . فالمهندس لم يظهر إلا فى العصر الحديث ، وهو يجمع فى مهنته بين المعرفة النظرية وبين فهم التطبيقات العملية والقدرة على تنفيذها . وربما كانت مهنة المهندس تطويرا لعمل الصناع المهرة ، بعد أن اتضح أن البراعة الشخصية والخبرات المتوارثة لم تعد تكفى لمواجهة المتطلبات العملية للعصر الجديد ، وأن من الضرورى إدخال المعارف العلمية فى الميدان التكنوجى . وكان فى وسع المهندس أن يسدى إلى البحث العلمى خدمات جليلة : إذ كان لديه من

الفهم العلمى ما يتيح له أن يحول الخطة العقلية التى يرسمها العالم فى ذهنه إلى تجربة تجرى فى مختبر ، وبذلك ساعد على تقدم العلم التجريبى مساعدة فعالة .

وعلى يد هولاء المهندسين حدثت فى عصر الثورة الصناعية تلك التحولات الكبرى التى غيرت وجه العالم الحديث : فحلت الطاقة البخارية محل الطاقة المائية أو طاقة الحيوانات (الخيل مثلا) ، واستخدم الفحم وقوداً للمصانع على نطاق واسع ، وأصبحت عمليات الغزل والنسيج تتم فى مصانع ضخمة ، لا فى ورش فردية صغيرة ، وبدأت الإنسانية تجنى ثمار الجمع بين العلم والخبرة العملية التطبيقية .

ومنذ ذلك الحين أخذ ذلك الاتجاه إلى الجمع بين العلم والتكنولوجيا يزداد قوة بالتدريج ، بعد أن ظهرت فائدته العملية بوضوح قاطع ، إذ أن التطور الذى كان يستغرق مئات السنين على أيدى صناع مهرة ، أصبح يستغرق سنوات قليلة عندما يتدخل فيه العلم ويحل محل الخبرات المتوارثة التى لا تتجدد إلا ببطء شديد . واكتسب الإنتاج فى مختلف الميادين قوة دافعة هائلة بفضل الاتحاد الذى ازداد وثوقا بين النظريات الأساسية وتطبيقاتها العلمية . بل لقد أصبح ميدانا العلم والتكنولوجيا يستخدمان أساليب مشتركة ولغة واحدة ، وظهر نوع جديد من البحث العلمى ، أخذ يكتسب أهمية متزايدة ، ويحتل موقعا وسطا بين العلم النظرى والصناعة ، هو « البحث التطبيقى » ، الذى يأخذ على عاتقه مهمة تحويل الكشوف النظرية الجديدة إلى مشروعات قابلة للتطبيق عمليا . وليس معنى هذا أن البحوث « الأساسية » ، أعنى تلك البحوث التى تكون الأساس النظرى للتقدم العلمى ، وتزود العلماء بفهم جديد لقوانين الطبيعة ، لم تعد لها أهمية ، إذا أن أحدا لا ينكر أن هذه البحوث هى دعامة كل تقدم علمى

حقيقى ، بل كل تقدم تكنولوجى ، في أى مجتمع . ولكن المهم فى الأمر أن نسبة الأبحاث التطبيقية إلى مجموع الأبحاث العلمية أخذت تزداد باطرد .

ولكن الأمر الذى يلفت النظر فى عصرنا الحالى هو أن البحوث الأساسية ، التى لها طبيعة نظرية خالصة ، تتحول فى أقصر وقت إلى تطبيقات انتاجية . فالمسافة الزمنية بين ظهور البحث النظرى واكتشاف تطبيقاته العملية قد قلت إلى أبعد حد فى عصرنا الحالى . وقد أجرى بعض العلماء مقارنة بين الفترات الزمنية التى كان يستغرقها الوصول من الكشف العلمى النظرى إلى التطبيق فى ميدان الانتاج ، منذ عصر الثورة الصناعية حتى اليوم ، فتبين لهم ما يلى : « احتاج الإنسان إلى ١١٢ سنة (أى من عام ١٧٢٧ إلى ١٨٣٩) لتطبيق المبدأ النظرى الذى يبنى عليه التصوير الفوتوغرافى ، وإلى ٥٦ سنة (أى من ١٨٢٠ حتى ١٨٧٦) لكى يتوصل من النظريات العلمية الخالصة إلى اختراع التليفون ، وإلى ٣٥ سنة (من ١٨٦٧ إلى ١٩٠٢) لظهور الاتصال اللاسلكى ، وإلى ١٥ سنة (من ١٩٢٥ إلى ١٩٤٠ » ، للرادار ، و١٢ سنة (من ١٩٢٢ إلى ١٩٣٤) للتليفون ، و٦ سنوات (من ١٩٣٩ حتى ١٩٤٥) للقنبلة الذرية ، وخمس سنوات (١٩٤٨ ــ ١٩٥٣) للترانزستور ، وثلاث سنوات (١٩٥٩ ــ ١٩٦١) لإنتاج الدوائر المتكاملة » (١) .

ومن المؤكد أن طول أو قصر المدة الزمنية التى يحتاج إليها الانتقال من الأساس النظرى لكشف معين إلى ظهور الاختراع الفعلى ، يتوقف على عوامل متعددة : من بينها مدى الحاجة الاجتماعية إلى هذا الاختراع ، ومقدار الوقت والجهد والمال الذى يبذل من أجل التوصل إليه . فمشروع

---

(1) The Scientific and Technological Revolution , edited by Robert Daglish . Moscow 1972 . pp . 57 . 58 .

إنتاج القنبلة الذرية ، مثلا ، كان مشروعا حيويا خلال فترة حرب قاسية ، بل كان مسألة حياة أو موت ، وكان يمثل سباقا رهيبا مع الزمن حتى لا يظهر هذا السلاح الفتاك عند النازيين فيصبح أداة لتحقيق أحلام دكتاتور مجنون مثل هتلر ، ومن هنا كرست له موارد أغنى دول العالم ، وأعطيت له أولوية مطلقة على ما عداه من المشروعات ، وتفرغ له أعظم علماء الطبيعة في القرن العشرين . ولكن من الصحيح ، رغم هذا كله ، أن الشقة تضيق تدريجيا بين العلم النظرى والتكنولوجيا التطبيقية كلما اقتربنا من العصر الحاضر .

بل إن المشكلة في أيامنا هذه قد أصبحت ، في بعض الأحيان ، هي مشكلة التسرع في التطبيق التكنولوجي قبل القيام بأبحاث علمية كافية. وقد ذاعت في العالم ، في السنوات الأخيرة ، فضيحة العقاقير الطبية التي أنتجت على نطاق تجارى قبل أن تمر مدة كافية لإجراء التجارب والبحوث التي تكشف عن أضرارها في المدى الطويل ، وكان من نتيجة هذا التسرع في الإنتاج ولادة مئات من الأطفال المشوهين ، أو عدد كبير من التوائم غير المرغوب فيهم . ومثل هذا ينطبق على كثير من مبيدات الآفات الزراعية ، التي تبين وجود أضرار جانبية خطيرة لها .

وعلى أية حال ، فإن ما يهمنا من هذا كله هو أن العصر الحالي يشهد تداخلا وثيقا بين العلم والتكنولوجيا ، زالت معه الحواجز الزمنية التي كانت تفصل بينهما في القرن الماضي ، وظهرت في ظله أنواع جديدة من البحوث العلمية التي تجمع بين الأسس النظرية والجوانب التطبيقية في آن واحد . ونتيجة هذا هي أن العلم أصبح هو الأساس المؤكد لكل تحول تكنولوجي . وأن ما كان يقوم به الصانع المخترع أصبح يقوم به الآن عالم تطبيقي متخصص .

ولا شك أن التأثير الذي يسير في الاتجاه المضاد له بدوره أهميته

الحاسمة : فكما أصبحت التكنولوجيا فى عصرنا الحاضر متقدمة إلى حد مذهل بفضل ارتكازها على أساس البحث العلمى ، فكذلك أحرز العلم قدرا كبيرا من نجاحه السريع بفضل مساندة التكنولوجيا : أذ أن التكنولوجيا هى التى تعطيه أجهزة أدق ، وأدوات أفضل للبحث ، وطرقا أكثر فعالية لاختزان المعلومات واستعادتها بسرعة فائقة . وبالاختصار ، فإن هذا الامتزاج وهذا التأثير المتبادل بين العلم والتكنولوجيا هو المصدر الأول لقوة الإنسان المعاصر .

***

هذا التحالف الوثيق بين العلم والتكنولوجيا ، الذى رأينا أنه مصدر قوة الإنسان المعاصر ، كان وما يزال يثير ردود أفعال متباينة بين المفكرين . وعلى الرغم من أننا نميل إلى تأكيد الرأى السابق ، وأعنى به أن البشرية قد أحرزت كسبا هائلا منذ أن عرفت كيف تربط بين العلم والتكنولوجيا ، وتمكنت بذلك من أن تنهض بحياتها كما وكيفا ، على نحو كان من المستحيل تصوره ، أو حتى تخيله ، فى أى عصر . على الرغم من ذلك فإن من واجبنا أن نعرض بإيجاز ، قبل أن نختتم هذا الفصل ، للآراء المختلفة التى يعرب فيها المفكرون عن تفاؤلهم أو تشاؤمهم إزاء هذه القوة الضخمة التى اكتسبها الإنسان الحديث بعد أن عرف كيف يزاوج بين العلم والتكنولوجيا .

١ ــ فهناك رأى متشائم عرضه بعض المفكرين ، وخاصة أولئك الذين تغلب عندهم النزعة الأدبية ، يذهبون فيه إلى أن هذا التزاوج بين العلم والتكنولوجيا سيخلق آلات ذات قدرات تزداد تعاظما على الدوام ، حتى يأتى الوقت الذى يفلت فيه زمامها من يد الإنسان ، فتنقلب عليه ، وربما قضت عليه ، أو جعلته عبدا لها . ويبالغ نفر من هؤلاء المفكرين فى

تشاؤمهم فيتصورون مجيء يوم تكتسب فيه تلك الآلات التى يخلقها الإنسان نوعا من الوعى بذاتها ، وحين تشعر بقدرتها التى تفوق بكثير قدرة الإنسان الذى أبدعها ، تدرك أن الإنسان كائن يمكن الاستغناء عنه ، وتحقق هذا الهدف بالفعل ، ويسود عهد الآلة الصماء التى تحكم العالم بقوة « الحديد والنار » ، بالمعنى الحقيقى لهذا التعبير المشهور .

٢ ـ وهناك رأى اخر يتطرف فى الاتجاه المضاد ، فيذهب إلى أن الآلة هى التى ستحرر الإنسان من كل أشكال العبودية ، وتأخذ بيده فى طريق المستقبل الذى يحلم به . وأصحاب هذا الرأى يتصورون أن تقدم التكنولوجيا هو ، فى ذاته ، ضمان ضد كل أنواع القهر ، سواء أكان ذلك هو قهر الطبيعة للإنسان ، أم قهر الإنسان للإنسان . وهكذا يدعو هؤلاء المتفائلون إلى إطلاق العنان للتقدم التكنولوجى بلا قيود ، ويرون فى التطور الذاتى ، التلقائى ، للآلة مبشرا بعهد جديد يحقق للإنسان الوفرة ويعفيه من كل جهد .

٣ ـ أما الرأى الثالث فيخالف الرأيين السابقين فى تأكيده أن الآلات ، مهما ارتقت ، إنما هى أداة طيعة فى خدمة الإنسان ، وستظل كذلك على الدوام . وأصحابه يعيبون على المتشائمين والمتفائلين معا تجاهلهم لدور الإنسان فى توجيه مسار التكنولوجيا ، وإنكارهم لذلك البعد الاجتماعى الذى يتحكم فى طريقة استخدام الإنسان للآلة ، سواء لمصلحته أو ضد مصلحته . فالتكنولوجيا المنبثقة عن العلم والمتداخلة معه هى ، قبل كل شىء ، ناتج إنسانى ، اجتماعى ، ولن يصبح لها ذلك الاستقلال الذاتى المزعوم إلا فى ضوء نظرة خيالية مغرقة فى التشاؤم أو التفاؤل ، لا تقيم وزنا لتأثير المجتمع فى نوع الإنجازات العلمية التى تحقق فيه ، ولا تدرك أن العلم والتكنولوجيا إنما هما حصيلة جهد مجتمع كامل وثمرة معارفه

وأنشطته كلها ، وأن نوع المجتمع الذى يظهر فيه العلم هو الذى يحدد ما إذا كان هذا العلم سيسير فى اتجاه عدوانى أم فى اتجاه يستهدف إسعاد الإنسان .

وغنى عن البيان أن الرأى الثالث هو الذى يعد ، فى نظرنا ، تعبيرا عن الوضع الحقيقى للتكنولوجيا فى العالم المعاصر . وفى ضوء هذا الرأى يستطيع المرء أن ينقد الرأيين السابقين بسهولة .

ولنبدأ أولا بالرأى المتشائم . فقد يبدو للوهلة الأولى أن القائلين بهذا الرأى هم من السذج أو ضعاف النفوس ، الذين يرتعدون خوفا من تقدم التكنولوجيا الحديثة . ولكن الحقيقة على خلاف ذلك . فهم فى الواقع يمتدون بخيالهم إلى المستقبل الذى يستشفون معالمه من خلال تلك البوادر التى بدأت تظهر فى الحاضر . وهم يؤمنون بأن العقل البشرى الذى انتقل فى مائة سنة من الآلات الحديدية الضخمة القبيحة ذات الفعالية المحدودة ، إلى العقول الإلكترونية الصغيرة عظيمة الكفاءة ، قادر على أن يصل بالآلة ، بعد مائة سنة أخرى مثلا ، إلى مستوى قد يصبح مهددا له بالفعل . وإذا كان فى تفكيرهم ضعف فهو لا ينصب على تصورهم لمستقبل التكنولوجيا ، بل على تصورهم لعلاقة هذه التكنولوجيا شديدة التقدم بالإنسان .

ذلك لأن هؤلاء المتشائمين ينظرون إلى التكنولوجيا بوصفها قوة لها استقلالها الذاتى وتطورها الخاص الذى يسير فى طريقه غير عابىء بالإنسان ، ومن هنا يشيع بينهم الخوف من أن يأتى وقت تستولى فيه الآلات ، بعد أن يزداد تطورها وتشعر بقدرتها الفائقة ، على العالم وتبيد الإنسان على أساس أنه كائن لم يعد له داع ، بحيث تسود العالم أجهزة باردة جامدة لا تعرف العواطف أو المشاعر . أى أن وجهة نظرهم هى أن ذلك الجهد الهائل الذى ظل الإنسان يبذله طوال تاريخه لكى يحقق سيطرته على

الطبيعة ، سوف يصل إلى الحد الذى ينقلب فيه على الإنسان ، بحيث يصبح الإنسان ذاته عبدا للقوى التى أطلقها على أمل أن يستعبد بها الطبيعة ـ وكأن الطبيعة هنا تنتقم لنفسها من قهر الإنسان لها طوال عصره الحديث . وهذا الاتجاه الفكرى الذى يسير فيه هؤلاء المتشائمون ، ينطوى كله على الاعتقاد أو على الافتراض الضمنى القائل إن هذه الآلات تحكم نفسها بنفسها ، وتسير تلقائيا فى طريقها الخاص ، وهو اعتقاد يتجاهل البعد الإنسانى فى التكنولوجيا ، ويتأمل التطور التكنولوجى بنظرة أحادية الجانب .

وحين يبدى هؤلاء المتشائمون جزعهم من أن يأتى اليوم الذى تستعبد فيه الآلةُ مبدعها ، وهو الإنسان ، فإنهم فى الواقع يعبرون ، دون أن يشعروا ، عن نظرة متشائمة إلى طبيعة الإنسان نفسه ـ ذلك لأنهم يسقطون وحشية الإنسان وهمجيته وعدوانيته على الآلة التى هى بطبيعتها سلبية محايدة ، والتى لا تفعل إلا ما نأمرها به . وقد يكون هذا الإسقاط تعبيرا عن ضمير مثقل بالشرور والذنوب ، وقد يكون محاولة للتهرب من مسئوليتنا عن الفوضى التى نشيعها فى العالم نتيجة لإخفاق نظمنا الاجتماعية الفاسدة ، بحيث نلقى باللائمة على الآلة بدلا من أن نلوم أنفسنا . وأيا كان الأمر ، فنحن فى كل حالة نبدى فيها تشاؤما بمستقبل الإنسان وطريقة توجيهه لمجتمعه ، نتستّر على عيوب نظمنا الاجتماعية باتهام العلم والتكنولوجيا ، مع أنهما بريئان من كل ما تدينهما به .

وهكذا فإن التحليل الحقيقى لموقف هؤلاء المتشائمين ليس هو أن الإنسان سيصبح عبدا للتكنولوجيا التى اخترعها ، بل إن التكنولوجيا ستصبح شيئا مخيفا لأنها ستكون عبدا خاضعا لإنسان تسود العدوانية سلوكه .

ولسنا فى حاجة إلى التوقف طويلا عند رأى المتفائلين ، إذ أن هذا الرأى ، بقدر ما يعتمد على « التطور الذاتى للتكنولوجيا » من أجل حل جميع مشكلات الإنسان ، ليس إلا الوجه الآخر للعملة بالنسبة إلى الرأى المتشائم ، وكل ما قلناه من قبل فى نقد هذا الرأى الأخير ينطبق عليه ، ولكن من الجانب المضاد بطبيعة الحال . فليس من حقنا أن نغرق فى التفاؤل إلى حد الاعتقاد بأن الآلة قادرة على تحقيق السعادة للبشر ، أو تخليصه من الشقاء والمعاناة « بجهودها الخاصة » أو « بتطورها التلقائى » . إذ أننا بذلك نعفى أنفسنا من مسئولية إصلاح أوضاعنا ، ونلقى بهذه المسئولية على الآلة ، مع أن الإنسان وحده هو القادر على حل المشكلات التى أوقع نفسه فيها ، مستعينا فى ذلك ـ طبعا ـ بالتقدم التكنولوجى .

ولقد لخص أحد الرواد العظام للتكنولوجيا فى عصرنا الحاضر ، وهو نوربرت فينر N . F . Wiener (١) ، مكتشف السيبرنطقيا ، الحدود التى لا ينبغى أن يتعداها إيماننا بقدرات الآلة أو خوفنا من طغيانها بقوله : « اعط ما للإنسان للإنسان ، وما للعقل الإلكترونى للعقل الإلكترونى » . وكان يعنى بذلك أن الإنسان يظل له دوره الهام والأساسى فى عصر التقدم التكنولوجى المذهل ، وأن أرقى أنواع الآلات تظل على الدوام أداة طيعة فى يد صانعها ، وتتجه ـ إن خيرا وإن شرا ـ فى نفس الطريق الذى يريدها الإنسان أن تسلكه .

---

(١) انظر الفصل التالى .

الفصل الخامس
لمحة عن العلم المعاصر

الأساس النظرى :

كان العلم الأوروبى عند مطلع العصر الحديث علما ميكانيكيا فى المحل الأول . فالميكانيكا نفسها كانت أهم العلوم وأدقها ، وبفضلها تحققت مجموعة كبيرة من كشوف القرنين السابع عشر والثامن عشر . والأهم من ذلك أن نموذج المعرفة ذاته كان هو النموذج الآلى : أعنى أنك تستطيع أن تفهم الظواهر على أفضل نحو إذا استطعت أن تنظمها فى نسق تكون فيه كل منها مؤدية إلى الأخرى بطريقة آلية خالصة . بل إن الكون كله كان فى نظر فلاسفة العصر آلة ضخمة تسير فى عملها بانتظام الساعة الدقيقة ، وعلاقة الله بالعالم أشبه بعلاقة الصانع بصنعته ؛ بمعنى أن العالم قد صنع متقنا منذ البداية ، ويظل يسير فى طريقه بعد ذلك بنفس الدقة والانتظام اللذين صنع بهما .

وكانت أهم العوامل المؤدية إلى دعم النظرة الآلية إلى العلم ، امكاناتها التطبيقية الهائلة التى بلغت قمة نجاحها بظهور الآلة البخارية وبداية عصر جديد من عصور الإنتاج البشرى . وكان من الطبيعى أن يواكب هذا النجاح إيمان بأن فكرة الآلية تنطبق على كل شىء ، حتى على الأجسام الحية ، بل وعلى الإنسان نفسه . وفى القرن الثامن عشر كان فلاسفة عصر التنوير

الفرنسيون من أقوى دعاة هذا الفهم الجديد للعلم ، ومن هنا كانت حملتهم على كل أشكال التفكير الغيبى والميتافيزيقى ، ودعوتهم إلى فهم كل الظواهر بنفس المنهج الذى ثبت نجاحه فى العلم . وظل هذا الاتجاه مستمرا طوال الجزء الأكبر من القرن التاسع عشر ، وكان الناطق باسمه هو الفيلسوف الفرنسى « أوجست كونت Auguste Comte » الذى نادى بفلسفة ترتكز على التجربة الدقيقة ، ولا تعترف إلا بالمعرفة المستمدة من الملاحظات والتجارب العلمية ، وأكد أن المرحلة العلمية التجريبية هى أعلى المراحل التى يصل إليها العقل البشرى عند نضوجه ، وإنها هى التى ينبغى أن تحل محل كل ألوان التفكير الاسطورى واللاهوتى والميتافيزيقى التى سادت فى العصور الغابرة .

وقد أدى ظهور نظرية التطور على يد دارون ، فى أواسط القرن التاسع عشر ، إلى اعطاء هذا الاتجاه الآلى دفعة قوية : إذ أن هذه النظرية فسرت تطور الأنواع الحية وتنوع صفاتها بمضى الزمن تفسيرا آليا بحتا ، لادخل فيه إلا للعوامل الطبيعية الخاصة بالتكيف مع البيئة . وكان معنى ذلك أن مبدأ الآلية لا يسرى على الظواهر الطبيعية فحسب ، بل ينطبق على الأحياء بدورهم . وقد عبر الطبيب الفرنسى المشهور « كلود برنار Claude Bernard » أدق تعبير عن تلك المرحلة التى أعلن فيها انتصار النظرة الآلية إلى العالم انتصارا مطلقا ، بتطبيقها على ظاهرة الحياة ، لا على الظواهر الطبيعية غير الحية فحسب ، وذلك فى نص مشهور يقول فيه : « هناك بديهية تجريبية ينبغى التسليم بها ، هى أن شروط وجود أيه ظاهرة يمكن تحديدها بطريقة قاطعة ، وأن هذا يسرى على مجال الكائنات الحية مثلما يسرى على الأجسام الجامدة . على أن هناك أناسا ينادون بمذهب يطلقون عليه اسم النزعة الحيوية ، وباسم هذا المذهب يقولون بأفكار شديدة البطلان

فى هذا الموضوع ، إذ يعتقدون أن دراسة ظواهر المادة الحية لا يمكن أن تكون لها أدنى صلة بدراسة ظواهر المادة غير الحية . وهم يتصوررون أن للحياة تأثيرا غامضا خارقا للطبيعة ، يمارس فاعليته بطريقه عشوائية ، متحررا من كل حتمية ، أما أولئك الذين يبذلون جهودهم من أجل تفسير الظواهر الحيوية عن طريق عوامل كيمائية وفيزيائية محددة ، فإنهم يصفونهم بأنهم ماديون .. وتلك كلها أفكار باطلة .. (١) » .

وظل هذا الاتجاه العلمى الآلى فى صعود خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، بل لقد بلغ فى تلك الفترة قمة ناجحة عندما تلاحقت النظرية والتطبيقات العملية التى غيرت وجه الحياة فى العالم : كاختراع التليفون والتلغراف والتصوير الفوتوغرافي والسينما والسيارة والطائرة . وكانت نتيجة ذلك هى سيادة نوع من الإيمان المتطرف بالعلم ، وصل إلى حد الاعتقاد بأن العلم الدقيق هو الشكل الوحيد الذي ينبغى للإنسان أن يعترف به من بين سائر أشكال المعرفة ، وبأن الحقيقة فى جميع مجالاتها ، يستوى فى ذلك أعماق الإنسان الباطنة وأطراف الكون الخارجية ، لا تتكشف إلا عن طريق منهج تجريبى ، وأن المعرفة العلمية الدقيقة بأسباب الظواهر هى وحدها القادرة علــى أن تأخذ بيد البشرية فــى الطــريق الموصــل إلى السعادة والكمال .وإذا لم تكن هذه النزعة العلمية المتطرفة قد تجاهلت أنواع المعرفة التى يقدمها إلينا الفن أو الشعر أو الأدب أو الاستبصار الاخلاقى ، فإنها كانت تدعو إلى قيام هذه الأنواع كلها على أساس تجريبية ، وبنائها

---

(١) انظر كتاب « المدخل إلى الطب التجريبى

Introduction a la medicine experimentale

(لهذا الكتاب ترجمة عربية للدكتور يوسف مراد ـ مطبعة دار المعارف القاهرة) .

على وقائع تخضع للملاحظة والتحقيق التجريبى .

على أنه ، فى نفس الوقت الذى بلغ فيه هذا الاتجاه الآلى فى العلم أوج النجاح فى أواخر القرن التاسع عشر ، بدأت الصورة تتغير بسرعة ، وظهرت عوامل متعددة أدت إلى تزعزع هذا الاعتقاد بأن المعرفة التجريبية ، المرتكزة على وقائع يمكن ملاحظتها وحسابها بدقة كاملة ، هى النمط النموذجى لكل أنواع المعرفة الأخرى ، أو هى وحدها التى تصلح منهجا للبحث العلمى . فقد ظهرت فى علم الفيزياء كشوف شككت العلماء فى أن يكون عالم الجزئيات المادية الدقيقة ، أعنى عالم ما دون الذرة ، خاضعا لمسار حتمى دقيق يمكن التنبؤ به مقدما ، وتبين أن المادة تتبدد على شكل طاقة ، وكان معنى ذلك التشكيك فى مبدأ أساسى من مبادىء النظرية الآلية فى العلم ، وأعنى به الاعتقاد بأنه لا شىء يتحول إلى العدم أو يظهر من العدم . ويمكن القول إن الصورة الجديدة للعالم ، كما تتضح من خلال الكشوف العلمية الحاسمة فى فترة الانتقال من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين ، أصبحت بعيدة كل البعد عن ذلك العالم الذى هو أشبه بآلة ضخمة تتحرك كل أجزائها وفقا لقوانين ميكانيكية بحيث يمكن التنبؤ بمسارها وتغيراتها بدقة كاملة ، ومخالفة للاعتقاد القديم بأن أساس العالم مادة ملموسة تتخذ أشكالا متباينة من خلال حركتها . فالعالم كما كشفت عنه الفيزياء الحديثة ، هو عالم من القوى والطاقات التى تتبادل التأثير ، وهو فى أدق جزيئاته مجموعة من الشحنات التى يستحيل التنبؤ بمسارها مقدما .

هذه التطورات الحاسمة لم يكن معناها فقدان الثقة فى العلم أو فتح الباب على مصراعيه أمام الاتجاهات المعادية له . فمثل هذه النتيجة ، التى استخلصها البعض بالفعل فى أول عهد النظريات الفيزيائية الجديدة ، ليست صحيحة على الإطلاق . بل إن الصحيح هو أن العلم قد اكتسب من

تطوراته هذه قوة دافعة أدت به إلى المزيد من التقدم . وكان اكتشاف التعقيد المتزايد لتركيب المادة ولقوانين الطبيعة بوجه عام ، حافزا للعلماء كيما يتوصلوا إلى كشوف تطبيقية أعقد من كل ما عرفته البشرية حتى ذلك الحين . وإذا كنا نفخر فى عصرنا الحاضر باكتشاف الطاقة الذرية والعقول الإلكترونية وارتياد الفضاء ، فمن المؤكد أن هذه الكشوف كان من المستحيل إنجازها فى الوقت الذى كانت تسود فيه النظرة الآلية المباشرة إلى العالم . وهى لم تصبح ممكنة إلا منذ اللحظة التى اكتشفنا فيها التعقد المتزايد للطبيعة والتأثيرات المتبادلة لمكوناتها ، فكان هذا الاكتشاف هو الأساس النظرى الذى مهد لظهور مخترعات ونواتج علمية تماثل فى تعقدها قوانين الطبيعة التى بنيت عليها .

الوضع الحالى للعلم :

فى القرن العشرين حدثت ثورة كمية وكيفية هائلة في المجال العلمى ، بمعنى أن نطاق العلم قد اتسع إلى حد هائل ، كما أن إنجازاته قد اكتسبت صفات جديدة وأصبحت أهميتها تفوق بكثير كل ما كان العلم يحققه فى أى عصر سابق . بل إن هذا التغيير جعل العلم هو الحقيقة الأساسية فى عالم اليوم ، وهو المحور الذى تدور حوله كل المظاهر الأخرى لحياة البشر .

ولو نظرنا إلى الأمر من الزاوية الكمية الخالصة ، لتبين لنا أن معدل نمو العلم قد تسارع بصورة مذهلة خلال القرن العشرين ، إذ تقول الإحصاءات إن كمية المعرفة البشرية تتضاعف ، فى وقتنا الحالى ، خلال فترة تتراوح بين عشر سنوات وخمس عشرة سنة ، وهو ما كان يستغرق فى العصور الماضية مئات السنين . وسيظل هذا المعدل فى ازدياد مستمر ، بحيث أن الإنسان سيحتاج من أجل مضاعفة معرفته بالعلم عند نهاية هذا القرن إلى فترة لا تزيد عن خمس سنوات . وبطبيعة الحال فإن تعبير « مضاعفة كمية المعرفة

البشرية » قد يبدو تعبيرا مضللا ، لأن فى المعرفة البشرية أمورا لا تقاس بالكم ، فضلا عن أن بحثا واحدا قد يكون أعظم أهمية فى تقرير مصير العلم من عشرات الأبحاث . ولكن من الممكن ، مع ذلك ، تحديد مستوى المعرفة فى ميدان العلوم الطبيعية ، بصورة مجملة ، عن طريق عدد الأبحاث التى تجرى فيه .

كذلك فإن عدد العلماء يتزايد بمعدل مذهل : فأشد الإحصاءات تحفظا تقول إن عدد العلماء الذين يعيشون الآن يساوى ثلاثة أرباع مجموع العلماء الذين عاشوا على هذه الأرض منذ بدء التاريخ البشرى ، وهناك إحصاءات تقول إن العددين متساويان . ولو افترضنا ــ تخيلا ــ أن الزيادة فى عدد العلماء قد استمرت بنفس معدلها الحالى فسيكون معنى ذلك أن كل رجل وامرأة وطفل لابد أن يصبح عالما فى أواسط القرن المقبل . وكذلك يقدر هواة الإحصاءات أنه لو استمرت زيادة الإنتاج فى البحوث العلمية بنفس معدلها الحالى ، فإن وزن المجلات العلمية الموجودة فى العالم سيصبح ، بعد مائة سنة ، أثقل من الكرة الأرضية ذاتها ، ولو استمر الإنفاق على الأبحاث العلمية فى الدول المتقدمة ، يتزايد بمعدله الحالى ، فإن هذه الدول ستنفق ، بعد فترة لا تزيد عن خمسين سنة ، كل دخلها القومى على البحث العلمى والتكنولوجيا ، دون أن يتبقى منه شىء للتعليم أو الصحة أو الغذاء أو الجيش .

هذه كلها بطبيعة الحال إحصاءات فرضية ، لأن حياة البشرية ستصبح مستحيلة لو أصبح كل رجل وامرأة وطفل فيها عالما ، ولم يعد هناك صناع أو زراع أو موظفون . ومن المستحيل أن تُترك المطبوعات العلمية لتتراكم حتى تسد علينا منافذ الحياة ، أو أن نُنفق على البحث العلمى وحده ونترك سائر القطاعات الحيوية بغير إنفاق . فكل ما تدل عليه هذه الإحصاءات هو

أن معدل النمو فى العلم يتزايد فى القرن العشرين بسرعة مخيفة ، وأنه سيكون من المحتم وضع حد لهذه الزيادة ، وتخفيف حدتها فى المستقبل ، حتى تصبح حياة الإنسان ممكنة ، وإن كل هذا لا يعنى بأى حال إيقاف تقدم العلم ، لأن العدد الحالى من العلماء ، حتى لو استمر دون زيادة ، كاف لإحداث تغيرات هائلة فى العلم ، لاسيما وأن الظروف التى يعمل فيها العلماء والأدوات التى يستخدمونها ، سوف يرتفع مستواها وتتضاعف قدراتها على الدوام .

ومن جهة أخرى فهذه الإحصاءات تنطبق على البلاد المتقدمة وحدها ، وهى حدها كافية لكى يدرك القارىء إلى أى حد ستظل الهوة بيننا وبين العالم المتقدم تتسع باستمرار ، إذا لم يتغير موقفنا من العلم ومن البحث العلمى تغييرا جذريا . ففى الوقت الذى أصبحت فيه البلاد المتقدمة تشعر بخوف حقيقى من جراء النمو السريع للبحث العلمى ، وتفكر فى وسائل إيقاف هذا التسارع المذهل ، نعانى نحن من نوع عكسى من الخوف على مستقبلنا فى عالم يقرر مصيره العلم الذى لانبدى به اهتماما كبيرا . وأبسط ما يمكننا أن نلاحظه ، فى هذا الصدد ، هو أن النجاح فى العلم (كما هو فى ميدان المال) يولد مزيدا من النجاح ، وأن الاتساع المتزايد فى قاعدة البحث العلمى وازدياد جذورها تعمقا ، يعطى الجيل القادم فرصا أعظم لمضاعفة الإنجازات العلمية ، مما يؤدى فى النهاية التى تقدم يستحيل أن يتنبأ العقل بأبعاده .أما فى حالة البلاد المتخلفة علميا فإن الفشل يؤدى إلى مزيد من الفشل : لأن العلماء الذين يشعرون بخيبة الأمل والإحباط ، والذين يفتقرون إلى وسائل البحث الجاد وامكاناته ، ويعيشون فى جو لا يشجع عليه ، سيتركون من ورائهم جيلا أكثر إحباطا وأقل مقدرة ، وسيصبح هذا الجيل الأضعف هو المسئول يوما ما ، وهلم جرا .

فإذا حاولنا أن نقدم عرضا لأهم إنجازات هذا العلم المعاصر ، لكي نتبين منها الملامح المميزة له من العلم في العصور الماضية ، فإن مهمتنا تبدو في هذا الصدد شديدة الصعوبة : ذلك لأن هذه الانجازات تبلغ من الكثرة والتشعب حدا يجعل من العسير تقديم عرض يتسم بأي قدر من الشمول لها ، كما يجعل من الصعب الاختيار بينهما إذا كان الهدف هو عرض نموذج منها . وعلى أيه حال ، فسوف نكتفي بالكلام عن مجموعة من الإنجازات التي يكاد يكون هناك إجماع في الرأي على أهميتها العظمى في حياة الإنسان المعاصر ، مع تأكيد حقيقة أساسية هي أن هناك إنجازات أخرى لا تقل عنها أهمية في نظر الكثيرين .

أول هذه الإنجازات هو كشف إمكانات الطاقة الذرية . ولقد كان اكتشاف الطاقة الكامنة في الذرة حصيلة مجموعة كبيرة من التطورات الأساسية في علم الفيزياء ، من أهمها اهتداء « أينشتين » إلى معادلته المشهورة بين المادة والطاقة . ولسنا نود أن نتحدث الآن عن الأهمية النظرية لهذا الكشف الكبير الذي أزال الحد الفاصل بين ما كان يعتقد أنه « مادة صلبة » وبين الطاقة التي هي مجرد قوة غير ملموسة ، ولكن ما يهمنا هو أن معادلة أينشتين ظلت حقيقة « نظرية » في حاجة إلى التحقيق العلمي والتجريبي ، وكانت الظروف العالمية ، الخارجة عن نطاق العلم ، هي وحدها التي هيأت الفرصة لهذا التحقيق العلمي ، وهي التي جعلت أول وأهم تطبيقات هذه المعادلة يحدث في الميدان العسكري .

فقد كان من المعروف ، قبل الحرب العالمية الثانية ، أن العلماء الألمان قد قطعوا شوطا بعيد في محاولة استغلال المعرفة النظرية المتعلقة بالتركيب الداخلي للذرة ، وكان من الحقائق المسلم بها أن هذه المحاولات سوف تسير أولا وقبل كل شيء في الاتجاه العسكري . و كان هناك خوف حقيقي من أن

يكتسب هؤلاء العلماء في عهد هتلر ، القدرة على الاستغلال الحربي لتلك الطاقة الهائلة التي تتولد عن انشطار الذرة . وتضاعف هذا الخوف باقتراب نذر حرب عالمية جديدة ، وبالمسلك العدواني المغرور الذي كان هتلر يسلكه مع الدول المحيطة به في الفترة السابقة على تلك الحرب . وكان أول من تنبه إلى هذا الخطر مجموعة من العلماء ممن هاجروا إلى الولايات المتحدة فرارا من الاضطهاد في العهد النازي . وهكذا اجتمعت كلمة هؤلاء العلماء ، وعلى رأسهم أينشتين نفسه ، على أن يكتبوا إلى الرئيس روزفلت ، رئيس الولايات المتحدة في ذلك الحين ، داعين إياه إلى أن يخصص لهم الأموال والاستعدادت اللازمة ، حتى يتسنى لهم الوصول إلى هذا السلاح الجديد قبل أن يتوصل إليه حاكم طاغ يمكن أن يسيطر به على العالم ويفرض عليه قيمه وأفكاره المعادية للإنسان .

وبالفعل قدمت الدولة إلى مجموعة العلماء المشتغلين في هذا المشروع ، الذي عرف باسم « مشروع مانهاتان Manhattan Project » كل ما يحتاجون إليه من مساعدات ووسائل للبحث ، واستطاع العلماء الامريكيون أن يجروا في عام ١٩٤٥ في صحراء نيفادا ، أول تجربة ذرية في التاريخ ، ولم تمض إلا مدة قصيرة حتى وضع السلاح الرهيب الجديد موضع التطبيق الفعلي ، فألقيت أول قنبلة ذرية على هيروشيما في اليابان في ٨ أغسطس ١٩٤٥ ، وأعقبتها بعد أيام قلائل القنبلة الثانية على نجازاكي ، مما عجل بالاستسلام النهائي لليابان ، آخر دولة ظلت في الحرب .

وسوف نتحدث فيما بعد عن الدلالة الإنسانية للسلاح الذري بوجه عام ولقنبلتي هيروشيما ونجازاكي ـ وهما القنبلتان الذريتان الوحيدتان اللتان استخدامتا في حرب حقيقية ، حتى اليوم ـ بوجه خاص ، ولكن ما يهمنا في هذا الصدد هو الإشارة إلى أن نجاح « مشروع مانهاتان » كان معناه دخول

الإنسانية عصرا جديدا هو ما أصبح يعرف بعد ذلك باسم العصر الذرى : وصحيح أن الإنسانية قد أعلنت عن دخولها هذا العصر بطريقة تدعو إلى الأسى من خلال دوىّ يصم الآذان وكـرة هائلة من النار تصهر حرارتها الحديد ، وصراخ عشرات الألوف من الأطفال والنساء والضحايا الذين لا يعرفون لماذا يحدث ذلك كله . ولكن المهم فى الأمر أن العلم الإنسانى وصل بهذا الانفجار إلى نقطة تحول حاسمة فى تاريخة ، وأن إحدى قمم المعرفة البشرية قد بلغت من خلال الحضيض الذى تردت إليه الإنسانية فى أبشع وأسرع حادثة قتل جماعى فى التاريخ .

ومنذ ذلك الحين أصبحت الذرة من أبرز المعالم المميزة لعصرنا ، فتطورت الأسلحة فى الميدان العسكرى ، من القنابل الذرية إلى القنابل الهيدروجينية التى هى أشد فتكا بكثير ، ووصلت هذه القنابل الآن إلى درجة من القدرة التدميرية أصبح العلماء معها يصنفون قنبلة هيروشيما بأنها « لعبة أطفال » . ولم تعد هذه القنابل الآن سلاحا عسكريا فحسب ، بل أصبحت سلاحا استراتيجيا فى المحل الأول ، ذلك حين لم تعد تحتكرها دولة واحدة ، وحين تطورت وسائل نقلها وأصبحت قادرة على الوصول إلى أى مكان فى العالم . وهكذا نشأ ميزان الرعب النووى بين الدولتين الكبيرتين ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وترتبت على ذلك المناورات السياسية والعسكرية التى شهدتها فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وكل محاولات الردع والاحتواء والأحلاف العسكرية ، ثم التعايش السلمى والوفاق ...

وفى الجانب الآخر كان العلماء يشتغلون بجد من أجل كشف الوسائل التى يمكن بها تسخير هذه الطاقة الهائلة الجديدة للأغراض السلمية . وبالرغم من كل ما تم إحرازه فى هذا الميدان من تقدم ، فإن الحقيقة المؤسفة التى ينبغى الاعتراف بها ، والتى تنطوى على إدانة خطيرة للإنسان المعاصر ، هى

أن القدرة على استخدام الذرة فى المجالات السلمية مازالت فى مستوى أقل بكثير من القدرة على استخدامها فى الأغراض العسكرية ، أى أن الإنسان مازال يثبت أنه أقدر على استخدام عقله وعبقريته ، من أجل الموت ، منه على استخدامه من أجل الحياة . ومع ذلك فلابد أن نسجل أن أعدادا من الإنجازات الهامة قد تحققت فى هذا الميدان : إذ أن الذرة استخدمت فى العلاج الطبى بنجاح غير قليل ، وخاصة فى حالة بعض الأمراض المستعصية ، كما أمكن بفضلها إنجاز مشروعات هندسية كبرى ، كشق الترع أو حفر الأنفاق أو هدم عوائق صخرية ضخمة ، والأهم من ذلك أن شوطا كبيرا قد قُطع فى طريق استخدام الطاقة الذرية كمصدر للوقود ، وما زالت الأبحاث جارية لكى تستطلع كل إمكانات هذه الطاقة الهائلة .

وفى نفس الوقت الذى دوى فيه صوت الانفجار الذرى فى هيروشيما لكى يعلن على الملأ بداية عصر الذرة ، كان هناك عالم هادىء يعلن بأبحاثه ، فى تواضع شديد ، قيام علم جديد أطلق عليه اسم « السيبرنطيقا - Cybernetics » . وكان ظهور هذا العلم الجديد هو بدوره واحدا من المعالم البارزة لعصرنا الحاضر ، بل قد يثبت على المدى الطويل أن تأثيره فى مستقبل الإنسانية أهم بمراحل من تأثير الانشطار النووى . هذا العالم هو « نوربرت فينر Norbert Wiener » الذى كانت أبحاثه هى الأساس الأول لاختراع العقول الالكترونية . (١)

كانت فكرة هذا العالم هى تطبيق ما يحدث فى الإنسان ، بوصفه جهازاً حيا متكاملا ، على الآلات من أجل بلوغ مرحلة جديدة فى تطورها مختلفة عن كل ما استخدمت فيه الآلات من قبل . وعلى هذا الأساس

---

(١) انظر بالنسبة إلى الجزء الخاص بالعقل الالكترونى ، مقال « العقل البشرى والعقل الإلكترونى » للمؤلف . مجلة العربى عدد أبريل ١٩٧٧ .

فقد درس الوظائف التى يقوم بها الجهاز العصبى للإنسان ، والتى يتمكن الإنسان بواسطتها من أن يصحح مسار أفعاله ويعيد توجيهها وفقا لما يواجهه من مواقف ، وأن يأمر نفسه ويطيعها ويختبر نتائج سلوكه ويعدلها . وحين أمكن تطبيق نتائج هذه الدراسات فى صنع جيل جديد من الآلات ، كانت تلك الآلات من نوع لم يألفه الإنسان من قبل : فهى ليست تلك الآلات التى تحتاج إلى إشراف دائم للإنسان ، ولا تعمل إلا وفقا لأوامره ، ولا تسير إلا فى خط واحد يرسمه لها مقدما ، بل إنها كانت آلات تصحح مسارها بنفسها ، وتتبادل مع نفسها الأوامر وتنفيذ الأوامر ، وتقوم بأعمال إنتاجية أعقد وأكمل بكثير مما كانت تقوم به الأجيال السابقة من الآلات ، سواء منها البخارية والكهربائية . وهكذا كانت فكرة تلك الآلات تتضمن فى داخلها « عقلا » حاسبا يراقب عملها ويعدله ويصححه ، ويعيد توجيه سيرها وفقا لما يجريه من حسابات .

وقد نجحت هذا الآلات فى إحداث تحول هائل فى ميدان الإنتاج المادى ، إذ أن كفاءتها كانت أعلى بكثير من كل أنواع الآلات السابقة ، فضلا عن أنها توفر نسبة كبيرة من الأيدى العاملة ، أى أنها كانت تحقيقا فعليا لحلم بشرى قديم ، هو حلم الآلة التى تقوم بكل أعمال الإنسان وتعفيه من مشقة العمل. وهذا بالفعل ما حدث إلى حد بعيد ، فى عصر الآلية الذاتية Automation .

ولكن الإنجاز الأكبر لهذا المبدأ الهام الذى قامت عليه هذه الآلات الجديدة كان تطبيقها فى ميدان العمل العقلى ، باختراع نوع جديد من الآلات ، هو « العقول الإلكترونية » ، وكان ذلك شيئا جديدا كل الجدة فى التاريخ البشرى : إذ أن كل ما كان يستعين به الإنسان قبل ذلك من وسائل وأدوات ، ابتداء من الفأس ودواب الحمل حتى الآلة البخارية والكهربائية ،

كانت توفر على الإنسان طاقته « الجسمية » فتقوم بدلا منه بالعمل المرهق ، أو تنقله بطريقة أسرع ، أو تنتج له سلعه بوفرة ، أما الميدان العقلى فقد كان الإنسان وحده هو الذى يتحمل اعباء« ويؤمن بأن شيئا لن يستطيع أن يمد إليه يد المساعدة فى هذا الميدان بالذات . ومن هنا فإن ظهور العقول الإكترونية يعد مرحلة جديدة فى حياة الإنسان العقلية ، وخطوة جبارة فى طريق التقدم العلمى ، فضلا عن أنه فتح آفاقا هائلة أمام المعرفة البشرية فى مختلف ميادينها .

والواقع أن هذا الكشف الجديد قد أتى فى وقته المناسب تماما . ذلك لأن العصر الحاضر هو ، باعتراف الكثيرين ، عصر « الانفجار المعرفى » أو « انفجار المعلومات » . فكمية المعلومات فى أى ميدان من ميادين البحث ، مهما كان مقدار تخصصه ، تتسع إلى حد يستحيل على العقل البشرى ، مهما كان مدى قوة ذاكرته ، أن يستوعبه . وفى البلاد المتقدمة علميا يتعين على الباحث ، قبل أن يشرع فى عمل علمى جديد ، أن يكون ملما بأحدث ما تم التوصل إليه فى ميدانه حتى يفيد من جهود الآخرين ، ويبدأ من حيث انتهوا ، وحتى لا يكرر عملا سبق لغيره القيام به فى مكان ما . ولكن وسائل الاطلاع العادية ، كالبحث عن أحدث الكتب والمجلات العلمية فى المكتبات ، لا تجدى فى هذا العصر الذى تتدفق فيه الأبحاث الجديدة ، ويتزايد عددها بلا انقطاع . وهنا تأتى العقول الإليكترونية لتقوم بدور « الذاكرة الصناعية » . فهى تحفظ المعلومات المتعلقة بالكتب والمقالات الهامة فى كل موضوع فرعى ، وتزود الباحث على الفور بقائمة كاملة من المراجع التى يتعين عليه قراءتها فى الميدان الذى اختاره ، أو تقدم إليه المعلومات المطلوبة مباشرة وتعفيه من جهود شاقة تدوم « سنوات » دون أن تصل أبدا إلى المستوى المطلوب .

وبطبيعة الحال فقد تناولنا دور العقول الإلكترونية فى مساعدة العقل البشرى بوصفه نموذجا لما تؤديه التكنولوجيا الجديدة من خدمات أساسية فى ميدان العلم . ومن المعروف أن الدور الذى تقوم به هذه العقول فى الميدان العلمى أوسع من ذلك . فهى ليست « ذاكرة صناعية » فحسب ، بل إنها تؤدى عمليات ذهنية يعجز عنها العقل البشرى ، أو لا يؤديها إن استطاع ، إلا فى سنوات عديدة . فهى تقوم بأدق العمليات الحسابية وأعقدها بسرعة هائلة ، وهى عظيمة الكفاءة فى المجالات التى تتعدد فيها العوامل وتتنوع إلى الحد الذى يقف أمامه العقل الإنسانى عاجزا . فحين تتعدد المتغيرات فى موقف معين ، كما هى الحال فى الحسابات المتعلقة بتوجيه سفينة فضائية إلى كوكب بعيد ، يكون فى استطاعة العقل الإلكترونى أن يحسب بسهولة اتجاه المسار الصحيح من خلال عمل حساب مجموعة من العوامل شديدة التعقيد ، مثل سرعة السفينة وسرعة دوران الأرض والجاذبية وحركة الكوكب وجاذبيته ، إلى آخر ذلك من العوامل التى يستحيل على العقل البشرى أن يجمعها كلها فى عمليه واحدة .

والأمر الذى ينبغى أن نشير إليه أخيرا فيما يتعلق بالدور الذى تقوم به العقول الإلكترونية فى العصر الحاضر ، هو أن هذه العقول إذا كانت هى ذاتها نتاجا لتفكير وتطبيق علمى رفيع ، فإنها من جانبها تعمل على زيادة ارتفاع مستويات التفكير العلمى فى البلاد التى تستخدمها على نطاق واسع . ذلك لأنها ، إذا كانت تعفى العالم كما قلنا من عمليات شاقة تتعلق بجمع المواد العلمية لأبحاثه وتعريفه بجهود الآخرين ، وإذا كانت تقوم بدلا منه بالربط بين العوامل التى تزداد تعددا وتعقيدا كلما ارتقى البحث العلمى ، فإنها تتيح للعالم بذلك أن يتوغل فى أبحاثه إلى مستويات أعمق ، وتمكنه من أن يستكشف ابعادا للطبيعة كان من المستحيل أن يصل

إليها في المرحلة التي كان يكتفي فيها باستخدام تفكيره العقلي الخاص . ومن هنا فإن التفكير العلمي ذاته يزداد دقة وتعمقا ، وتظل الحركة المتبادلة مستمرة بين العقل البشري والعقل الإلكتروني : فالعقل البشري اخترع العقل الالكتروني نتيجة لبلوغه مستوى عاليا من التقدم ، والعقل الإلكتروني يعود فيساعد العقل البشرى على إحراز المزيد من التقدم ، وهذا التقدم الجديد يؤدى إلى تطوير العقول الالكترونية بحيث تؤدى وظائف أوسع وأعقد ، وهذه العقول الإلكترونية المطورة ترتفع بعقول العلماء إلى مستويات جديدة ، وهكذا تستمر الحركة الحلزونية في صعودها ، فاتحة بذلك آفاقا لم تكن البشرية تحلم بها في وقت من الأوقات ، ومن هنا فقد أصبح عدد العقول الإلكترونية المستخدمة في بلد ما ، مؤشرا هاما ، لا لتقدمه الصناعي والتكنولوجي فحسب ، بل لتقدمه النظري أيضا ، وارتفاع مستوى التفكير العلمي بين باحثيه .

ونستطيع أن نستطرد قليلا في وظيفة « الذاكرة الصناعية » التي تقوم بها العقول الإلكترونية ، لأن لهذا الموضوع أهمية خاصة في عالمنا العربي على وجه التحديد . فالعقل البشرى لا يستخدم قدراته على الوجه الأكمل ، إذا ما نظرنا إليه في ضوء أساليب البحث التقليدية التي لا تزال سائدة في بلادنا . وحسبنا أن نتأمل طريقة عمل أي باحث لندرك أن الجزء الأكبر من وقته وجهده يضيع في أعمال روتينية مملة ، ليس فيها خلق أو إبداع ، كالبحث عن المادة العلمية اللازمة وسط ركام المؤلفات الهائل ، وجمع قوائم المراجع ، وترتيب المادة المعطاة ، وكتابة الملخصات وعمل الحسابات ، واستذكار قدر كبير من المعلومات واستيعابها . وهذه كلها أعمال لا تحتاج إلى إبداع أو ابتكار ، ويمكن القول إن تبديد طاقة العقل فيها هو أشبه بما كان يفعله الإنسان في العصور السابقة ، حين كان يبدد الجزء الأكبر من

طاقته الجسمية فى العمل اليدوى قبل اختراع الآلات ، كما أنه أشبه بالطاقة التى يبددها العدد الأكبر من النساء ، حتى فى وقتنا الراهن ، فى القيام بالأعمال المنزلية المملة المتكررة .. وكما أن الإنسان الذى كان يستخدم طاقة جسمه فى العمل اليدوى لم يكن يتبقى له فضل من الطاقة يستخدمه فى أى غرض أهم ، وكما أن المرأة التى تقضى معظم ساعات يومها فى أداء الأعمال المنزلية الروتينية لا تستطيع أن تبدى اهتماما بأية قضية فكرية جادة ، أو أن تتذوق الفن الرفيع أو أن تمارس عملا عقليا يحتاج إلى تعمق ـ كذلك يؤدى انشغال عقل العالم بالأعمال الآلية إلى تبديد قدر كبير من طاقته الذهنية التى يحتاج إليها من أجل كشف فكرة جديدة أو ابتكار تطبيق غير معروف .

وهذا بعينه هو ما تفعله العقول الإلكترونية ، إذ تنقل العقل البشرى من مرحلة استخدامه « البدائى » فى الأعمال الروتينية إلى مرحلة الانتفاع بقدراته إلى أقصى حد فى الخلق والإبداع . وحين تفعل العقول الإلكترونية هذا فهى إنما تؤكد مرة أخرى ذلك التضاد ، الذى لم نعترف به فى بلادنا للأسف الشديد ، بين ملكة الذاكرة وملكة الإبداع الذهنى .

فما زال عدد قليل من علمائنا يتصور أن العلم هو الاستيعاب ، وما زال منهم من يتفاخر فى مجالسه باتساع معلوماته ، وتشعب معارفه ، ويستعرض على الملأ قوة ذاكرته فيبهر الحاضرين بتلك الكمية الهائلة من المعلومات التى يضمها ذهنه ، ويثبت لهم أنه « موسوعة متحركة » قادرة على استعادة واستظهار قدر غير عادى من الحوادث والوقائع . ولكن هذا كله لا يعدو أن يكون عملية استعراضية جوفاء ، بل إن ملء الذهن بالمعلومات المكدسة كثيرا ما يكون على حساب قدرة هذا الذهن على الإبداع ـ وكأن التكدس والحشو الذى امتلأ به الذهن يمنعه من الحركة الطليقة ،

ويخلق لديه نزوعا إلى ترديد ما سبق له أن قرأه أو سمعه ، وهو نزوع مضاد لكل إبداع . فالذهن المزدحم بالمعلومات ، المنشغل دائما بما يأتيه من المصادر الأخرى ، لا تعود لديه قدرة أو طاقة على كشف الجديد ، بل يجد متعته الكبرى فى « إفراغ » محتوياته أمام الناس فى كل مناسبة ، وهو عمل قد يبهر البعض ، ولكنه لا يدل على أصالة أو ابتكار . وهكذا يبدو أن هناك تناسبا عكسيا بين استخدام المرء لذاكرته واستخدامه لملكاته الخلاقة . وهذا التناسب العكسى يسير ، فى عصر العقول الالكترونية التى تتولى عن الإنسان أعمال الذاكرة الآلية ، فى صالح ملكات الإبداع بغير حدود .

ومن المستحيل أن نصحح هذا الوضع فى بلادنا إلا إذا بدأنا منذ البداية ، أعنى أن نعيد بناء نظمنا التعليمية ، التى تعتمد الآن اعتمادا يكاد يكون تاما على تنمية الحفظ واستيعاب المعلومات . فنحن لا نحتاج إلى هذه الملكة ، فى عصر العقول الالكترونية ، إلا احتياجا ضئيلا . وأهداف نظمنا التربوية يجب أن تتحول تحولا جذريا ، من تعهد ملكة الذاكرة وتنميتها وحشوها بالمعارف ، إلى رعاية الملكات الابتكارية والإبداعية والقدرة على مواجهة المواقف الجديدة غير المتوقعة بذكاء وحسن تصرف . وهذا تحول سيكون علينا أن نواجهه ، عاجلا أو آجلا ، مادمنا نعيش فى عصر العقول الإلكترونية .

أما الإنجاز الثالث الذى نود أن نقول كلمة موجزة عنه ، فى هذا الحديث عن إنجازات العلم المعاصر ، فهو غزو الفضاء . ومن المؤكد أن هذا الإنجاز كان ولا يزال ، وثيق الارتباط بالإنجازين السابقين : إذ أن العقول الإلكترونية قد لعبت دورا عظيم الأهمية فى صناعة الصواريخ الفضائية وحساب مساراتها وتوجيهها . أما الطاقة الذرية واستخدامها فى ميدان

التسلح ، فكانت بدورها من العوامل الفعالة المؤدية إلى إعطاء قوة دافعة لبرامج غزو الفضاء ، إذ أن من الأهداف الرئيسية لظهور هذه البرامج وتطويرها ، فى فترة الحرب الباردة ، أن تكون المركبات الفضائية أدوات لحمل الأسلحة الذرية إلى قلب البلاد المعادية .

ولكن ، لنعد فى قصة الفضاء إلى الوراء قليلا . فمن المعروف أن الألمان منذ فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية ، كانوا يسيرون بخطى واسعة فى الأبحاث المتعلقة بتكنولوجيا الدفع الصاروخى ، وأنهم وجهوا هذه الأبحاث فى اتجاهات عسكرية أساسا ، وتمكنوا خلال الحرب ذاتها من استخدام صاروخ V2 (ف ٢) وكان المشرف على هذه الأبحاث هو عالم الصواريخ المشهور « فون براون W. Braun » الذى أصبح له بعد ذلك شأن هام فى برنامج الفضاء الامريكى .

ومن المؤسف أن البداية الحقيقية لهذا الإنجاز التكنولوجى الهام كانت بداية حربية ، كما أن أهم تطوراته اللاحقة كانت متعلقة بالأغراض العسكرية . فقد أدرك الاتحاد السوفيتى أهمية هذا الكشف الجديد ، وسار فى أبحاثه بطريقة مستقلة ، وكانت لديه دوافع قوية للإسراع فى هذه الأبحاث : إذ كانت الاستراتيجية الأمريكية فى فترة الحرب الباردة ، تعتمد على تطويق الاتحاد السوفيتى بسلسلة من القواعد العسكرية القريبة من حدوده ، والتى تجعل الأراضى السوفيتية كلها فى متناول الطائرات ، بينما الأرض الأمريكية بعيدة تماما عن كل أسلحته المعروفة حتى ذلك الحين . ومن هنا فقد كان من أهم أهداف برنامج الصورايخ السوفيتية ، التخلص من عملية التطويق هذه ، والاهتداء إلى وسيلة توصل التهديد أو الرد على التهديد ، إلى قلب الأراضى الأمريكية ، من وراء ظهر القواعد التى تطوقه.

وهكذا كان الاتحاد السوفيتى هو الذى افتتح عصر السفن الفضائية

التى تطلقها صواريخ قوية من قواعد أرضية ، لتدور حول الأرض بسرعة لم تألفها البشرية من قبل ، أو لتستكشف الفضاء البعيد عن الأرض بفضل السرعة التى تتيح لها الافلات من الجاذبية الأرضية . ولقد كان إطلاق القمر الصناعي السوفيتي الأول ، « سبوتنيك ١ » فى ٤ أكتوبر ١٩٥٧ جزءا من برنامج علمى دولى كانت بلاد كثيرة تعد أنفسها للأسهام فيه منذ وقت طويل ، هو برنامج « السنة الجيوفيزيقية الدولية » التى اختير لها عام ١٩٥٧ . وكان إطلاق القمر الصناعى هذا بالفعل أبرز أحداث هذا البرنامج العلمى . ولكن المغزى العسكرى لهذا الحدث الهام لم يغب عن أحد ، إذ كان معناه أن قوة دفع هائلة جديدة قد اكتشفت ، وإن فى استطاعة الصاروخ الذى يدفع القمر الصناعى فى مدار حول الأرض ، أن يحمل سلاحا نوويا ويعبر به القارات ليصيب أى مكان على سطح الأرض ، مما كان يعنى ضرورة ادخال تغيير حاسم على استراتيجية الدول الكبرى .

ولقد كانت الولايات المتحدة هى ثانية الدول فى ترتيب الدخول فى عصر الصواريخ . وكان للعلماء النازيين ، الذين آثروا أن يستأنفوا نشاطهم فى الولايات المتحدة ، ومنهم فون براون نفسه ، دور عظيم الأهمية فى تعويض التخلف الذى كان يبدو فى أول سنوات عصر الفضاء ، أن الولايات المتحدة تعانى منه . وسرعان ما وُضع ، منذ عهد الرئيس كيندى ، برنامج طموح هدفه انزال أول إنسان على القمر فى عام ١٩٦٩ ، وبالفعل نفذ هذا البرنامج بدقة ، وأسفر عن هذا الإنجاز الرائع الذى يراه البعض أعظم الإنجازات العلمية فى القرن العشرين ، وهو سير رائد الفضاء الامريكى « نيل أرمسترونج » على القمر فى نفس الموعد المحدد فى ذلك البرنامج .

وخلال ذلك كله كانت أهداف برامج الفضاء تتفاوت بين الأغراض العلمية ، كاستكشاف الموارد الأرضية أو التنبؤ بالأحوال الجوية ، والأغراض

الإعلامية كأقمار الاتصالات التليفزيونية ، والأغراض العسكرية ، كأقمار التجسس . ولكن الأمر المؤكد هو أن نقطة البداية فى برامج الدولتين الكبيرتين كانت عسكرية ، وإن كانت الأهداف العلمية قد أخذت تكتسب أهمية متزايدة . بل لقد بدا فى وقت من الأوقات أن هناك اندماجا بين هذه الأهداف كلها ، إذ أن العودة بعينات من صخور القمر ، أو إجراء تجارب على سطح المريخ ، هى حقا أغراض علمية فى المحل الأول ، ولكنها تعطى الدولة التى تحققها مكانة رهيبة ، وتنبئ بارتفاع مستواها التكنولوجى إلى الحد الذى يخدم أغراضها الاستراتيجية خدمة كبرى .

ومع ذلك فالأمر المؤكد هو أن هذا الإنجاز التكنولوجى العظيم ، الذى بدأ مستهدفا أغراضا عسكرية فى المحل الأول ، ستكون له فى المستقبل نتائج علمية بالغة الأهمية ، بل إن البعض يربط بين مستقبل البشرية وبين غزو الفضاء ، إذ أن أرضنا هذه بدأت تضيق بمن عليها ، وقد لا يكون من محض المصادفات أن يبدأ عصر الفضاء فى نفس الوقت الذى أخذت البشرية تحس فيه بالخطر من نفاد موارد الأرض ، وباقتراب الوقت الذى يتعين فيه على الإنسان أن يتخذ قرارات حاسمة بشأن التزايد السكانى المخيف . فمن الجائز أن يكون غزو الفضاء هو الحل الأمثل لهذه المشكلات ، ومن الجائز أن يكون التوقيت هنا مثلا آخر من أمثلة تلك القدرة العجيبة التى يستطيع بها العقل الإنسانى أن يهتدى إلى حل لمشكلاته فى اللحظة المناسبة .

وعلى أيه حال فإن من يعتقد أن فى هذا اسرافا فى الخيال ، عليه أن يتذكر أننا مازلنا فى المراحل الأولى لعصر استكشاف الفضاء ، فعمر هذا العصر ، بكل إنجازاته ، لم يصل ــ حتى كتابة هذه السطور ــ إلى عشرين عاما بعد . والفترة التى انقضت منذ « سبوتنيك » السوفيتى الذى لم يكن وزنه يزيد عن ثلاثين رطلا حتى إرسال رجلين إلى القمر ومعهما ثالث فى

السفينة الأم ، التى تزن عدة أطنان ، لم تزد عن اثنى عشر عاما . فإذا كان هذا التطور الهائل قد تحقق فى تلك الفترة الوجيزة ، فهل يستطيع أحد أن يتخيل ما يمكن أن يتم إنجازه بعد مائة عام ، أو بعد خمسمائة عام ، مع ملاحظة الزيادة المطردة في معدل التقدم ؟ وهل يكون من الخيال المسرف أن نتخيل مستعمرات بشرية فى كواكب بعيدة ، وسفن فضاء تستكشف أبعد اطراف المجموعة الشمسية ، ومحاولات للخروج من هذه المجموعة إلى النجوم البعيدة ، بل محاولات للخروج من « المجرة » التى ننتمى إليها إلى مجرات أخرى ؟

وبطبيعة الحال فإن المسافات الهائلة التى ينبغى عبورها فى هذه المحاولات تكاد تجعل من المستحيل علينا ، فى ضوء معرفتنا الحالية ، أن نتصور كيف يستطيع الإنسان أن يقضى مئات السنين فى سفينة فضائية تسير به نحو نجم يبعد عنا مسافة تقدر بالسنين الضوئية . ولكن من المؤكد أن سرعات السفن الفضائية ستزداد دواما . بل إن البعض لا يستبعد مجىء يوم تقترب فيه هذه السفن من سرعة الضوء . وحتى لو تحقق هذا فستظل هناك مشكلات لاحصر لها ، متعلقة بكميات الغذاء والهواء اللازمة لهذه الرحلات التى تدوم قرونا ، ومتعلقة بعمر الإنسان الذى لا يتجاوز حتى الآن القرن الواحد على أحسن الفروض .

ولكن لنذكر مرة أخرى ما حققه عصر الفضاء خلال عشرين عاما فقط ، ولنتصور أن البشرية لن تحاول الانتحار عن طريق حرب عالمية ثالثة ، وإنها ستظل تتقدم بمعدل يزداد سرعة باطراد طوال قرن آخر ، أو عدة قرون أخرى ، فهل ستكون هذه الاحلام عندئذ بعيدة عن التحقيق ؟ إن الكلام عن الصعود إلى القمر كان يعد ، منذ ربع قرن فقط ، ضربا من الجنون ، أو من الخيال الشعرى (والأمران كما نعلم متقاربان) فهل نستكثر على إنسان

القرن الحادى والعشرين أو الثانى والعشرين أن يصل إلى آفاق الكون البعيدة ؟

فى هذا العرض العاجل اخترنا ثلاثة أمثلة لإنجازات العلم المعاصر ، هى الطاقة النووية والعقول الإلكترونية ، وغزو الفضاء . ومن المستحيل أن يقتصر المرء على أمثلة كهذه إذا شاء أن يقدم صورة شاملة لما حققه العلم فى العصر الحاضر ، بحيث أن أى اختيار لابد أن يغفل إنجازات عظيمة الأهمية . ولكن الواقع أننا لم نختر هذه الأمثلة إلا لأنها هى الأشهر على مستوى المعلومات العامة ، وكم من كشوف أخرى صامتة ، أو لا تحيط بها ضجة كبيرة ، كان لها فى حياة الإنسان تأثير لا يقل عن تأثير النماذج السابقة .

وعلى أيه حال فإن هذه الأمثلة تكفى للكشف عن الطبيعة الثورية للعلم المعاصر الذى أحدث تحولا حقيقيا فى حياة البشر ، وأصبح هو الحقيقة الأساسية فى العالم الذى نعيش فيه . وحسبنا أن نقارن بين أسلوب الحياة فى مثل هذه الأيام منذ مائة عام ، وبين أسلوبٌ حياتنا الحالى ، لكى نقتنع بأننا لن نفهم عالمنا هذا إلا فى ضوء التقدم العلمى الذى نعيش فيه ونتمتع بإنجازاته دون أن نشعر . ذلك لأن العلم ، الذى لم يعد ظاهرة هامشية على الاطلاق ، يكتسب ابعادا اجتماعية تزداد أهميتها يوما بعد يوم . وفى كل لحظة يزداد الإنسان اقتناعا بأن مصيره ، سواء أكان يسير نحو الأفضل أو نحو الأسوأ ، مرتبط بالعلم ، فما هى هذه الأبعاد الاجتماعية ، وما تأثيرها الفعلى والممكن على الإنسان ؟

الفصل السادس

الأبعاد الاجتماعية للعلم المعاصر

العلم والمجتمع :

ليس العلم ظاهرة منعزلة ، تنمو بقدرتها الذاتية وتسير بقوة دفعها الخاصة وتخضع لمنطقها الداخلي البحت ، بل إن تفاعل العلم مع المجتمع حقيقة لا ينكرها أحد . فحتى أشد مؤرخي العلم ميلا إلى التفسير « الفردي » لتطور العلم ، لا يستطيعون أن ينكروا وجود تأثير متبادل بين العلم وبين أوضاع المجتمع الذى يظهر فيه ، حتى ليكاد يصح القول بأن كل مجتمع ينال من العلم بقدر ما يريد . ولا شك أن العرض الموجز الذي قدمناه من قبل للمراحل الرئيسية لتطور العلم ، وللنمو التدريجي لمعناه ومفهومه ، يتضمن أدلة وشواهد متعددة على الارتباط الوثيق بين حالة العلم فى أى عصر وبين أهم العناصر في الحياة الاجتماعية لذلك العصر ، بحيث يكّون العلم جزءا من كل ، ويكون وجها واحدا لحياة متكاملة يحياها المجتمع .

فالتاريخ يقدم أمثلة كثيرة تثبت أن المجتمع حدد ــ بقدر معقول من الدقة ــ نوع العلم الذى يحتاج إليه . وهذا لا يتنافى على الإطلاق مع تأكيد أهمية العبقرية الفردية للعالم ، ودوره الأساسى فى الكشف العلمى . فلا أحد يزعم أن العالم مجرد « أداة » يستعين بها المجتمع لتلبية حاجاته ، أو أن الكشوف العلمية يمكن أن تتم على أيدى أناس لم تتوافر لهم عبقرية كبيرة ، ومادامت تظهر فى المجتمع المناسب وفى الوقت المناسب . بل إن هذه أحكام باطلة ، تبخس العالم الكبير حقه ، وتصوره كما لو كان وسيلة في

أيدى قوة غيبية تتحكم فيه تحكما تاما ـ حتى لو كان المرء يطلق على هذه القوة الغيبية اسما يبدو فى ظاهره علميا ، هو « حاجة المجتمع » .

وحقيقة الأمر هى أن الكشف العلمى يحتاج إلى تضافر العاملين معا : حاجة اجتماعية ، وعبقرية ذهنية . وكل ما فى الأمر أنه عندما تتوافر الحاجة الاجتماعية لا يكون من الصعب ظهور العبقرية الذهنية . ذلك لأن أفراد البشرية ، الذين يعدون بالملايين ، لا يخلون فى كل عصر من عباقرة ، ولكن المهم أن يأتى العبقرى فى وقته ، وأن يلبى حاجات عصره . ومن المؤكد أن هناك حالات ظهر فيها عباقرة فى غير أوانهم ، أعنى فى وقت لم يكن المجتمع فيه مهيأ لقبول كشوفهم ، فكانت النتيجة أن لمعت عبقريتهم فجأة ثم انطفأت فجأة كالشهاب البارق ، دون أن يتركوا وراءهم تأثيرا باقيا : وهذه ظاهرة ضربنا لها من قبل مثلا واضحا : هو تلك الآلات التى اخترعها العالم اليونانى المشهور « أرشميدس » ولكنه خجل من إظهارها على الملأ ، ونظر إليها كما لو كانت « لعبا » للتسلية . ولو كان هذا العبقرى يعيش فى عصرنا الحديث لأدرك على التو أهمية هذا التنظيم الميكانيكى لعناصر الطبيعة فى ميدان التطبيق العلمى ، ولتوصل إلى ضرورة استخدام مبدأ الآلية من أجل توفير جهد الإنسان ووقته . ولكنه كان يعيش فى عصر توجد فيه « آلات آدمية » ـ هم العبيد ـ فما الداعى إلى التفكير فى آلات طبيعية مادية ؟

وفى الميدان النظرى البحت ، نستطيع أن نضرب مثلا آخر ينتمى إلى صميم عالمنا العربى ، وهو حالة ابن خلدون . فهذا العالم العبقرى قد توصل ، فى « مقدمته » المشهورة ، إلى المقومات الرئيسية للدراسة العلمية للمجتمع البشرى ، أى لعلم الاجتماع (الذى أسماه « علم العمران ») . وكثير من آرائه قد ترددت فيما بعد ، بطريقة تكاد تتشابه حتى فى

التفاصيل ، عند أولئك الذين اعتبرهم الأوربيون روادا لعلم الاجتماع . ولكن الكشف الرائع الذي توصل إليه ابن خلدون لم يجد مجتمعا يستجيب له : فلم يظهر في مجتمعه من ينبه إلى أهميته ، ولم يتابع آراءه وتعاليمه تلاميذ يكملون رسالته ، ولم تستمر حركة العلم الجديد الذي توصل إليه في مسيرتها ، بل توقف كل شيء ، وظهرت عبقريته كما لو كانت شعلة ساطعة انطفأت بسرعة ، ولم يتنبه إليه الناس إلا عند « إعادة اكتشافه » بعد عصره بقرون عديدة . كل ذلك لأن الفترة التي ظهر فيها ابن خلدون ، والتي أعقبت ظهوره ، كانت فترة بداية الانهيار في الحضارة الإسلامية ، وبداية عهد الغزوات الأجنبية وما ترتب عليها من انحلال داخلي فيها .

وما هذه إلا أمثلة نود أن نثبت بها أن الكشوف العلمية المستقرة في أي عصر هي حصيلة التفاعل بين عاملين : بيئة اجتماعية مهيأة لها ، وعبقرية فردية تظهر في الوقت المناسب . والفارق الوحيد في تأثير هذين العاملين يرجع إلى أن أحدهما جماعي والآخر فردي . فحين تتوافر الحاجة الاجتماعية لا يكون من الصعب على المجتمع أن يفرز ـ من بين الملايين من أفراده ـ العبقرية القادرة على تلبية هذه الحاجة ، أما حين تتوافر العبقرية الفردية وحدها ، دون أن تتهيأ الظروف الاجتماعية المواتية ، فإن التاريخ قد يطويها في زوايا النسيان ، أو قد يقول عنها ـ إذا أراد انصافها ـ إنها عبقرية ظهرت في غير أوانها .

الوضع الاجتماعي للعلم المعاصر :

في ضوء التمهيد السابق ، يستطيع القارىء أن يستنتج أن البحث في الوضع الاجتماعي للعلم المعاصر ينبغي أن يسير في كلا الاتجاهين . فليس يكفي أن نشير إلى أهمية العلم في مجتمعنا الحالي ، وإنما ينبغي أن نؤكد أيضا أهمية هذا المجتمع الحالي بما فيه من سمات مميزة ، في تحديد معالم

العلم المعاصر واعطائه طابعه الذى أصبح مألوفا لدينا .

إن العلم قد اكتسب ، منذ أوائل القرن العشرين ، أهمية تفوق أهمية أى إنجاز طوال تاريخ البشرية . فصحيح أن الإنسانية تفخر ، عن حق ، بفلسفاتها وآدابها وفنونها ، وتعترف بما تدين به لهذه الإنجازات من فضل فى تشكيل عقل الإنسان وروحه ، ولكن المكانة التى اكتسبها العلم فى هذا القرن ، والتأثير الذى استطاع أن يمارسه فى حياة البشر (بغض النظر عن كون هذا التأثير إيجابيا أم سلبيا ، فهذه مسألة سنعرض لها فيما بعد) ، يجعل العلم بغير شك هو الحقيقة الكبرى فى عصرنا الحاضر ، ومن ثم فى كل العصور . ولا يعنى هذا أننا لا نفخر بمذاهبنا الفكرية أو أعمالنا الأدبية والفنية ، ولكنه يعنى أن فخرنا بالعلم أعظم ، وأن التغيير الذى أدخله العلم على حياتنا أقوى من أى تغير لحقها بفضل أى إنجاز آخر .

والأهم من ذلك ، بالنسبة إلى مكانة العلم فى العصر الحاضر ، أن العلم هو الإنجاز الذى يمكننا أن نسميه « مصيريا » بحق فى هذا العصر . فلأول مرة فى تاريخ تجربة الإنسان الطويلة على هذه الأرض ، يدرك أن العلم هو الذى سيحدد مصيره سلبا أو إيجابا : إذ تعيش البشرية فى خوف دائم من أن تدمر حياتها وحضارتها حرب نووية أو بيولوجية تعتمد اعتمادا كليا على العلم . وتعمل الدول لهذه الحقيقة ألف حساب فى استراتيجياتها وسياساتها الأساسية ، وفى طريقة انفاقها لمواردها . ومن جهة أخرى فإن الأمل الأكبر لدى البشرية فى مستقبل أفضل ، وفى حل مشكلاتها الغذائية والصحية المستعصية ، بل فى استمرار قدرتها على البقاء والنماء ، هو الآن معقود على العلم .

وقد انعكس ذلك بوضوح فى اتساع نطاق الاهتمام بالعلم إلى حد هائل . ففى القرن الماضى كان العلم من شأن « المتخصصين » وحدهم ، ولم

تكن مشكلاته تناقش إلا فى المجامع العلمية وفى المؤسسات المتخصصة . أما اليوم فقد أصبح الجميع يتابعون تطور العلم باهتمام ، وأصبحت أخباره تحتل مكان الصدارة فى وسائل الإعلام الجماهيرى . فكيف نعلل هذه الظاهرة التى تبدو فيها مفارقة صارخة : أعنى الإتساع الهائل فى نطاق الاهتمام بالعلم ، فى نفس الوقت الذى أصبح فيه العلم يزداد غموضا وتعقيدا على الدوام ، وابتعدت فيه لغته الرمزية المتخصصة عن أفهام العقول العادية ابتعادا تاما ؟ لا شك أن التعليل الوحيد لذلك هو الطابع المصيرى للعلم المعاصر : فمهما كانت صعوبة هذا العلم ، فإننا جميعا نتسا ءل : هل يمكن تجنب كارثة حرب عالمية ثالثة ؟ ونحن نعلم أن هذا السؤال المصيرى ، الذى يرتبط ارتباطا وثيقا بمستقبل كل منا ، وبمستقبل أجيالنا الجديدة ، يعتمد على مجموعة من العوامل ، ومن أهمها العلم . كذلك نعلم أن مشكلات الحياة اليومية وهمومها ، أعنى مشكلات كالغذاء والإسكان والمواصلات والطاقة والبيئة ، سيتوقف حلها إلى حد بعيد على الطريقة التى يوجه بها الإنسان أبحاثه العلمية فى المرحلة المقبلة .

فلنتأمل إذن بعضا من هذه المشكلات ، حتى تتكون لدينا صورة متكاملة عن ذلك الوضع الفريد للعلم فى مجتمعنا المعاصر :

مشكلة الغذاء والسكان :

ليس المرء فى حاجة إلى أرقام أو جداول إحصائية لكى يقرر أن العالم يعانى ، منذ الآن ، من أزمة مستحكمة فى الغذاء . ففى العالم أغلبية من السكان لا تحصل من الغذاء على الحد الأدنى اللازم لكى يحيا الإنسان حياة سليمة ، وفيه أقلية متخمة يعانى كثير من أفرادها من العلل والأمراض الناتجة عن الأفراط فى المأكل . وإذا كان النقص فى كمية الطعام التى تحصل عليها الأغلبية الفقيرة خطرا ، فإن النقص فى نوعيته أخطر . فالغذاء

اللازم لبناء الجسم لا يتوافر إلا بنسب ضئيلة لدى شعوب كاملة ، وهو يهدد الأجيال الجديدة فى مناطق شاسعة من الأرض بنمو جسمىٰ وعقلى غير مكتمل .

ومن المؤكد أن هناك ارتباطا وثيقا بين مشكلتىٰ الغذاء والسكان : فالازدياد الرهيب فى عدد السكان يؤدى إلى تضاعف الطلب على الغذاء ، على حين أن موارد العالم من الغذاء محدودة . وبطبيعة الحال فإن أحدا لا يردد اليوم آراء « مالثوس » الذى دق ناقوس الخطر فى القرن التاسع عشر ، مؤكدا أن العالم مهدد بمجاعة لأن السكان يتضاعفون بسرعة تفوق بكثير سرعة زيادة الموارد الغذائية . ففى الوقت الذى ردد فيه « مالثوس » هذا الكلام ، كان سكان العالم مازالوا قليلين ، وكانت هناك موارد هائلة لم تُستغل بعد فى العالم ، ولم يكن هناك بالفعل ما يبرر تشاؤمه المفرط . ولكن نذر الخطر أصبحت أوضح فى عصرنا الحاضر ، الذى تضاعف فيه عدد سكان العالم أكثر من مرة بالنسبة إلى القرن الماضى . والأخطر من ذلك أن الفترة التى يتضاعف فيها هذا العدد تقل باستمرار : ففى نهاية هذا القرن يتوقع العلماء أن تحمل هذه الأرض ضعف عدد من يعيشون فيها اليوم . وبعد عشرين عاما من القرن الجديد سيتضاعف العدد مرة أخرى . فهل ستكفى موارد الأرض من الغذاء لاعاشة هذه الأعداد المهولة ؟

ولعل مما يزيد من قوة الارتباط بين مشكلة الغذاء ومشكلة السكان ، أن البلاد التى تعانى من نقص واضح فى التغذية ، هى تلك التى يزداد عدد سكانها بمعدلات سريعة ، على حين أن البلاد التى تتمتع بمستوى جيد فى الغذاء هى عادة بلاد تقل نسبة الزيادة فى سكانها ، وربما استقر عدد سكانها عند مستوى معين منذ مدة طويلة . فالازدحام السكانى ، وارتفاع نسبة المواليد ، مرتبط ارتباطا وثيقا بسوء التغذية .

ولكن ، هل يعنى ذلك أن البشرية ستقف عاجزة عن إيجاد حل ، وستنتظر المجاعة المحتومة دون أن تحرك ساكنا ؟ وهل المخرج الوحيد من هذه الأزمة المرتقبة ، والتى ظهرت بوادرها بوضوح منذ الآن ، هو أن تتوقف الزيادة فى سكان العالم ، وخاصة فى البلاد الفقيرة ؟ لا شك أن هذا الحل لا يتناول إلا جانبا واحدا من جوانب الموضوع ، وهو يفترض أن عددا كبيرا من الأوضاع الجائرة فى العالم لن يطرأ عليه أى تغيير ، ولا يمكن المساس به ، ومن ثم يلجأ إلى تغيير وضع واحد فقط ، هو عدد السكان .

ومن سمات هذا الحل أنه يلقى اللوم كله على البلاد التى تعانى من أزمة الطعام ، فهو يبرىء جميع المذنبين ، ويرمى بكل ثقل الإدانة على الضحية . إن معناه ببساطة ، هو أن هذه البلاد مسئولة عن المجاعة التى تعانى منها ، لأن فيها من السكان عددا زائدا ، وأنها هى أيضا المسئولة عن الحل ، وذلك بأن تخفض عدد هؤلاء السكان إلى الحد الذى تصبح فيه مواردها كافية لأطعامهم .

على أن هذا الحل يغفل عددا هائلا من العناصر الأخرى التى تنتمى إلى صميم هذا الموضوع ، والتى يرجع الكثير منها إلى عوامل خارجة تماما عن إرادة البلاد الفقيرة . فهو يتجاهل ، مثلا ، أن هناك بالفعل بلادا غنية ، كالولايات المتحدة ، تدفع للمزارعين إعانات طائلة من ميزانيتها السنوية كيلا يزرعوا حقولهم ، لأن زراعة هذه الحقول وإنتاج كميات وفيرة من المحاصيل يؤدى إلى انخفاض السعر العالمى لهذا المحصول ، ولذلك ينبغى أن يظل إنتاجه فى حدود معينة لا يتعداها ، بغض النظر عن وجود أناس جائعين فى مناطق أخرى من العالم . وهو يغفل أن زيادة السكان ترتبط بعوامل من بينها الأمية والتخلف الاقتصادى والاجتماعى ، وأن هذه العوامل ترجع أساسا إلى خضوع كثير من البلاد الفقيرة لدول استعمارية

كانت حريصة على استمرار تخلفها حتى تضمن استسلامها لها ، وأن ذيول هذه السياسة ظلت باقية حتى بعد تخلص هذه الدول من قبضة الاستعمار المباشر .

ولكن قد يكون الأهم من ذلك ، من وجهة النظر التى نركز عليها فى هذا الكتاب ، هو أن هذا الحل الذى يحصر المشكلة فى حدود العلاقة بين الموارد الغذائية وعدد السكان ، يتجاهل الإمكانات الهائلة للعلم فى إيجاد حلول أفضل لهذه المشكلة المعقدة . فلدى العلم ، فى هذا المجال ، قدرات هائلة لم يُستغل معظمها بعد : كالبحث فى وسائل استزراع المناطق الصحراوية الشاسعة ، واسقاط المطر الصناعى ، واستخلاص المواد ذات القيمة الغذائية العالية من طحالب البحار والمحيطات ، وهى مورد لا ينفد ، وتحويل مخلّفات بعض الصناعات إلى مواد غذائية ، فضلا عن أن الأرض الصالحة للزراعة فى العالم أوسع بكثير من الأراضى المزروعة بالفعل ، كما أن إمكانات مضاعفة غلة الأراضى الزراعية بأساليب علمية حديثة قائمة على الدوام .

وبعبارة أخرى ، فإن العلم لم يقل بعد كلمته النهائية فى هذه المشكلة ، ولم يعلن يأسه من حل مشكلة الغذاء بأساليبه الخاصة حتى نفكر نحن فى حلها عن طريق الأقلال من عدد السكان . وكل ما فى الأمر أن العلم يقف ، فى أغلب الاحيان ، مكتوف الأيدى لأن طاقاته وموارده موجهة نحو تحقيق أهداف أخرى بعيدة كل البعد عن هذا الهدف الإنسانى . ففى ظل مناخ عالمى يسوده العداء المتبادل بين الدول ، وتكتسب فيه كل دولة نفوذها عن طريق القوة الغاشمة ، لا يمكن أن تتهيأ الظروف التى تجعل المجتمعات تخصص طاقاتها العلمية من أجل البحث عن موارد غذائية جديدة للملايين الجائعة . بل إن الغذاء نفسه يتحول إلى سلاح فى هذا الجو الذى يسود

العلاقات الدولية فى أيامنا هذه ، وقد يكون أحيانا معادلا فى تأثيره لأشد الأسلحة فتكا . فمن المرغوب فيه ، بالنسبة إلى بعض الدول القوية ، أن يظل هذا التفاوت بين الجوع والشبع ، وبين الندرة والوفرة فى الغذاء قائما ، لأنه يتيح للدول التى تملك من الغذاء وما يفيض عن حاجتها أن تضغط بسلاح التجويع على الدول التى لا تملك من الغذاء إلا القليل ، حتى تضمن خضوعها وتأمن من تمردها . وفى مثل هذا الجو لا يكون هناك أصلا استعداد لحشد الطاقات العلمية فى حملة مركزة تستهدف القضاء على الجوع ، من نوع تلك الحملة التى أدت فى سنوات قلائل إلى صعود إنسان إلى سطح القمر ؟

وعلى ذلك ، فليس فى وسع أحد أن يجزم بأن مشكلة الغذاء ترتبط بمشكلة السكان وحدها ، وأن كمية الغذاء وعدد السكان يتناسبان عكسيا ، أو يمثلان كفتى ميزان لا يمكن أن ترجح إحداهما إلا إذا خفت الأخرى . فواقع الأمر هو أن هذا لا يمثل إلا جانبا واحدا من جوانب المشكلة ، وإن للمشكلة جوانب أخرى كثيرة ، من أهمها نوع العلاقات السائدة بين الدول ، وطريقة توجيه الموارد العلمية وإمكان أو عدم إمكان إيجاد أسلوب إنسانى فى التعامل بين الجماعات البشرية .

ومع كل هذا ، فأننى لست من المؤمنين بسياسة ترك التزايد السكانى يتضاعف دون ضوابط . وإذا كنت فيما سبق قد حرصت على تأكيد وجود عوامل أخرى تؤثر فى أزمة الغذاء ، إلى جانب عامل السكان ، وأن من الخطأ الفادح أن نتصور وجود علاقة ثنائية لا تشترك فيها أية أطراف أخرى ، بين كمية الغذاء وعدد السكان — إذا كنت قد حرصت على هذا التأكيد ، فإن حرصى هذا لا ينفى إيمانى بأن تضاعف أعداد السكان دون ضوابط ، وخاصة فى البلاد الفقيرة والمتخلفة ، هو أمر ينبغى تلافيه .

ولهذا الرأى أسباب ومبررات متعددة ، قد لا يكون بعضها متصلا بمشكلة الغذاء على الإطلاق . فمن الواجب الحد من التزايد السريع للسكان فى هذه البلاد ، لأسباب تتعلق أساسا بمستوى الخدمات الصحية والتعليمية والاجتماعية التى يمكن أن تقدم إلى الأجيال الجديدة فى المجتمعات النامية . وربما كان الأهم ، حتى من هذا كله ، الأسباب النفسية والتربوية العائلية : فمن الصعب على الأسرة التى تعيش فى الربع الأخير من القرن العشرين أن تبدى عناية كافية بعدد كبير من الأبناء ، وأن توجههم نفسيا وتؤهلهم لحياة ناجحة فى المستقبل ـ وبطبيعة الحال فإن هذه الصعوبة تتضاعف إذا كان المستوى الاقتصادى لهذه الأسرة هابطا . ولكننى أعتقد أنه حتى فى المستويات الاقتصادية المرتفعة يندر أن يجد أبناء الأسر كبيرة العدد نفس الرعاية النفسية والاهتمام الشخصى والإرشاد التربوى الذى يجده أبناء الأسر ذات الأعداد القليلة .

والمسألة كلها هى أن كثرة الأبناء ليست أمرا محتوما ، بل إن الإنجاب أصبح فى ظل العلم الحديث أمرا يمكن التحكم فيه دون عناء . ومن هنا لم يكن هناك مبرر على الإطلاق لكى نترك الحبل على الغارب فى مسائل الإنجاب ، وكأن هذا شىء يستحيل التدخل فيه ، ثم نجهد أنفسنا بعد ذلك فى محاولة الحد من الأضرار المترتبة على تزايد النسل الذى كان يمكن ضبطه بجهود أقل بكثير من تلك التى نبذلها من أجل تلافى نتائجه .

ولقد لاحظت فى جميع المناقشات التى تدور ، سواء فى بلادنا العربية وفى خارجها ، أن كل من يناقش هذا الموضوع يسلم تسليما تاما باستحالة فرض قيودا إجبارية على أعداد الأبناء ، حتى لو كان ممن يؤمنون إيمانا قاطعا بأن زيادة السكان هى وحدها سبب نقص التغذية وسوء الخدمات وهبوط مستوى المعيشية فى البلاد المتخلفة . والحجج التى تقال فى هذا

الصدد هى أن هناك أسبابا نفسية أو اجتماعية ــ وربما دينية فى بعض المجتمعات ــ عميقة الجذور ، تمنع من إجبار الناس ، بقوة القانون مثلا ، على التوقف فى النسل عند حدود معينة . وأنا أسلم بأن الوضع الحالى هو كذلك بالفعل ، ولكنى أعتقد أن هذا الوضع يستحيل أن يستمر إلى ما لا نهاية ، وأن المستقبل سيشهد تغييرا جذريا فى موقفنا من هذه المشكلة .

ذلك لأننا لو استقرأنا تاريخ المجتمعات البشرية لوجدنا إن الأنسان ظل يفرض على نفسه مزيدا من القيود لكى ينال مزيدا من الحريات . وهذا تعبير يبدو متناقضا : إذ كيف تُفرض القيود من أجل ضمان الحريات ؟ ولكن من السهل أن يفهم القارىء ما أعنى إذا ما فسره فى ضوء مثال مألوف فى حياتنا اليومية ، وهو إشارات المرور : فنحن نفرض على أنفسنا أن نتقيد بإشارات المرور ، لكى ننال بذلك مزيدا من الحرية فى حركة المرور ، والدليل على ذلك أن تعطل إحدى الإشارات ، الذى يبدو فى الظاهر وكأنه يعطى السائق أو السائر « حرية » السير كما يشاء ، يؤدى فى واقع الأمر إلى إلغاء هذه الحرية بما يسببه من تكدس وفوضى فى المرور . وهكذا الحال فى أمور البشر جميعا : إذ ننتقل من حالة « الحرية » والعشوائية أو المتخبطة التى كانت تسود فى البداية إلى نوع من التنظيم أو التقييد الذى يحقق لنا مزيدا من الحرية .

وخلال تاريخ الإنسان الطويل ، كانت هناك أمور يعتقد أنها ينبغى ألا تُمس ، ومع ذلك فقد تناولها التنظيم والضبط فى الوقت المناسب . فليس فى استطاعة الإنسان ، مثلا ، أن يسير عاريا فى الطريق حتى ولو كان يشعر براحة كبيرة فى هذا العمل ، لأنه يؤذى مشاعر الآخرين بهذا السلوك ، وليس فى استطاعته أن يقول للناس أى شىء يريد قوله ، لأنه قد يحاكم بتهمة القذف العلنى ، وليس فى استطاعته أن يربح إلى غير حد ، لأنه ــ

حتى في الدول الرأسمالية ـ خاضع للضرائب ، وقس على ذلك آلاف الأمثلة التي تثبت أن مفهوم الحرية القديم ، بمعنى الانطلاق بغير قيود ، يخلي مكانه على نحو متزايد لمفهوم آخر هو التنظيم والتقييد الذي يؤدي إلى مزيد من الحرية الحقيقية .

وفي اعتقادي في إنجاب الأطفال سيصبح يوما ما دخلا في نطاق تلك الفئة من الأفعال التي ينبغي أن تخضع للتقييد والتنظيم الذي يستهدف ، في نهاية الأمر ، صالح البشرية كلها ، وصالح الأجيال الجديدة بوجه خاص . وسيأتي اليوم الذي ينظر فيه المجتمع البشري إلى مسألة إنجاب كائن جديد على أنها مسئولية يجب أن تمارس بحساب ، وفي إطار ضوابط وضمانات معينة ، لأنها تلقي عبئا على مجتمع كامل ، ولأن هذا المجتمع سيصبح بالفعل مسئولا عن هذا الكائن الجديد ، لا في طعامه أو كسائه أو مسكنه فقط ، بل في تثقيفه وتعليمه ورعايته ، ومن ثم فلابد أن تكون للمجتمع كلمة تقال في هذا الموضوع . أما العقبات التي يمكن أن تظهر في حالة تطبيق مثل هذا التنظيم ، كاحتمال إنجاب العدد المقرر من جنس واحد فقط ، أو كالإنجاب من عدة زوجات ، أو وفاة الأبناء في كارثة مفاجئة ، إلى آخر هذه الحالات المحتملة ، فما هي في الواقع إلا استثناءات يمكن معالجتها بسهولة في إطار التنظيم الشامل . ولعل القارئ يدهش إذ يجد أنني اتخذت في البداية موقف المهاجم لمن يرون في تحديد النسل الوسيلة الوحيدة لتخفيف أزمة الطعام في العالم الفقير ، ثم اتخذت في النهاية موقف المدافع عن مبدأ تحديد النسل حتى بقوة القانون ، ولكني لا أرى أي تعارض بين هذا وذاك ، إذ أن العالم ، حتى لو وصل إلى مرحلة التنظيم العلمي لعلاقاته الاجتماعية والسياسية بحيث يكرس من موارده ما يكفي لحل مشكلة الطعام عن طريق البحث العلمي المركز ، سيجد أن من مصلحته إيقاف تكاثر

السكان عند حدود معينة ، بل سيأتي وقت يكون لزاما عليه فيه أن يفعل ذلك ، بحيث يلغى هذه « الحرية » المزعومة فى مسألة تمس المجتمع ككل ، ويفرض من الضوابط على النسل ما فرضه من قبل على شتى مظاهر حياة الإنسان . فنحن قد أصبحنا « كائنات اجتماعية » ، منضبطة ، مندرجة فى تنظيمات وخاضعة لقوانين لا حصر لها ، وفى كل يوم يتسع نطاق التنظيم الاجتماعى لأمور كانت من قبل تُترك للسلوك التلقائى العفوى ، فلماذا يشذ إنجاب كائنات جديدة عن هذا الاتجاه العام للسلوك البشرى ، مع أنه من أخطر مظاهر السلوك البشرى فى عواقبه ونتائجه ، وهو قد أصبح فى الوقت نفسه ـ بفضل العلم الحديث ـ من أسهلها تنظيما ؟

مشكلة البيئة :

قبل الستينات من هذا القرن كان الكلام عن « مشكلة البيئة » لا يتعدى جدران عدد محدود من المجامع العلمية شديدة التخصص . وفى الستينات ذاتها ، وخلال فترة وجيزة ، أصبحت هذه المشكلة واحدة من أكثر المشكلات تداولا على ألسنة الناس وفى أجهزة الإعلام ، وفى الهيئات الدولية الكبرى ، وأنشئت لها معاهد متخصصة ، وكراسى أستاذية فى الجامعات ، وظهرت لها مجلات خاصة ، ومئات الكتب بشتى اللغات ، بل لقد أنشئت لها وكالة أو هيئة دولية متخصصة منبثقة عن هيئة الأمم المتحدة . فما الذى أدى إلى هذا الانتقال السريع من التجاهل التام لمشكلة البيئة إلى الوعى الزائد بها ؟

من المؤكد أن المشكلة ذاتها كانت موجودة قبل ظهور هذا الوعى المفاجىء بوقت طويل . ذلك أن التقدم العلمى والتكنولوجى كان لابد أن يترك آثاره العميقة على بيئة الإنسان . ومنذ بداية العصر الصناعى أصبح تدخل الإنسان فى البيئة حقيقة أساسية من حقائق هذا العصر ، لأن لفظ

« الصناعة » ذاته يعني تغيير عناصر البيئة بجهد الإنسان . وهكذا كانت المشكلة موجودة بالفعل منذ وقت طويل ، ولكن التنبيه إلى خطورتها ، وإلى أبعادها المتعددة ، هو الذي تأخر في الظهور .

أما هذا الظهور المتأخر للوعي بمشكلة البيئة فربما كان راجعا إلى مجموعة من العوامل ، أهمها التوسع الهائل في التصنيع والزيادة الضخمة في الانتاج بعد الحرب العالمية الثانية ، وهو توسع وصل إلى حد إدخال تغيرات أساسية في البيئة الطبيعية التي أخضعت لمتطلبات الصناعة إلى حد قضى على كثير من معالمها الأصلية . ولكن لعل العامل الأهم من ذلك ، في ظهور مشكلة البيئة على المسرح الدولي بصورة مباغتة ، هو ظهور وعي جديد ، في غمرة هذا السباق المحموم على الإنتاج الضخم بين الدول الصناعية الكبرى ، بضرورة الحفاظ على توازن البيئة التي يعيش فيها الإنسان وغيره من الأحياء . فقد أدرك الكثيرون في المجتمعات الصناعيةأن تلاعب الإنسان ببيئته قد زاد عن حده ، وأن الجري اللاهث وراء التصنيع أدى إلى نسيان الطبيعة الأم ، بل أدى إلى تلويثها بمختلف النواتج المتخلفة عن عمليات التصنيع .

ولقد كانت مشكلة تلوث البيئة ، نتيجة لنفايات المصانع ، هي المشكلة الصارخة ، التي أثارت الاهتمام العالمي بموضوع البيئة . ذلك لأن المصانع تطرد من مداخنها الضخمة كميات هائلة من الغازات التي تلوث جو مدن بأكملها ، وتعرض حياة الإنسان ، وخاصة الأطفال الذين لا يستنشقون هواء نقيا ، لأخطار جسيمة . وفضلا عن ذلك فإن الأنهار تتلوث بما يلقى فيها من مخلفات المصانع ، وتهدد الحياة المائية فيها بالخطر ، فضلا عن أخطار تلويث مياة الشرب . بل إن البحار ذاتها ، بكل مساحاتها الشاسعة ، تتعرض بدورها للتلوث بسبب مخلفات المصانع القريبة منها . والسفن التي تسير

فيها ، والموانىء المطلة عليها .

وهكذا يبدو أن هذا الوعى القوى بمشكلة البيئة قد ظهر فى بداية الأمر بوصفه رد فعل على التوسع الضخم فى الإنتاج الصناعى ، والتسابق بين الدول وبين الشركات المنتجة فى إغراق الأسواق بسلع جديدة ، دون أى تفكير فى الأعراض الجانبية التى تصاب بها البيئة الطبيعية نتيجة لهذه المنافسة الرهيبة على الإنتاج . وكان الهدف الأساسى لتلك الحملة العالمية الداعية إلى حماية البيئة ، هو أولا تجنب الأخطار المباشرة للتلوث ، التى أصبحت أخطارا ملموسة فى البلاد المتقدمة ، وهو ثانيا تحقيق نوع من التوازن بين مطالب الإنسان ومطالب الطبيعة : فالإنسان يريد تحوير الطبيعة لكى تلائم أغراض الإنتاج الصناعى ، والطبيعة تريد أن تُحفظ وتصان . وكان على المهتمين بشئون البيئة أن يحاولوا الاهتداء إلى الوسائل الكفيلة بالتوفيق بين هذين المطلبين ، بعد أن أفرط الإنسان فى الاهتمام بالمطلب الأول إلى حد يهدد بضياع المعالم الأصلية للطبيعة .

بل إن التقدم فى تكنولوجيا الزراعية ذاتها ، التى هى ألصق بالبيئة الطبيعية من الصناعة بطبيعة الحال ، قد أدى إلى مشكلات بيئية خطيرة : فاستخدام مبيدات الآفات على نطاق واسع أدى إلى تلوث المزروعات وتعرض مستهلكيها لأخطار التسمم ، فضلا عن أن إلقاء مياه الصرف فى الأنهار والترع قد لوثها بدورها ، وهدد كل أشكال الحياة المائية بالخطر .

ولا يقتصر هذا الخطر على التلوث وحده ، بل إن هناك خطرا آخر يتمثل فيما يسمى « باختلال التوازن البيئى » .

فعناصر الطبيعة المختلفة قد تعايشت على مدى مئات الألوف من السنين بحيث يعتمد بعضها على بعض فى توازن دقيق . وتدخل الإنسان للقضاء على أحد هذه العناصر يمكن أن يؤدى إلى نتائج غير متوقعة فى

عناصر أخرى تبدو بعيدة عنه ، وذلك لأن التوازن بينها قد اختل . وكلنا نذكر إلى أى حد أعجب الناس فى العالم بأسره بتجربة الصين الرائدة حين قضت ، فى أيام قلائل ، على العصافير التى كانت تتكاثر بالملايين ، وكانت تهدد محاصيل الحبوب تهديدا خطيرا يؤثر فى ثروة الأمة الزراعية . ولكن هذا القضاء المبرم على العصافير قد تبين ، بعد سنوات قلائل ، أنه ألحق الضرر بالتربة الزراعية ، لأن العصافير كانت تأكل ديدانها التى تفرز سموما ، فلما اختفت العصافير تكاثرت هذه الديدان إلى حد كان له تأثيره الضار على خصوبة التربة . وهكذا فإن تدخل الإنسان فى التوازن الدقيق الذى تكوِّنه البيئة قد أدى فى نهاية الأمر إلى ضرر غير متوقع .

وعلى أيه حال ، فسواء نظرنا إلى المشكلة من زاوية التلوث ، أم من زاوية الإخلال بالتوازن الطبيعى ، فإنها فى معظم حالاتها تعد نتيجة مباشرة للتقدم العلمى والتكنولوجى السريع فى عصرنا الحاضر ، وهى تدعونا بإلحاح إلى محاولة الحد من بعض الأضرار الجانبية التى يجلبها هذا التقدم معه ، لا سيما بعد أن استفحلت هذه الأضرار الجانبية فى الآونة الأخيرة بصورة تدعو إلى القلق . ولكن ظهور الوعى بالمشكلة ، وانعقاد عشرات المؤتمرات والندوات المتعلقة بها ، ونشر مئات الأبحاث عنها ، أدى إلى اتساع نطاق الاهتمام بموضوع البيئة إلى حد يفوق بكثير مسألة مكافحة التلوث ، فظهرت أبعاد اجتماعية وجمالية للمشكلة ، تناولت بالتحليل بيئة الإنسان الحديث بوجه عام ، بغض النظر عن أضرار التصنيع واسع النطاق .

ذلك لأن التفكير المتعمق فى مشكلات البئية يبين أن هذه المشكلات يصعب حلها من جذورها مادام الهدف من النشاط الاقتصادى هو التنافس على الربح . ففى ظل هدف كهذا تكون الحلول جزئية فقط ، ولا يؤخذ بها إلا بقدر ما يمكن إدماجها فى إطار اقتصاد السوق ، أما إذا تعارضت مع هذا

الاقتصاد فإنها تهمل . ولما كان هذا الاقتصاد ميالا بطبيعته إلى التوسع والوصول إلى الحدود القصوى الممكنة للإنتاج فإن الحلول الجذرية لمشكلات البيئة فيه تكاد تكون مستحيلة . وهكذا يرتبط موضوع البيئة بنوع القيم الاجتماعية والاقتصادية السائدة ، ويتضح أن إيجاد حل حقيقي يحفظ للإنسان توازن بيئته ، يحتاج إلى تغيير أساسي في قيم المجتمع ، لا تعود فيه مرتكزة على التنافس بل على التعاون والتعايش ، أى أن المسألة ترتد في واقع الأمر إلى نوع الأنظمة التى يختارها الإنسان لمجتمعه . ومن هنا اعتقد البعض - عن حق في رأيى - أن مشكلات البيئة لا تجد حلولها الحقيقية إلا على مستوى عالمي شامل .

والواقع أن مسار العلاقة بين الإنسان والبيئة كان موازيا ، إلي حد بعيد ، للعلاقة بين الإنسان وناتج عمله . فقد تصور الإنسان في وقت ما أن ما ينتجه يفلت زمامه من يده ، ويخضع لقوى مجهولة تسير في طريقها الخاص دون أن يستطيع أحد أن يوقفه أو يعيد توجيهه . وكان ينظر إلى التلوث الناجم عن هذا التقدم على أنه الضريبة الحتمية التى ينبغى أن يدفعها الإنسان كلما ازداد سيطرة على الطبيعة . أى أن ثمن التقدم العلمى والتكنولوجي هو إفساد البيئة الطبيعية التى يستظل بها الإنسان . ولكن التفكير بدأ يتجه في السنوات الأخيرة اتجاها مخالفا : هو أن قدرة الإنسان على فهم قوانين الطبيعة واستغلالها لصالحه لا ينبغى على الإطلاق أن تؤدى إلي تشويه الإنسان لبيئته الطبيعية . فالعلم والتكنولوجيا هما ، قبل كل شىء ، وسائل اصطنعها الإنسان لكى يبنى لنفسه حياة أفضل ، ومن ثم كان من الضرورى توظيفها من أجل صيانة البيئة الطبيعية ، لا تلويثها .

ويمكن القول إن الوعى العالمى بمشكلات البيئة قد ظهر متأخراً ، ولكنه نما بسرعة هائلة ، بحيث أصبح الإنسان ، بعد مضى سنوات قلائل ، حريصا

على دراسة تأثير أى نشاط يقوم به فى بيئة الطبيعة ، وأخذ يضع من القوانين ، ويتخذ من الاحتياطات ، ما يعتقد أنه كفيل بصيانة هذه البيئة من أخطار التدخل الزائد فى توازنها الطبيعى . ولكن لا يمكن القول إننا اقتربنا من المرحلة التى نستطيع فيها التوفيق بين تحقيق التقدم الاقتصادى واسع النطاق ، والمحافظة على نقاء وضمان سعادة متكاملة للإنسان فى عالم يتطلع إلى الإنتاج الوفير .

ولكن ، ما موقف المنطقة التى نعيش فيه من مشكلات البيئة ؟ من الواضح أن هذه المشكلات قد ظهرت أصلا فى بلاد صناعية متقدمة . والاهتمام الذى أبدى بها ، والضجة التى أثيرت حولها ، والاتجاه المفاجيء إلى دراستها علميا وتطبيقيا ، إنما كان فى هذه البلاد . ولما كانت بلادنا فى عمومها مفتقرة إلى التصنيع الثقيل على نطاق واسع ، فيبدو أن مشكلات البيئة لا تمسها مساسا مباشرا . كذلك فإن عملية استهلاك الموارد الطبيعية إلى حد الاستنفاد لم تحدث بعد فى معظم بلاد العالم الثالث ، ومن ثم فإن الخوف من أخطار النفايات الصناعية ليس له حتى الآن ما يبرره .

ومع ذلك فإن هذ لا يعنى على الإطلاق أن تقف بلادنا مكتوفة الأيدى حتى يجيء الوقت الذى تداهمها فيه أخطار التلوث أو انعدام التوازن البيئى . فمن الواجب أن نفيد من تجربة البلاد الأخرى التى سبقتنا فى مجال التصنيع وفى التكنولوجيا الزراعية المتقدمة . ولنتذكر إن من أهم عوامل التلوث البيئى ازدحام المدن ، وأن حركة الانتقال إلى حياة المدن تسير فى بلاد العالم الثالث بسرعة وبغير تخطيط ، مما يساعد على ظهور كثير من المشكلات المتعلقة بالبيئة .

وهنا ينبغى علينا أن نعود إلى الكلام عن جانب آخر من جوانب مشكلة البيئة أصبح فى الآونة الأخيرة يشغل قدرا كبيرا من اهتمام المشتغلين بهذا

الموضوع ، وأعنى به الجانب الجمالى للبيئة . فليست المشكلة الوحيدة المتعلقة بعلاقة الإنسان ببيئته الطبيعية هى المشكلة المادية الناجمة عن تدخله الزائد فى الطبيعة وسوء استخدامه لطاقاتها ومواردها ، بل إن البيئة الجمالية بدورها ينبغى أن تكون موضوعا لاهتمامنا وعنايتنا . فالطفل الذى ينشأ فى بيئة تتسم بالقبح ، ولا يرى حوله مظهرا من مظاهر الجمال أو الذوق أو التناسق والانسجام ، يكون قد افتقد عنصرا هاما من عناصر إنسانيته . وفى وسعنا أن نقول إن هذا القبح يمكن أن ينتج عن الثراء المفرط ، أو عن الفقر المدقع . ففى البلاد ذات الاقتصاد المتقدم والإنتاج الوفير ، يكون السعى إلى الضخامة فى البناء متعارضا ، فى أحيان كثيرة ، مع البحث عن الجمال ، وعند حدوث هذا التعارض فإن الطرف الذى يضحى به ، فى الغالب ، هو الجمال . وهكذا فإن كثيرا من المدن الصناعية الكبرى ، التى تنتج ثروات اقتصادية هائلة ويتعامل أهلها بأموال طائلة ، تفتقر إلى الجمال الذى قد نجده بدرجة تفوقها بكثير فى بلدة صغيرة بسيطة البناء متواضعة الموارد . ولكن القبح يوجد أيضا على الطرف الآخر فى السلم الاقتصادى ، وهو أمر طبيعى تماما . ففى البلاد الفقيرة لا يكون هناك مجال الاهتمام بالجمال ، وحيث تسود الأزمات الاقتصادية ويتكدس الناس فى بيوت متهالكة وتضيق الأرض بمن عليها ، لا يتوقع من أحد أن يحرص على وجود لمسات جمالية فى البيئة ، أو على ترك مساحات خضراء واسعة لتنقية الهواء وتنقية النفوس معا ، ما دامت لقمة العيش هى الشغل الشاغل للجميع .

هذا العامل الجمالى يمثل العنصر الأهم من عناصر مشكلة البيئة فى بلاد العالم الثالث . ومن حسن حظ كثير من هذه الدول أن لديها تراثا حضاريا عريقا ما زالت آثاره قائمة فى أرجائها على نطاق واسع . وهذه الآثار ، فضلا عن الطابع التقليدى العريق للعمران فى هذه البلاد ، يمكن أن

تكون عنصرا أساسيا فى المحافظة على الجانب الجمالى للبيئة ، وما يستتبعه ذلك من إعلاء للجوانب المعنوية فى حياة الإنسان . ومن هنا كان حرص الكثيرين على صيانة الآثار العريقة في البلاد الفقيرة ، لكى يكون فيها تعويض عما تعجز هذه البلاد عن تحقيقه بمواردها الاقتصادية المحدودة .

غير أن ضرورات التنمية وإدخال الأساليب التكنولوجية الحديثة فى الحياة كثيرا ما تتعارض مع الحرص على الطابع الجمالى التقليدى للبيئة فى البلاد النامية . بل أنه ليبدو فى بعض الأحيان أن أصوات أولئك « الزوار الأجانب » الذين ينصحون أهل هذه البلاد بالمحافظة على الطابع التقليدى لبيئتهم ، وبعدم الانسياق وراء إغراءات الحياة العصرية ، هى فى حقيقتها دعوة (مقصودة أو صادرة عن نية حسنة) إلى أن تظل هذه البلاد « متحفا » أثريا يستمتع به المتفرجون وحدهم . وهكذا تبدو هذه النظرة « المتحفية » إلى البيئة ، فى بعض الأحيان ، عائقا فى وجه تطور المجتمع نحو الأخذ بأساليب التقدم الحديثة . وعلى أية حال فإن التحدى الحقيقى أمام بلادنا النامية ــ فيما يتعلق بالمشكلة التى نتحدث عنها ها هنا ــ هو فى الوصول إلى الصيغة الملائمة التى توفق بين المحافظة على الهوية الأصلية للبيئة من جهة ، واللحاق بموكب التقدم العلمى والتكنولوجى من جهة أخرى .

مشكلة الموارد الطبيعية :

لهذه المشكلة وجه نعرفه فى بلادنا العربية حق المعرفة ، هو الوجه المتعلق بأزمة الطاقة . فمصادر الطاقة ، وعلى رأسها البترول ، أصبحت فى وقتنا الراهن موضوعا من أهم الموضوعات التى تبحثها المؤتمرات العلمية ، والتجمعات السياسية ، والتى تتغير بسببها الاستراتيجيات وتتشكل الأحلاف وتنشب النزاعات وتحاك المؤامرات . والمشكلة التى يواجهها العالم . والتى أصبح على وعى تام بها فى أيامنا هذه ، هى أن مصادر

الطاقة التقليدية ، وخاصة البترول ، محدودة ، وأن التقدم التكنولوجى يدفع العالم رغما عنه إلى التوسع فى استهلاكها ، ومن ثم فإنه سيواجَه فى وقت غير بعيد بموقف يجد فيه بتروله قد نفد ، فيعجز عن استغلال كافة موارده الطبيعية الأخرى .

على أن الأمر المؤكد هو أن العلم لا يقف مكتوف الأيدى أمام هذا الأحتمال المخيف : فالبحث لا يتوقف لحظة واحدة عن مصادر بديلة للطاقة ، وعلى رأسها الطاقة الذرية ، التى قطعت الدول المتقدمة شوطا بعيدا فى استخدامها ، وكذلك الطاقة الشمسية ، التى استغلت بدورها ولكن على نطاق أضيق ، كما أن ثمة تفكيرا جادا فى استغلال طاقة الحرارة الأرضية ، وطاقة المد والجزر على نطاق عالمى واسع . ولكن المشكلة فى هذه الطاقات البديلة هى أنها لم تصبح بعد اقتصادية إلى الحد الذى يبرر استخدامها على نطاق واسع . وكل الآمال تتركز ، بطبيعة الحال ، على خفض تكاليف إنتاجها إلى حدود معقولة بحيث تصبح بديلا عن الطاقة البترولية حينما تنفد .

ولكن البترول ، والطاقة بوجه عام ، ليست إلا وجها واحدا من أوجه مشكلة الموارد الطبيعية التى تواجه العالم اليوم . فهذا العالم يستهلك موارده الأخرى . من الحديد والنحاس والقصدير الخ ، بمعدل متزايد ، لكى يلبى أغراض الصناعة التى تتوسع بلا انقطاع ، ومطالب الاستهلاك التى اعتادها الإنسان حتى أصبحت جزءا لا يتجزأ من حياته . وإذا كانت بعض الموارد الطبيعية قابلة للتجديد ، كالأخشاب مثلا ، التى يمكن أن تتجدد بظهور أشجار جديدة ، فإن الموارد المعدنية التى تستهلك لا يمكن تعويضها ، ومن ثم فإن رصيد العالم منها يتضاءل يوما بعد يوم .

وقد دق عدد كبير من الباحثين ناقوس الخطر ، معلنا أن الموارد الحالية من المعادن الهامة التى تقوم عليها الصناعات الرئيسية ، ومن ثم تقوم عليها

الحضارة العصرية بأسرها ، لا بد أن تنتهى فى وقت قصير إذا سارت الزيادة فى معدلات الاستهلاك سيرتها الحالية . فبعض المعادن لا يقدّر للمخزون منه أن يدوم أكثر من ربع قرن ، وبعضها قد يدوم اكثر من ذلك ، ولكن الأمر المؤكد هو أنه إذا انقضى على البشرية قرن آخر ظلت فيه صناعاتها تستهلك الموارد الطبيعية على النمط السائد الآن ، فإن معظم الموارد الأساسية سيكون عندئذ قد نفد .

وفى مقابل ذلك يذهب بعض المتفائلين إلى أن الصورة ليست قاتمة إلى هذا الحد . فمن المحال أن يظل العقل الإنسانى ينتظر ، فى حالة من السلبية ، نقصان رصيده من موارد الطبيعة يوما بعد يوم ، حتى ينتهى الأمر بالبشرية إلى العودة مرة أخرى إلى الكهوف بعد أن تنضب آخر ذرة من معادنها ومن طاقاتها . والرأى الذى يدافع عنه هؤلاء هو أن التقدم العلمى كفيل بأن يكشف للإنسان آفاقا جديدة لا تخطر له الآن على بال . فإذا توصل الإنسان إلى الوسائل الفعالة لاستخراج الثروات الطبيعية الكامنة فى أعماق المحيطات ، فمن المؤكد أنه سيهتدى فيها إلى احتياطى من الموارد يبلغ أضعاف ما قدره المتشائمون . وإذا استطاع أن يتوغل فى باطن الأرض ذاتها ــ التى يمكن القول أن كل كشوفنا تكمن على السطح الأعلى من قشرتها الخارجية ــ فسوف يجد على الأرجح موارد معدنية هائلة مدفونة فى الأعماق البعيدة للأرض . وإذا أصبح الاتصال بين الكواكب والنجوم الواقعة فى الفضاء القريب من الأرض حقيقة واقعة ، وأمكن تحقيقه بطريقة منتظمة ، فسوف يستخلص الإنسان من هذه العوالم الجديدة موارد تعوضه عن كل ما يفقده على سطح الأرض .

ومع ذلك فإن هذا الرد ، الذى يعتمد على إنجازات علمية بعيدة المدى ، لا يبدو كافيا فى نظر الكثيرين ، الذين يرون أن المشكلة ستواجه العالم فى

وقت أقرب من ذلك الذى تتحقق فيه آمال هؤلاء المتفائلين . فهناك احتمال قوى فى أن يواجه الإنسان بنقص أساسى فى موارده الطبيعية « قبل » أن يكون العلم قد تمكن من التوصل إلى بدائل أو كشف مصادر جديدة لها . وعندئذ يكون لزاما علينا أن نفكر ، منذ الأن ، فيما ينبغى عمله قبل أن يتحقق هذا الاحتمال المخيف .

والأمر الذى يركز عليه كثير من المفكرين الواعين بخطورة هذه المشكلة ، هو أن الأجيال الحاضرة ينبغى أن تفكر فى مصير الأجيال القادمة ، ولا تترك لها العالم فقيرا فى الموارد ، لكى تحل هى مشكلاتها بنفسها . وهنا تتدخل مشكلة أساسية من مشكلات القيم : فهل ينبغى علينا ، نحن الذين نعيش فى الجيل الحاضر ، أن نراعى حقوق جيلنا هذا وحده ، أم أن الجيل الناشىء ، والأجيال التى لم تولد بعد ، لها بدورها حقوق ينبغى مراعاتها عند استهلاك موارد العالم الطبيعية ؟ (١) الواقع أن الأجابة عن هذا السؤال ليست يسيرة إلى الحد الذى تبدو عليه للوهلة الأولى .

فمن الواضح فى نظر الكثيرين ، أن الأجيال البشرية ينبغى أن تتخلى عن أنانيتها ، وعن رغبتها فى ضمان أعلى مستوى ممكن لمعيشتها ، وعليها أن تفكر فى مصير الأجيال التى ستعقبها ، فلا تبدد موارد الطبيعة إلى الحد الذى لا يترك لهذه الأجيال اللاحقة ما تستطيع أن تستهلكه .

ومن المؤكد أن معدّل الاستهلاك فى الدول الغنية يزداد بدرجة تنذر بخطر حقيقى فى المستقبل ، إذ يصل هذا الاستهلاك أحيانا إلى حد التبديد

---

(١) طرح هذا السؤال R . T De George فى بحث بعنوان « التكنولوجيا والعقل Technology and Reason » (انظر المجلد الأول من أعمال المؤتمر العالمى الخامس عشر للفلسفة ، صوفيا ١٩٧٣ ، ص ٣٠٨)

السفيه . وهنا يكون من الطبيعى أن يثور الضمير الإنسانى على هذا التبديد غير المسئول ، الذى لا يحدث من أجل إشباع ضرورات حيوية ، بل يحدث لإرضاء رغبات أنانية ونزوات استهلاكية مجنونة لا يلبى معظمها حاجات أصيلة لدى الإنسان . فإذا كان هذا الاستهلاك الزائد عن الحاجة يتم على حساب الضرورات الأساسية التى ستحتاج إليها الأجيال المقبلة ، أليس من حق المرء أن يعترض ويطالب بالتريث والتفكير فى الآخرين ، لا سيما إذا كان هؤلاء الآخرون هم أبناؤنا وأحفادنا ؟

على أن أنصار الرأى المضاد يسوقون حججا تبدو فى نظر الكثيرين معقولة : فمن الواجب ، فى نظرهم ، أن نترك الأجيال المقبلة تواجه مشكلاتها بنفسها . ولو افترضنا أن الجيل الحالى قد قلل استهلاكه ، بقدر ما يستطيع ، مراعاة لمطالب الأجيال القادمة ، فإن هذا لن يكون حلا للمشكلة ، وذلك لسببين : الأول أن المستهلكين الحقيقيين فى هذا العالم هم قلة من الدول التى تشكل نسبة ضئيلة من مجموع سكان العالم ، أما الأغلبية الساحقة فتعيش على مستوى الكفاف . ولو اختفت الأنانية من العالم ، وساده تنظيم عاقل يراعى مصالح الغير ، فسوف يكون أول ما ينبغى على هذا التنظيم عمله هو رفع المستوى الاستهلاكى للأغلبية البائسة من شعوب العالم إلى مستوى معقول . وعندئذ سنواجه المشكلة بنفس حدتها الحالية ، وربما بمزيد من الحدة : إذ أن رفع مستوى ألوف الملايين من فقراء العالم إلى حد معقول سيؤدى إلى استهلاك لموارد العالم بمعدل قد يفوق المعدل السائد بين الدول الغنية المبذرة فى الوقت الراهن . وأما السبب الثانى فهو أننا ، مهما قترنا على أنفسنا الآن ، أو حتى بعد جيل أو جيلين ، فسوف نضطر عاجلا أو آجلا إلى مواجهة المشكلة بكل حدتها يوما ما ، إذ أن ترشيد الاستهلاك حتى لو تحقق على نطاق عالمى ، لن يمنع من حدوث أزمات

فى الموارد الطبيعية فى المستقبل ، وكل ماسيؤدى إليه هو إرجاء المشكلة إلى حين .

ولا شك أن هذه الحجة الثانية يمكن أن يرد عليها بأن إرجاء المشكلة يعنى اعطاء فرصة أطول للعلم كيما يتوصل إلى حلول جديدة ، غير مألوفة ، لمشكلة الموارد الطبيعية ، بدلا من أن يضطر العالم إلى مواجهة هذه المشكلة قبل أن يكون العلم قد أعد نفسه لحلها ، كما أن ضمان مستوى معقول للغالبية الفقيرة من سكان الأرض قد يساعد سكان هذه المناطق على بذل المزيد من الجهد من أجل استخراج كل ما هو كامن فى أقاليمهم من ثروات .

ولكن الذى يهمنا من هذه المقابلة بين الآراء المتعارضة فى مشكلة الموارد الطبيعية هو أولا أن المشكلة ليست بالبساطة التى تبدو عليها للوهلة الأولى ، بل إنها من التعقيد بحيث تستدعى قدرا غير قليل من التفكير المتعمق ، الذى يوازن بين الحجج والردود عليها ، ويدرك أن للموضوع أبعادا متعددة . ويهمنا ثانيا فى هذا الموضوع أن نؤكد ارتباطه بمشكلات أخلاقية ، كمشكلة أنانية الأجيال ، وبمشكلات اجتماعية ، كمشكلة التقريب بين مستويات المجتمعات البشرية . ولكن ربما كانت من أهم المشكلات العقلية التى يثيرها هذا الموضوع تلك المشكلة الأساسية المتعلقة بالقيم ، وأعنى بها قيمة الحياة الاستهلاكية التى تعيشها المجتمعات الصناعية الحديثة . ذلك لأن المجتمعات المتقدمة أصبحت ، فى عصرنا الحاضر ، تنظر إلى التوسع فى الاستهلاك كما لو كان غاية فى ذاته ، وتعده قيمة أساسية من قيم الحياة ، ينبغى أن تؤخذ على ما هى عليه دون مناقشة . بل إن الإنسان الحديث أصبح ينظر إلى أى نظام اجتماعى على أنه جهاز ضخم وظيفته الأولى والأساسية هى توفير مطالبه الاستهلاكية ، وأصبح يحكم عليه ـ إيجابا أو سلبا ـ فى ضوء قدرته أو عدم قدرته على تحقيق هذه

المطالب .

ولقد أصبح هذا الأسلوب من التفكير متغلغلا فينا إلى حد أننا لم نعد قادرين على مناقشته ، بل أصبحنا نعده جزءا من طبيعة الأشياء ، ونظاما من أنظمة الكون . ولكن حقيقة الأمر أن هذا كله اتجاه حديث ، ينتمي إلى قيم المجتمع الصناعي الغربي ، وهي القيم التي استطاعت ـ بفضل تفوق هذا المجتمع ـ أن تنتشر وتعم أجزاء كبيرة من العالم المعاصر . والدليل على أن هذا الاتجاه الاستهلاكي ينتمي إلى الإنسان الحديث وحده ، هو أن العصور الماضية كانت تفكر في الأمر بطريقة مغايرة تماما . فعند اليونانيين القدماء كان الفكر الفلسفي والأخلاقي ، وخاصة عند سقراط وأفلاطون وأرسطو والرواقيين ، يتجه إلى تعويد الإنسان السيطرة على رغباته والتحكم فيها ، ولم يقل أحد عندئذ إن وظيفة النظام الاجتماعي هي أن يوفر للإنسان أكبر قدر من أدوات الاستهلاك . وفي العصور الوسطى كانت معظم الرغبات الاستهلاكية ، التي هي محور حياتنا الحاضرة ، تعد رغبات شريرة ، وكان هدف النظام الاجتماعي والفكري هو إخماد صوت هذه الرغبات ، وكان الإنسان الأمثل هو ذلك الذي يعزف عن تحقيق مطالب الترف والرفاهية .

ولست أود أن يفهم القارئ مما أقوله أنني أدعو إلى الزهد أو أحمل على الحياة الحديثة لأنها مترفة ، إذ أن الأمر المؤكد هو أن دعاة الزهد المتطرف كانوا يكبتون كثيرا من الرغبات الإنسانية المشروعة ، ويقمعون مطالب حيوية للإنسان ، وقد أثبتت الأيام أن كثيرا من دعاة الكبت والقمع هؤلاء كانوا يعيشون حياة مضادة تمام لتلك التي يدعون الناس إليها . ومن جهة أخرى فإن الإنسان قد أحرز في العصر الحديث تقدما لا شك فيه حين استطاع أن يتحرر من هذا الكبت ، واقتنع بأن ارضاء رغباته الطبيعية لا

يتعين أن يكون في ذاته أمرا شريرا .

ولكن ما أود أن أثبته من هذه المقارنة ، هو أن النمط الحالى للحياة الاستهلاكية ليس أمرا مسلما به ، كما نتصور الآن ، وأن الإنسان كان يعيش في عصور أخرى في ظل قيم مضادة لتلك التي يسلم بها الآن ، حتى لو لم يكن قد تمسك دائما بهذه القيم . فإذا أدركنا هذه الحقيقة ، أمكننا أن نتأمل بنظرة نقدية طبيعة الحياة الأستهلاكية التي يتصور الإنسان الحديث أنها أقصى أمنياته .

وحين نقوم بهذا النقد ، ستظهر بوضوح أمامنا عيوب هذا التطلع الاستهلاكي المخيف الذي يتملك الإنسان في المجتمعات المتقدمة ، ويحلم به الإنسان في المجتمعات غير المتقدمة . وحقيقة الأمر هي أن المشكلة لا تكمن ، على وجه الدقة ، في الاستهلاك أو عدم الاستهلاك . بل إن أساس الموضوع كله هو « نوع » الاستهلاك . فنحن قد تطرفنا في الاتجاه المضاد لما كان يدعو إليه أجدادنا من زهد وعزوف عن المطالب المادية ، حتى أصبحنا محاطين بشبكة محكمة من الوسائل الإعلامية التي تدعونا بذكاء شديد ، إلى استهلاك أشياء تافهة . وهكذا يجد المرء ، أينما ذهب ، إعلانات ضخمة تدعو إلى صنوف من المأكولات أو المشروبات ، وتغريه بمظهرها الحسي الفج ، وتصور الشفاه الظامئة وهي تتلهف على الزجاجة المثلجة ، أو الأسنان الشرهة وهي تنقض على قطعة اللحم ، حتى ليشعر المرء بأن الزمن قد دار دورة كاملة ، منذ عهد الترفع على المحسوسات حتى عهد الإغراق السوقي فيها .

ولنقل مثل هذا عن أساليب استثارة الرغبات الحسية الأخرى ، كالجنس ، التي أصبحت تحفل بها إعلانات الأفلام والملاهي ، وتزين أغلفة المجلات ... إنها بدورها مظهر لقيم معينة ، قد يكون لها جانب إيجابي هو

أن الإنسان لم يعد مكبوتا ، ولكن لها جوانب سلبية واضحة ، هو أنها تجعل للحياة الإنسانية أهدافا حسية مباشرة ، وتسيء إلى الرغبات الإنسانية الطبيعية ذاتها ، إذ تجعلها موضوعا للمتاجرة والربح ، وتنزع عنها طابع الخصوصية ـ الذى هو أساسى فيها ـ لتحيلها إلى سلعة عامة يتداولها الجميع .

والأعجب من ذلك أن السعى المحموم إلى الاستغلال التجارى للرغبات الإنسانية قد دفع هؤلاء المستغلين إلى خلق « رغبات صناعية » ، لا تلبى حاجات طبيعية لدى الإنسان ، ولكن الإلحاح المستمر عليها ، بالدعاية والإعلان ، يقنع الناس على نحو متزايد بأنها رغبات أساسية . وهكذا يُخلق لدى الإنسان ، فى المجتمعات المتقدمة أو فى المجتمعات الثرية (وهما ليسا دائما شيئا واحدا) ، إحساس بضرورة تغيير طراز سيارته أو ثلاجته ، أو ملابسه أو حتى ساعته كلما جد فى هذا الميدان جديد ، لا لأن مالديه قد استهلك ، بل لأن عقله قد تشكل بالطريقة التى يريدها المنتجون ، والتى تضمن لهم أكبر قدر من الربح . وكم من الملايين تنفق سنويا من أجل تلبية هذه الرغبات المصطنعة التى هى ، فى أغلب الأحيان ، رغبات غير ضرورية . بل إن بعضها قد يجلب ، على المدى الطويل ، ضررا للإنسان : كاختراع فراشاة أسنان تتحرك بالكهرباء بدلا من حركة اليد ، أو أجهزة آلية لتغيير سرعة السيارة بدلا من جهاز التغيير اليدوى ، أو جهاز للتحكم عن بُعد فى ضبط التليفزيون حتى لا يقوم الإنسان من مكانه ... وكلها مخترعات تبدو فى ظاهرها مريحة ، ولكنها فى حقيقتها تعوّد الإنسان الخمول الزائد ، وتحرمه من ممارسة أقل قدر من الجهد الجسمى الذى هو فى أشد الحاجة إلى بذله كيلا يتعرض لأمراض الترف « والحضارة » .

وربما قيل ، دفاعا عن نمط الحياة الاستهلاكية هذا ، إن عصرنا يستطيع

أن يملك ترف الاستهلاك لأنه عصر إنتاج فائض ، على حين أن فلسفة الزهد كانت تشيع فى عصور الحرمان والإنتاج الشحيح . ولكن هذه حجة هزيلة ، إذ أن عصرنا بدوره ملىء بمظاهر الحرمان ، التى تصل إلى حد المجاعة فى بعض البلاد الفقيرة ، وإلى حد سوء التغذية ونقص الملبس والمسكن بين النسبة الغالبة من البشر . بل إن الدول الغنية ذاتها لا تخلو من الحرمان ، وإن كانت تسعى جاهدة إلى التستر عليه . وهكذا فإننا إذا كنا نملك إنتاجا فائضا ــ وهو أمر لا ينطبق على الجميع ــ فمن المؤكد أننا لم نحسن استخدامه ، وأن الأنظمة الاجتماعية التى يعيش الإنسان الحديث فى ظلها لم تصل بعد فى معظم الأحيان ، إلى مستوى العدالة ، ومن ثم فإنها تدعو إلى الترف الزائد فى إطار من الحرمان .

ويستطيع المرء أن يذهب إلى أبعد من القول بأن الإغراق فى الاستهلاك لا يلبى حاجات أساسية لدى إنسان ، وإنه مظهر من مظاهر الظلم والافتقار إلى عدالة التوزيع فى العالم المعاصر . ذلك لأن الاستهلاك الزائد يشوه بالفعل كيان الإنسان وفكره ، وينتهى بالمرء إلى السطحية والابتذال . فعبادة الاستهلاك قد أدت ، فى هذا العصر ، إلى تكوين نمط من البشر الذين يتصورون أن قيمة المرء إنما تقاس بما يملك ، وبما يحيط به نفسه من مقتنيات . ويبدو أن القوة السطحية التى نكتسبها من تلك الأجهزة المعقدة التى تزودنا بها التكنولوجيا الحديثة ، تخدعنا فتوهمنا بأننا أصبحنا بالفعل « أقوى » و« أفضل » مما كنا عليه من قبل ، مع أن كل ما نقتنيه إنما هو قشرة خارجية لا تجعلنا أفضل « من الداخل » على الإطلاق . ولقد ميز الفلاسفة ، منذ وقت طويل ، بين ما يكونه المرء وما يملكه ، ويبدو أن مروجى السلع الاستهلاكية لا يهدفون إلا إلى نشر عبادة « التملك » وذلك على حساب الكيان الحقيقى للإنسان .

ومثل هذه الأوهام ليست فردية فحسب ، بل إن هناك شعوبا ومجتمعات تقع كلها ـ باستثناء قلة من المفكرين فيها ـ فريسة الاعتقاد الباطل بأن القيم العليا للحياة إنما تنحصر فى توافر وسائل الترف ومظاهر الرخاء . ولكن حقيقة الأمر أن هناك قيما أعلى من هذه بكثير ، هى قيم الثقافة والمعرفة وتحقيق الذات . فإذا كان علينا أن نفاضل بين مجتمعين ، يحرص الأول منهما على أن يوفر لأكبر عدد من أفراده السيارات الفاخرة وأحدث الأجهزة الألكترونية التى تجعل الحياة اليومية أيسر وأمتع ، على حين أن المجتمع الأخر يحرص على أن يوفر لأكبر عدد من أفراده تعليما ذا مستوى عال ، وثقافة رفيعة ، وينشر بينهم تذوق الفنون والآداب على أوسع نطاق ، فأى هذين المجتمعين ينبغى أن يعد محققا لآمال الإنسان ؟ لا جدال فى أن الجمع بين الأمرين هو الحالة المثلى ، ولكنه لا يبدو ممكنا فى ظروف العالم الراهنة ، ومن هنا فإن المرء لا يملك إلا أن يفاضل بين هذا وذاك . ويمكن القول ، بنظرة واقعية ، إن عددا كبيرا من الناس يفضلون النوع الأول ، ولكن هذا إنما يرجع إلى تأصل قيم الرخاء المادي فى النفوس . ومن المؤكد أن ما كان يدعو إليه مصلحو البشرية وقادتها الروحيون ، منذ أقدم العصور حتى اليوم ، إنما هو أن يكون للإنسان هدف أسمى من ذلك الرخاء المادي الذى يعده الكثيرون فى عالمنا هذا ، أقصى أمانيهم .

وإذا كنا قد نظرنا إلى هذا الموضوع ، حتى الآن ، من وجهة النظر المثالية ، أعنى من حيث ما ينبغى أن يكون ، فإن هناك عوامل أخرى واقعية ينبغى أن تؤخذ بعين الاعتبار ، وتؤدى إلى هذه النتيجة نفسها ، وأعنى بها ضرورة الحد من الاتجاه الاستهلاكي المتطرف الذى تسير فيه بعض المجتمعات المتقدمة صناعيا ، وتقود نحوه كثيرا من دول العالم الأخرى التى تتخذ منها قدوة لها . فقد دأب الإنسان الغربى ، منذ مطلع العصر الحديث ، على أن

يتخذ من « السيطرة على الطبيعة » هدفا لكل نشاط يقوم به فى ميدان العلم والمعرفة بوجه عام . ولقد كان لهذا الهدف ، كما رأينا من قبل ، ما يبرره فى الظروف التى ظهر فيها ، إذ أنه كان شعار عصر جديد يريد أن يفهم العالم ويتحكم فى الطبيعة عن طريق معرفة قوانينها . بل إن كبار الفلاسفة الذين دار تفكيرهم حول محور هذا الشعار ، مثل « بيكن » ، و« ديكارت » ، فى أوائل القرن السابع عشر ، كانت تدفعهم نزعة إنسانية قوية ، هى الرغبة فى استعادة مملكة الإنسان على الأرض ، وتحريره من عبودية العمل الشاق الذى يضنى جسمه ويضعف نفسه ولا يدع له فرصة لكى يمارس أفضل ما لديه من ملكات . كانت تلك هى نقطة البداية ، وهى الدافع الذى حفز الرواد الأوائل إلى المناداة بشعار « السيطرة على الطبيعة » عن طريق العلم ، واتخاذ المعرفة سبيلا إلى اكتساب القوة والمقدرة .

ولكن استمرار التقدم العلمى والتكنولوجى ، ووصوله إلى مستويات هائلة فى الآونة الأخيرة ، أصبح يهدد نفس المثل العليا التى كان ينادى بها هؤلاء الرواد . فمنذ وقت ليس بالقريب كنا نستمع إلى أصوات تحذرنا من أن وسائلنا التى نستخدمها فى السيطرة على الطبيعة ، قد سيطرت هى ذاتها علينا وخلقت لدينا نوعا جديدا من العبودية . وبالفعل أكد الكثيرون أن الآلة قد خيبت الآمال التى عقدت عليها ، وجعلت الإنسان عبدا لإنسان آخر (هو الذى يملك الآلة) أو للآلة نفسها . كما أن نفس القوة الجديدة التى خلقت الثراء والوفرة ، قد خلقت البؤس والفاقة ، وولدت القبح ، ونشرت الظلم ، وقسمت العالم إلى دول مترفة ودول محرومة ، وكررت هذا التقسيم ذاته فى كل مجتمع على حدة .

وفى عصرنا الراهن أدى التطرف فى تطبيق شعار « السيطرة على

الطبيعة » إلى انتشار رغبات جامحة فى الاستهلاك الذى يصل إلى حد التبديد ، وإلى سعى إلى النمو مقصود لذاته ، والوقوع فى جنون التوسع والانتشار فى جميع المجالات . وأخذ يظهر للكثيرين بوضوح أن هذا النمو الجنونى لو استمر بهذا المعدل لأدى إلى دمار العالم ، أو إلى استنفاد موارده المحدودة ، التى لا يمكن تجديد الكثير منا أو تعويضه . وهكذا بدأ عدد كبير من المفكرين ، في الدول المتقدمة ، يرفعون أصواتهم محذرين من استمرار الاندفاع الجنونى نحو الاستهلاك ، لا سيما وأن الكثير مما نستهلكه لا يزيد من قدرنا أو يثرى إنسانيتنا . وبدأ هؤلاء المفكرون يشككون فى جدوى فكرة « السيطرة على الطبيعة » بالمعنى الذي استخدمت به منذ أوائل العصر الحديث ، ويدعون إلى الاستعاضة عنها بفكر « التعاون مع الطبيعة » .

والموقف الذى يدافع عنه هؤلاء المفكرون هو أن العلاقة بين الإنسان والطبيعة ينبغى ألا تظل علاقة قهر وسيطرة ، ومحاولة من الإنسان لكى يستنفد أكبر قدر من مواردها ويستغلها لإرضاء رغباته، بل عليه أن يساير الطبيعة ويتعاون معها حتى لا يقضى على مواردها وعلى نفسه أيضا . وحين يسود شعار « التعاون مع الطبيعة » يكون معنى ذلك حرص الإنسان على عدم الاخلال بالتوازن الطبيعى والبيئى ، وتصرفه بحكمة ورشد فى موارده ، وخاصة تلك التى تُستهلك مرة واحدة ولا تتجدد . وهذا يقتضى من الإنسان الحديث مراجعة شاملة لأهدافه فى الحياة ، يحدد فيها نوع الغايات التى ينبغى أن يسعى إليها ويضع على أساسها خطط المستقبل .

ولا شك أن من هذه الغايات ، تغليب الكيف على الكم ، بمعنى أن يحرص الإنسان على « نوع » أرفع من الحياة ، بدلا من حرصه الحالى على الجمع والتكديس وزيادة « مقدار» ما يملك من أدوات الاستهلاك . وفى

استطاعة الإنسان ، إذا فكر فى الأمر بتعمق ، أن يهتدى إلى وسائل تعينه على رفع المستوى « الكيفى » لحياته دون حاجة إلى تبديد أو تبذير لموارد الطبيعة . بل إنه سيدرك حينئذ أن جريه الحالى وراء « الكم » ورغبته العارمة فى « الاقتناء » تؤدى ، فى كثير من الأحيان ، إلى أن تزيد حياته خواء وفراغا ، وتهبط بمستواها « النوعى ».

ومن الغايات الأخرى التى ينبغى أن يستهدفها الإنسان ، فى تخطيطه للمستقبل ، رعاية مصالح الأجيال التى سوف ترثه على هذه الأرض ، وهو أمر لا يستطيع الإنسان الحالى أن يدعى إنه يشغل أقل قدر من اهتمامه . ولقد أشار بعض المفكرين ، فى هذا الصدد ، إلى مثال بسيط ، مألوف ، هو « السيارة الخاصة » . ففى العالم المتقدم صناعيا ، وفى كثير من الدول الغنية غير المتقدمة صناعيا ، وعند قطاعات غير قليلة من سكان الدول الفقيرة ، تسود الآن فكرة استخدام « السيارة الخاصة » وسيلة للتنقل . ولكن ، هل فكر أحد فى كمية الموارد التى تتبدد فى هذا الوسيلة ؟ هل فكر أحد فى كمية الحديد والصلب والبترول وعدد غير قليل من الموارد الأخرى ، التى تستهلكها سيارة خاصة واحدة يستخدمها شخص واحد أو أسرة صغيرة لكى تلقى بعد سنوات قليلة وسط أكوام من الحطام ؟ وهل يحتمل عالم المستقبل ، الذى سيتضاعف عدد سكانه عدة مرات ، مثل هذا الترف ، وهل ستظل موارده قادرة على تلبية هذه الرغبة الاستهلاكية المكلفة ؟ وكم ستكون نسبة القادرين على استخدامها ، بالقياس إلى المجموع الكلى للسكان ، وهل يمكن أن يستمر العالم يسير على أساس هذا التفاوت الصارخ بين أفراد البشر ؟ وماذا سيتبقى للأجيال التى ستعيش من بعدنا إذا أصر الناس على تبديد مواردهم فى هذه الكتل الضخمة من الحديد والبترول والمطاط المتحرك ؟ لهذه الأسباب كلها أكد بعض المفكرين أن « عصر

السيارة الخاصة » يجب أن ينتهي ، إذا أراد الإنسان أن يكون رشيدا في تعامله مع الطبيعة . وما هذا إلا مثل من أمثلة التغيير الذي يجب أن ندخله على عاداتنا الاستهلاكية إذا أردنا أن نترك للأجيال القادمة عالما يمكنها أن تعيش فيه .

وأيا كان الأمر ، فمن المؤكد أن في العالم الآن اتجاهات كثيرة تحتاج إلى تغيير أو مراجعة جذرية . ولما كانت كثير من العادات الاستهلاكية التي ينبغي تغييرها مرتبطة برغبات يصعب على الإنسان ، بعد اعتياده عليها ، أن يتخلص منها ، فإن الأمر سيحتاج إلى مراجعة كاملة لنظم التعليم والتوجيه في المجتمع البشري ، وربما احتاج ــ كما يؤكد الكثيرون ــ إلى التفكير جديا في إقامة نوع من الحكومة العالمية التي تشرف على شئون العالم وفي ذهنها مصالح الجميع ، لا مصالح فئات أو دول معينة فحسب . وبغير هذا قد يكون تحقيق هدف « التعاون مع الطبيعة » أمرا عسير المنال .

مشكلة الوراثة والتحكم في صفات الإنسان :

على الرغم من أن التقدم في الفيزياء والكيمياء ، وفي الأبحاث التطبيقية التي نجمت عنها ، يبدو أنه أبرز السمات للعلم المعاصر ، لأنه قد أدى بالفعل إلى تغيير وجه الحياة على هذه الأرض ، فإن كثيرا من العلماء يؤكدون أن أخطر التطورات في عصرنا الحاضر هي تلك التي تحدث في علم يتقدم بلا ضجيج أو دعاية أو أخبار تنشر على الصفحات الأولى للجرائد ، هو علم الحياة (البيولوجيا) . ويؤكد هؤلاء العلماء أنه إذا كان عصرنا هذا قد شهد تغيرات حاسمة في الحياة بفضل الفيزياء والكيمياء ، فقد بدأت تظهر فيه بوادر تدل على أن العلم الذي سيحدث تغييرات جذرية في العالم خلال القرن المقبل ، وربما قبل ذلك ، هو علم الحياة .

إن العلوم الطبية ، التى ترتبط ارتباطا أساسيا بعلم الحياة ، قد أحرزت ، كما هو معروف ، تقدما هائلا منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وأدى هذا التقدم إلى زيادة كبيرة فى متوسط عمر الإنسان ، على مستوى العالم كله ، وفى الدول المتقدمة بوجه خاص ، كما أدى إلى انخفاض هائل فى نسبة الوفيات بين المواليد . هكذا ازدادت فرص الحياة أمام الإنسان على طرفى العمر ، أى فى أوله وفى آخره . ومن المؤكد أن هذا التقدم قد واجه الإنسان بمشكلات كبرى ، إذ أن زيادة متوسط العمر قد أبرزت بصورة حادة مشكلة الشيخوخة وموقف المجتمع منها ، حيث يعجز هذا المجتمع حتى الأن عن إيجاد حل حاسم لهذه المشكلة ، ولا سيما فى الدول المتقدمة . ففى هذه الدول يزداد بصورة مطردة عدد المسنين الذين يظلون طويلا على قيد الحياة ، وفيها أيضا يعجز نظام الأسرة عن استيعاب هؤلاء المسنين ، إذ أن الأبناء ، الذين يعيشون فى مجتمع تسوده الاعتبارات العملية ويبحث كل فرد فيه عن مصلحته الخاصة ، يضيقون ذرعا بوالديهم ، ولا يجد هؤلاء مفرا من الالتجاء إلى حلول لم يثبت نجاحها حتى الآن ، كبيوت الكبار مثلا . كذلك فإن الانخفاض الكبير فى نسبة الوفيات بين المواليد قد أدى إلى تضاعف نسبة الزيادة السكانية فى العالم ، وخاصة الدول الفقيرة التى كان ارتفاع نسبة الوفيات فيها من قبل يُحدث توازنا مع زيادة النسل . ولكن ، بالرغم من هذه المشكلات ، فمن المؤكد أن التقدم فى العلوم الطبية كان من أعظم الإنجازات الإنسانية التى حققها العلم الحديث خلال القرن الماضى .

ومن ناحية أخرى فقد كانت العلوم البيولوجية أحد الأسس الهامة التى بُنى عليها أختراع العقول الالكترونية . فالسيبرنطيقا ، كما ذكرنا من قبل ، كانت منذ بدايتها تطبيقا للمبادىء البيولوجية وللأسس التى يعمل بها

الجهاز العصبى على الآلات . ولما كانت الثورة الالكترونية هى إحدى الدعامات الرئيسية التى يرتكز عليها عصرنا الحاضر ، ففى وسعنا أن نجد فى هذا مثالا لإنجاز آخر ضخم حققته العلوم البيولوجية فى النصف الثانى من القرن العشرين .

ولكن ، بالرغم من أهمية كل هذه الإنجازات ، فليست هى ما قصدناه حين قلنا إن الانقلاب الذى حدث فى علم الحياة يعد ، فى نظر الكثيرين ، أهم من أى حدث علمى آخر عرفه الإنسان فى هذا القرن ، وأنه يحمل فى طياته بذور تغييرات مذهلة بالنسبة إلى المستقبل ، وإنما الذى نعنيه هو تلك الكشوف التى تمت فى السنوات الأخيرة فى ميدان الوراثة البشرية ، والمحاولات التى لا يكف علماء البيولوجيا عن بذلها من أجل الكشف عن أسرار المخ البشرى .

فمنذ عدد قليل من السنوات ، توصل علماء البيولوجيا إلى كشف خصائص الخلايا الوراثية « الجينات » ومعرفة تركيبها الكيميائى ، واهتدوا إلى أول الخيط الذى يؤدى إلى كشف شفرة الوراثة . وعلى الرغم من أن هذا الكشف لم يُعرف ، خارج نطاق الدوائر العلمية المتخصصة ، إلا فى نطاق ضيق فى بداية الأمر ، فقد كان من السهل إدراك النتائج الهائلة التى يمكن أن يسفر عنها ، مما جعل الكثيرين يعدونه نقطة بداية لعصر جديد ، قد لا تتضح معالمه كلها فى الوقت الراهن ، ولكن من المؤكد أنها ستظهر فى وقت ليس بالبعيد .

ذلك لأن معنى هذا الكشف هو أن العلم بدأ يسير فى الطريق المؤدى إلى معرفة العوامل الوراثية بدقة ، ومن ثم معرفة سر من أهم أسرار الحياة . ولو سار العلم فى هذا الطريق شوطا بعيدا ، لاستطاع أن يتحكم بطريقة إرادية فى الوراثة البشرية ، بحيث يغير من خصائص الجنات تغييرا

متعمدا ، فتكون النتيجة تغيير صفات المواليد الجدد . وعلى حين أن الإنسان قد ظل حتى الآن يقبل خصائص الأجيال الجديدة من ذريته على ما هي عليه ، فإن التطور البيولوجي الذى نتحدث عنه قد وضع العلم فى أول الطريق المؤدى إلى توسيع نطاق سيطرة الإنسان بحيث تمتد إلى ادخال تغييرات أساسية على مواليده الجدد . وكما أن الصناعة قد مدت سلطان الإنسان على إنتاجه الاقتصادى بحيث لم يعد مقتصرا على ما تجود به الأرض فى الزراعة ، بل أصبح الإنسان يحوّر موارد الطبيعة ويشكلها وفقا لإرادته ، كذلك يبدو أن العلم قد أمسك الآن بأول الخيط المؤدى إلى إحداث تغيير مماثل فى الكائنات البشرية التى تتألف منها أجياله الجديدة ، بحيث تصبح علاقة العصور التى سيتحقق فيها هذا الإنجاز الضخم بالعصور السابقة أشبه بعلاقة العصر الصناعى بعصور الزراعة والرعى والالتقاط .

- كذلك تؤدى الأبحاث التى تجرى فى ميدان دراسة المخ البشرى إلى نتائج مماثلة . ذلك لأن هذا العضو شديد التعقيد ظل غامضا حتى عهد قريب ، ولم تكن معلوماتنا عنه تمثل إلا قدرا ضئيلا جدا مما ينبغى على الإنسان معرفته عن أهم أجزاء جسمه جميعا . ولكن المعرفة العلمية فى هذا المجال تضاعفت إلى حد هائل فى السنوات الأخيرة ، وبدأ العلماء يقتربون من اليوم الذى يستطيعون فيه أن يعرفوا آلية العمليات التى تتم فى المخ ، ونوع التغييرات الفيزيائية والكيميائية التى تحدث فيه عندما يؤدى وظائفه المختلفة ، وطبيعة مراكز القدرات االذهنية المختلفة وكيفية التحكم فيها ، إلى آخر هذه الأسرار التى ظلت مستغلقة على البشر حتى وقت قريب . ومن المؤكد أن التقدم فى علم السيبرنطيقا والخلايا الالكترونية كان له دور كبير فى هذا الصدد ، أى أن العلم ، مثلما استعان بمعلوماته المتوافرة عن الجهاز العصبى البشرى ــ وضمنه المخ ــ فى استحداث علم السيبرنطيقا ، قد

استعان بهذا العلم بدوره ، بعد تطويره ، لكى يلقى مزيدا من الضوء على طبيعة العمليات التى تحدث عندما يؤدى المخ البشرى وظائفه العصبية والنفسية والعقلية . ونتيجة هذه الكشوف ستكون فائقة الأهمية ، إذ أنها ستتيح للعلم ، يوما ما ، أن يتحكم فى تركيب المخ البشرى ، ويزيد أو ينقص قدرات معينة فيه إلى حد لم تعرفه البشرية من قبل .

على أن المرء ، بقدر ما يغتبط لقدرة العلم على الامتداد بسيطرة الإنسان بحيث تسرى حتى على طبيعته الداخلية الخاصة ، بعد أن قطع شوطا بعيدا فى السيطرة على الطبيعة الخارجية ، لا يملك إلا أن يشعر بالجزع من جراء الاحتمالات المخيفة التى تثيرها هذه الكشوف ، وخاصة إذا تصورنا أن هذه الاحتمالات قد تحققت فى اطار التنظيمات الحالية للمجتمعات البشرية . ففى يد من سيُترك هذا التحكم فى حياة الإنسان وفى خصائصه الوراثية ؟ وما هى الأهداف التى ينبغى أن تراعى فى ادخال هذه التعديلات الخطيرة ، ومن الذى سيحدد هذه الأهداف ؟ بل إن السؤال الذى يسبق هذه الأسئلة هو : هل يجوز التفكير أصلا فى تعديل قدرات الإنسان ، وإلى أى مدى يعد مثل هذا التدخل أمرا مشروعا ؟ وهل يكون من حقنا أن نتخذ من الإنسان ، وهو أرفع الكائنات مكانة ، موضوعا للتجارب ، وللتشكيل المتعمد فى المختبرات ؟

إن الخيال العلمى كان ، منذ وقت بعيد ، يجزع أشد الجزع لمثل هذا التلاعب فى الطبيعة البشرية ، ويصوره بصورة شديدة التشاؤم فى قصة مثل قصة « فرانكنشتين » ، ذلك الكائن المخيف الناتج عن تلاعب العلم فى المخ البشرى . ومن النادر أن نجد ، منذ ذلك الحين ، قصة تصور نتيجة تدخل العلم فى قدرات الإنسان الطبيعية بصورة تبعث على التفاؤل والأمل . والواقع أن هذا التشاؤم له ما يبرره : إذ أننا لو تخيلنا أن العلم قد اكتسب

قدرات كهذه فى ظل الأوضاع الاجتماعية والسياسية الحالية ، فإن الاحتمالات تكون مخيفة حقا .

فمن الممكن أن تستغل الدول ذات الأنظمة العدوانية كشفا علميا كهذا لكى تزيد من قسوة مواطنيها أو من قدراتهم على سحق خصومهم بلا رحمة . ومن المؤكد أن مثل هذا الكشف لو تُرك لسياسيين من النوع الذى اتخذ قرار استخدام القنبلة الذرية فى هيروشيما ، لا ستغلوه أبشع استغلال . كذلك لو تخيلنا أن هذه القدرة الفائقة للعلم على تشكيل صفات البشر قد وضعت فى يد مجتمع يحكمه أصحاب الأطماع الاقتصادية والمصالح التجارية ، لكان من الجائز أن يستغلوها فى تكوين أجيال بشرية تعمل بلا شكوى ، وبلا كلل ، فى مصانعهم ، أو تستهلك منتجاتهم طائعة ، وربما تعمدوا أن تكون هذه الأجيال ، فى معظمها ، نمطية لا تنوع فيها .

وهكذا فإن هذه القدرة الهائلة على التحكم فى طبيعة الإنسان ينبغى أن تقترن بها قدرة مماثلة على التحكم فى التنظيمات الاجتماعية البشرية . ومن المؤكد أننا فى حاجة إلى نوع جديد من السلطة ، ومفهوم جديد للعلاقات بين البشر ، حتى يمكننا أن نأمن عدم استغلال هذه الكشوف ضد مصلحة الإنسان . وإذا كنا حتى الآن نعد هذه الاحتمالات بعيدة ، فإن العلماء يقولون غير ذلك ، إذ أن العلم قد اجتاز بالفعل بداية الطريق الذى سيؤدى به ، عاجلا أو آجلا ، إلى جعل هذه الاحتمالات حقيقة واقعة .

ومع ذلك فإن احتمال توصل الإنسان إلى نوع من التنظيم الاجتماعى الذى يجعله أهلا لمواجهة عصر التحكم فى القدرات البشرية هذا ، يبدو أضعف من احتمال وصول العلم إلى هذا العصر ذاته . وتلك ظاهرة تبدو محيرة بحق ، إذ أن تغيير التنظيمات الاجتماعية والسياسية أمر يدخل فى نطاق قدرتنا ، ولا يتضمن عناصر خفية أو مجهولة أو مستحيلة التحقيق ،

على حين أن الوصول بالكشف العلمى إلى غايته ينطوى على قدر كبير من الصعوبة ، ويدخل جزء كبير منه فى باب المجهول الذى لم تتحدد معالمه بعد . ولكن طغيان المصالح وسيطرة الأنانية يجعل التغيير الواقع فى نطاق سيطرتنا أصعب وأبعد منالا من ذلك الذى يخرج عن هذا النطاق .

وعلى أية حال فإن المستقبل يحمل فى طياته مفاجآت كثيرة فى هذا الميدان ، لا تقل عن تلك التى حملها إلينا العلم ، فى ميدان الفضاء ، خلال الأعوام العشرين الماضية . والمأمول أن يثبت العقل البشرى أنه قد بلغ من النضج ما يسمح له بالتحكم فى ذاته بنفس الكفاءة التى تحكمّ بها فى العالم المحيط به .

مشكلة التسلح :

هذه بغير شك أخطر المشكلات التى يواجهنا بها العلم المعاصر ، وهى التى يتوقف عليها حل كثير من المشكلات التى عرضناها من قبل ، إن لم يكن جميعها. وهى تتميز بطابع فريد عن غيرها من المشكلات التى تواجهها الإنسانية : إذ أنها « مصيرية » بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، لأن من طبيعة الأسلحة المعاصرة أنها قادرة على افناء العالم كله ، حقيقة لا مجازا ، فى لحظات .

ولقد كان الوضع الطبيعى ، والمعقول ، هو أن يرتبط العلم بالسلم لا بالحرب ، إذ أن العلم نتاج العقل ، والعقل لا يعترف بلغة العنف فى فض المنازعات ، بل يحكمّ المنطق السليم فى أى خلاف . وكان هذا بالفعل ما تصوره المفكرون والفلاسفة فى عصر التفاؤل والاستنارة الفكرية فى القرن الثامن عشر ، حين أكد العقل ، من خلال العلم ، انتصاره على الخرافة والتعصب وضيق الأفق . فقد كان الحلم الذى يراودهم ــ وعلى رأسهم الفيلسوف الألمانى الكبير إيمانويل كانت ــ هو أن يؤدى انتشار العلم إلى

اقرار « سلام دائم » ، وذلك على أساس أن المعقولية التى يشيعها العلم لابد أن تؤدى بالإنسان إلى نبذ الحرب من حيث هى وسيلة لفض النزاعات ، والاحتكام إلى العقل القادر على إيجاد وسيلة سلمية لحل كل خلاف .

ولكن هؤلاء الفلاسفة كانوا ، بغير شك ، متفائلين إلى حد السذاجة . ومن الممكن التفكير فى أسباب كثيرة ربما كانت هى التى أدت بهم إلى الوقوع فى هذا الخطأ : فربما كانوا مخطئين حين تصوروا أن العقل ، فى حالة العلم ، هو وحده الذى يتحكم فيما ينتجه ، وتجاهلوا بذلك عنصر المصالح والأحقاد والأطماع ، وتدخُّل الحكام - من غير العلماء - فى عمل العالم . وأيا كان الأمر فقد كانوا ساذجين حين استبعدوا احتمال استخدام العقل من أجل نشر الجنون ، واستغلال العلم - وهو أعظم أداة فى يد العقل لإعلاء الحياة - من أجل الخراب والموت ، إذ كان هذا الاحتمال هو الذى تحقق بالفعل طوال الجزء الأكبر من تاريخ البشرية .

فقد ارتبط العلم بالحرب منذ أقدم العصور : إذ كانت عبقرية العلماء تُستخدم فى زيادة قدرة الإنسان على القتال والقضاء على الخصوم ، بقدر ما كانت تستخدم فى فهم قوانين الطبيعة . ومنذ عهد « أرشميدس » نجد العلم يتجه إلى خدمة الأغراض العسكرية ، بل يبدو أن استخدامه فى الحرب كان يفوق فى أهميته ، فى كثير من الأحيان ، استخدامه فى السلم . فمن المعروف ، على سبيل المثال ، أن عالما كبيرا مثل « جاليليو » قد نال رضاء الحاكم عنه ، لا لأنه اكتشف قانون القصور الذاتى أو قانون سقوط الأجسام أو صحح معلوماتنا الفلكية ، بل لأنه أقنعه بأن كشوفه فى الميكانيكا وعلم المقذوفات قادرة على تحسين الأسلحة وزيادة دقة تصويبها إلى حد بعيد . ويكاد يكون من المؤكد أن أبحاثه فى ميدان الأسلحة هى التى أتاحت له فرصة القيام بأبحاثه الأخرى ، الأهم بكثير ، فى ميدان الطبيعة والفلك .

وقد حدث ذلك من قبل لعبقرى النهضة الإيطالية ، ليوناردو دافنشى ، ولعدد كبير من العلماء فيما بعد .

بل إن كثيرا من الكشوف العلمية السلمية قد ظهرت « فى ظل » أبحاث ذات أهداف حربية ، مما دفع بالكثيرين إلى القول بأن العبقرية البشرية تتجلى فى الميادين العسكرية أكثر مما تتجلى فى الميادين السلمية ، وأن الإنسان أقدر على استخدام العلم من أجل الموت منه على استخدامه لخدمة الحياة . ولكن حقيقة الأمر هى أن التطور السريع للبحث العلمى أيام الحرب يرجع إلى عوامل من بينها الأحساس بالخطر الداهم ، وتجنيد المجتمع لكل الكفاءات الممكنة ، وتركيزه لقواه البشرية وموارده المادية فى سبيل إيجاد حل سريع للمشكلات التى تعترض جهده الحربى ـ وكل هذه عوامل لا وجود لها فى فترات السلم .

على أنه ، مهما كانت طبيعة العلاقة بين الكشوف السلمية والكشوف الحربية فى القرون الماضية ، فإن تطورا هاما وحاسما قد طرأ على هذه العلاقة فى القرن العشرين ، الذى بدأه الإنسان ومازال للخيل والفرسان دور فى حروبه ، وانتهى به الأمر ، فى عصرنا الحاضر ، إلى حرب الأزرار الالكترونية والصواريخ العابرة للقارات وأشعة الليزر والقذائف النووية . ففى القرن العشرين قفزت أداة الحرب ووسائل القتل والدمار ، قفزة هائلة إلى الأمام . وبقدر ما نجح العلم فى إطالة عمر الإنسان ، عن طريق كشوفه الطبية والبيولوجية ، وفى تحقيق الرخاء والرفاهية لحياته ، عن طريق المخترعات التكنولوجية ، نجح أيضا (إن كان اسم « النجاح » يصلح للانطباق على هذه الحالة) فى اختراع أفتك وأشرس أدوات القتل الجماعى ونشر البؤس والتعاسة بين البشر .

ولقد كان الارتباط بين العلم وبين تطوير الأسلحة ، من الوثوق إلى حد

أن أطلق البعض على الحرب العالمية الأولى اسم حرب الكيميائيين (إشارة إلى دور الكيمياء فى صناعة المتفجرات وتطوير الوقود ثم الغازات السامة فى هذه الحرب) وعلى الحرب العالمية الثانية اسم حرب الفيزيائيين (إشارة إلى دور الفيزياء فى صنع القنبلة الذرية والرادار وغيرهما) . أما الحرب الثالثة فستكون ــ إذا وقعت ــ حرب علماء الصواريخ والفضاء والالكترونيات ، أى أن دور العلماء فى هذه الحروب يفوق فى أهميته دور الجيوش المحاربة ، بل أصبح العلم متغلغلا فى عمل الجندى المحارب ذاته .

وليس من السهل أن يحدد المرء النقطة التى بدأ عندها التحول من أسلحة الدمار المحدود إلى أسلحة الدمار الشامل ، إذ أن الحرب العالمية الثانية ، التى استخدمت فى جميع جبهاتها (باستثناء المرحلة الأخيرة من جبهة الشرق الأقصى) أسلحة تقليدية ، أدت إلى قتل عشرات الملايين من العسكريين والمدنيين ، منهم ثلاثون مليونا من الإتحاد السوفيتى وحده . ولكن من المؤكد أن اختراع القنبلة الذرية واستخدامها فى هيروشيما ثم نجازاكى ، فى أغسطس ١٩٤٥ ، يمثل نقطة تحول حاسمة فى تاريخ التسلح المرتكز على كشوف علمية .

ولقد كانت دوافع العلماء الذين بدأوا هذا المشروع إنسانية خالصة ، إذ كان الهدف الأصلى للمشتغلين فى هذا المشروع ، كما ذكرنا فى الفصل السابق ، هو الحيلولة دون قيام هتلر بفرض مبادئه الإرهابية والعنصرية على العالم عن طريق هذا السلاح الرهيب . ولكن الذى حدث بالفعل هو أن هزيمة هتلر قد تمت دون الحاجة إلى استخدام هذا السلاح ، وقبل أن يتمكن العلماء الألمان من تطويره . وإذا كانت اليابان قد ظلت تحارب بعد ألمانيا فقد كان العالم كله يعرف أن أيامها معدودة ، وأنها أخذت تنسحب من موقع تلو الآخر ، ولم يكن فى إمكانها مواجهة الحلفاء الذين تفرغوا لها بعد هزيمة

حلفائها الألمان . ومن هنا فقد كان العلماء الذين شاركوا فى صنع القنبلة هم أشد الناس ذهولا حين فوجئوا بنبأ إلقاء القنبلتين الذريتين ـــ الأوليين والأخيرتين حتى الآن ـ على المدينتين اليابانيتين . وكان الدمار الذى أحدثته القنبلتان ، وعدد الأرواح التى أزهقت ، ومعظمها من المدنيين ، وكذلك عدد المصابين بحروق و اشعاعات وتشويهات ـــ كان ذلك كله شيئا يفوق فى بشاعته كل وصف .

ولم يجد هؤلاء العلماء مبررا معقولا لاستخدام اكتشافهم على هذا النحو الوحشى . وإذا كان أصحاب القرار السياسى قد أكدوا أن القنبلتين انقذتا أرواح ألوف كثيرة من الجنود الامريكيين الذين كانوا سيقتلون لو لم تستسلم اليابان ، فإن تقديرات الخبراء كانت تذهب كلها إلى أن اليابان كانت فى حكم المهزومة ، وكانت تفاوض سرا للاستسلام قبل إلقاء القنبلتين . فما الداعى إذن لكل هذه الآلام البشرية التى لحقت بمدنيين أبرياء ؟ الواقع أن عددا من المحللين السياسيين قد ذهبوا إلى أن المقصود من إلقاء القنبلتين لم يكن الاسراع بهزيمة اليابان ، بل كان قبل ذلك تأكيد سيادة الولايات المتحدة بوصفها الدولة العالمية الكبرى بعد الحرب العالمية الثانية ، وإرهاب العالم ، وخاصة الإتحاد السوفيتى الذى كان قد بدأ يؤلف « معسكرا اشتراكيا » بعد هذه الحرب ، حتى لا تحاول أيه دولة ، أو أى نظام مضاد ، منافسة القوة العسكرية والاقتصادية الهائلة للولايات المتحدة .

على أن أمثال هذه المبررات ، إذا كانت تقنع بعض السياسيين ممن لا يفكرون إلا من خلال مصالحهم ، لا يمكن أن تقنع علماء يضعون نصب أعينهم ، قبل كل شىء ، الأهداف الإنسانية . ومن هنا فقد انتابت العلماء الذين شاركوا فى صنع القنبلة الذرية « أزمة ضمير » حادة ، وشعروا بأن جهودهم قد أدت إلى ادخال الإنسانية عصرا جديدا ، هو عصر أسلحة

« الدمار الشامل » التى لا تفرق بين الجنود المحاربين وبين النساء والأطفال ، والتى تهدد الحياة على سطح هذا الكوكب بالفناء التام .

ولقد كانت أزمة الضمير هذه هى التى دفعت عددا غير قليل من هؤلاء العلماء ، ومنهم أينشتين نفسه ، إلى أن يكرسوا بقية حياتهم من أجل الدعوة إلى السلام ، بل إن منهم من أصبح محاطا بالشبهات ، مثل روبرت أوبنهيمر R .Oppenheimer ، الذى وصل به الندم حدا جعل سلطات الأمن فى بلاده تراقبه عن كثب ، ثم تبعده عن مواقع المسئولية فى عمله ، خوفا من أن يعمل على تسريب أسرار الأسلحة الجديدة إلى المعسكر الاخر . وكان من هؤلاء العلماء فريق قام بالفعل بنقل هذه الأسرار إلى الطرف المعادى للولايات المتحدة ، لا من أجل المال ، بل لدوافع يعتقد إنها إنسانية : إذ أن امتلاك طرفى النزاع الدولى للقنبلة الذرية هو الكفيل بإيجاد حالة من التوازن يمتنع فيها كل من الطرفين عن استخدامها خوفا من الآخر . ومن المؤكد أن عمل هؤلاء العلماء يعد ، بالمقاييس الأخلاقية الخالصة ، عملا إنسانيا جليلا ، ولكنه بمقاييس القوانين العادية خيانة للوطن .

ومنذ ذلك الحين طرأ تطور هائل على القوة التدميرية للأسلحة النووية ، حتى أصبحت قنبلتا هيروشيما ونجازاكى أشبه « بلعب الأطفال » بالقياس إلى القنابل الهيدروجينية الحالية . كما طورت الصواريخ بحيث تستطيع أن تحمل رءوسا نووية وتصيب أى مكان فى العالم ، سواء من قواعد ثابتة أم من قواعد متحركة (كالغواصات النووية) . وكانت هذه التطورات كلها مرتبطة ارتباطا أساسيا بالعلم ، إذ أن علماء فترة « الحرب الباردة » لم يكونوا على نفس القدر من الحساسية الذى كان عليه رواد القنبلة الذرية ، ربما لأن هؤلاء الأخيرين كانوا قد خرجوا لتوهم من أهوال الحرب العالمية الثانية ، وربما لأن أسلحة الدمار الشامل قد أصبحت بعد ذلك شيئا مألوفا ،

تُحسب قدرته التدميرية بحسابات رياضية باردة لا تؤخذ فيها آلام الإنسانية بعين الاعتبار .

ونتيجة ذلك كله هى أن العالم يعيش الآن على طرفى « توازن الرعب » الذى تقوم فيه الدولتان العظمتان : أمريكا والإتحاد السوفيتى ، بتكديس كميات من الأسلحة تكفى لقتل العالم كله عدة مرات (ولست أدرى لماذا ؟ !) ، وتقف فيها الصواريخ ذات الرءوس النووية على أهبة الاستعداد ، فى انتظار ضغطة زر من رئيس الدولة ، وتراقب فيه كل دولة الأخرى مراقبة دائمة ، فى انتظار أيه إشارة تنبىء بخروج الصواريخ منها ، لكى تضرب « الضربة الانتقامية » قبل وصول الصواريخ المعادية إليها . ولو قدر للبشرية أن تعيش قرنا آخر أو قرنين ، فمن المؤكد إنها سوف تسخر ما شاءت لها السخرية من حالة الرعب المتبادل التى يعيش فيها إنسان اليوم فى أرقى دول العالم ، وهى حالة « بدائية » بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، حتى وإن كانت تستخدم فيها أرقى وأحدث تطورات العلم .

ولقد حاول البعض أن يخففوا من تأثير الاتجاه إلى تسخير العلم للأغراض العسكرية ، فذهب برونوفسكى Bronowski إلى أن هذا الاتجاه ، وإن يكن سلبيا بغير شك ، يتضاءل إلى جانب الإنجازات الإيجابية للعلم فى نفس الميدان الذى ننتقد العلم من أجله ، أعنى ميدان الحياة والموت . فحين نتحدث عن الأبحاث العلمية التى تستهدف الموت ، ينبغى أن نتذكر فى الوقت نفسه ما صنعه العلم من أجل الحياة : « فعدد الأشخاص الذين قتلوا فى بريطانيا خلال الأعوام الستة للحرب العالمية الثانية نتيجة للقنابل ، والقنابل الطائرة وصورايخ ف ٢ الألمانية كان ستين ألفا . وقد فقد هؤلاء الناس ، فى المتوسط ، نصف أعمارهم . وبقسمة بسيطة يتضح أن تأثير هذا على سكان بريطانيا البالغ عددهم خمسين مليون

معناه انتقاص متوسط العمر بنسبة تقل عن عشر الواحد فى المائة ، أى أن متوسط عمر كل فرد نقص حوالى أسبوعين . فلنضع هذا فى جانب الخسارة . أما فى جانب المكسب فنحن نعلم أن متوسط العمر قد زاد فى إنجلترا خلال الأعوام المائة الأخيرة بمقدار عشرين عاما ... أى أن لدينا أسبوعين مقابل عشرين عاما من الحياة » (١)

على أن المغالطة هنا واضحة : إذ أن الأرقام لم تتناول سوى الضحايا المدنيين ، وتجاهلت الضحايا العسكريين فى نفس البلد ، فضلا عن أن المقارنة كان يجب أن تكون بين خسائر كل الحروب التى نشبت خلال مائة عام ، والتى نجمت عن التقدم العلمى والتكنولوجى . ولكن الأهم من ذلك أن كوارث البشرية ليست مسألة أرقام واحصاءات ، بل إن التسلح ، سواء استخدم بالفعل أم ظل يهدد « الآخرين » فى كل لحظة ، يخلق دمارا نفسيا وخوفاً مستمرا من الفناء ، ويولد انحرافات نفسية وخلقية لم يعرفها العالم إلا فى عصرنا هذا ، ويبدد موارد الإنسان وجهده بلا طائل .

لذلك فإن هذا الجنون المدمّر الذى يسيطر على عالم اليوم بفضل التسليح ، قد أعطى لأعداء العلم فرصة هائلة لمهاجمته : إذ أن العلم هو الذى يتيح للدول المتقدمة تطوير أسلحتها ، ومن ثم فإنهم يستنتجون من ذلك أن العلم « هو المذنب » . ولكن حقيقة الأمر هى أن العلم ، إذا كان هو أساس الأبحاث المؤدية إلى تطوير أسلحة الدمار ، فمن المؤكد أنه خاضع لتحكمّ قوى أخرى خارجة عنه : هى القوى التى تخطط له وتحدد اتجاهاته ، إن سلما أو حربا ، وتمول أبحاثه وتوظف المشتغلين فيه ، وهى القوى التى تتخذ القرار وتنفذه بعد أن يتم الكشف . وهذه القوى سياسية فى المحل

---

(1) Bronowski Books : The Common Sence of Science . Pelican 1960 . p 150

الأول ، تتحكم فى اتجاهاتها الأطماع والمصالح ولا تصدر قراراتها بعد استشارة العلماء إلا نادرا . والمثل الواضح على ذلك هو القنبلتان الذريتان الأوليان أيضا : فقد كان من رأى العلماء الذين اخترعوها أن تجرى تجربة دولية أمام مندوبين من مختلف بلاد العالم لاطلاعهم على مدى القوة التدميرية للقنبلة ، ويطلب إلى اليابان أن تستسلم على هذا الأساس . ولكن الحاكم السياسى ، وهو الرئيس « ترومان » في ذلك الوقت ، كان له رأى آخر ، وحين اتخذ قراره باستخدام القنبلتين ضد أهداف مدنية كان يسير فى اتجاه مضاد تماما لما يريده العلماء.

إن العلم لا يحمل فى ذاته اتجاهات عدوانية ، وإذا كان يعادى شيئا فهذا الشىء هو الجهل والشعور بالعجز أمام قوى الطبيعة . ولكن طبيعة البحث العلمى فى عصرنا هذا ، قد طرأ عليها من التعقيد ما يجعل العالم مضطرا إلى الاذعان لسلطة أقوى منه . فالأجهزة العلمية أصبحت باهظة التكاليف ، وأدوات البحث ، من كتب ومراجع ، لابد أن توفرها الدولة ، ومن هنا أصبح العالم مجرد ترس فى آلة ضخمة هى الدولة ، أو هى الشركة الكبيرة إن كان فى بلد يسوده النشاط الاقتصادى الخاص . وهكذا أصبحت الاعتبارات السياسية أو الاقتصادية هى التى تتحكم في عمله العلمى ، وهى التى ترسم له الخطة ، وتحدد اتجاهات بحثه ، وتتخذ القرار النهائى بشأن التصرف فيه .

ولو نظرنا إلى الموضوع من وجهة نظر علمية خالصة لبدا ذلك الجهد الذى تبذله دول العالم اليوم فى ميدان التسلح أمرا متنافيا مع كل الأهداف التى يسعى إليها أى عالم يحترم مهنته ويفهم وظيفتها فهما صحيحا . ذلك لأن هناك أموالا طائلة تتبدد من أجل إنتاج أسلحة تظل مخزونة بضع سنوات ثم يظهر ما هو أحدث منها ، فتهمل أو تباع إلى دول أخرى أقل تقدما وأقل

ذكاء . وهذه الأموال كافية لتحقيق كثير من الأحلام التى يتمنى العلماء لو كرسوا لها حياتهم ، بل إن المشروعات التى يمكن إنجازها ، فيما لو خصصت هذه الأموال الطائلة للأغراض السليمة ، كفيلة بتغيير مجرى الحياة على وجه الأرض ، وبالقضاء على مظاهر الجوع والفقر والجهل والمرض . ومثل هذا يقال عن الموارد الطبيعية ، من معادن ، ومصادر للطاقة ، التى تبددها مشروعات التسليح ، والتى يحتاج إليها الإنسان فى عالمنا المعاصر احتياجا شديدا . وربما كان الأهم من ذلك أن العمل فى الميدان العسكرى يستقطب ، فى البلاد الصناعية الكبرى ، عددا من أفضل العقول التى كان يمكن أن تقدم إلى البشرية أجلّ الخدمات لو اتجهت فى طريق بنّاء بدلا من أن تخدم أغراض التسلح الهدامة . كل هذا التبديد يحدث من أجل هدف لا تجنى منه الإنسانية سوى الخسارة . فلو استخدمت الأسلحة الهائلة المكدسة لكان معنى ذلك فناء الحياة على سطح هذه الأرض فى دقائق معدودات ، ولو لم تستخدم وظلت مخزونة لكان معنى ذلك تبديد أفضل الموارد والطاقات المادية والبشرية ــ فى عالم يعانى من عدد هائل من المشاكل ــ فى صنع منتجات لن يستخدمها أحد .

وإذن ، فلو تُرك الأمر للعلماء لكان موقفهم ، قطعا ، فى جانب الاستخدام السلمى لموارد مجتمعاتهم . ولابد أن هناك قوى أخرى ، على رأسها ذلك « التحالف الصناعى العسكرى » ، الذى أشار إليه أيزنهاور نفسه ــ أعنى رئيس أكبر دولة صانعة للأسلحة فى العالم ، وقائد أكبر جهاز عسكرى فى الحرب العالمية الثانية ــ وأكد أنه يقف من وراء هذا السباق الجنونى فى التسلح .

على أن هذا لا يعفى العالم من المسئولية . فبقدر ما أصبح عمل العالم فى أيامنا هذه ، يؤثر على مصير البشرية تأثيرا مباشرا ، أصبح هذا

العالم مطالبا بأن يكون لديه مزيد من الوعى بنتائج عمله . ولاشك أن هذا الوعى أمر عسير ، فى الوقت الراهن بالذات ، إذ أن العلم يزداد تفرعا وتخصصا على الدوام ـ بينما الوعى يحتاج إلى نظرة شاملة وأفق واسع . أى أن تطور العلم نحو التخصص المتزايد يسير فى اتجاه مضاد لذلك الوعى الاجتماعى والسياسى الذى أصبح العالِم مطالبا به ، حتى لا يقع فريسة لسوء الاستغلال . ولكن عددا غير قليل من أقطاب العلم فى عصرنا هذا تمكنوا من الجمع بين التفوق فى تخصصهم ، والقدرة على تكوين نظرة متكاملة تجمع بين حاجات العلم وحاجات الإنسان فى المجتمع المعاصر . وهؤلاء الأقطاب هم الذين ترتفع أصواتهم فى كل مناسبة ، منادية باستخدام العلم لأهداف إنسانية ، ومؤكدة أن العلم قادر ، لو استخدم من أجل بناء حياة الإنسان لا هدمها ، على أن يحيل الصحراء إلى جنة ، ويطعم الملايين العديدة من الأفواه الجائعة ، ويخلص المرضى من آلامهم ، ويكفل للمحرومين إنتاجا سخيا فائضا ، ويرعى عقل الإنسان فى كل مكان بثقافة عالية وفن رفيع . وصحيح أن أصواتهم هذه ليست لها الكلمة الأخيرة ، ولكن كلمتهم مع ذلك مؤثرة . ولو اتسعت قاعدة الوعى بين العلماء لأصبح لديهم من القوة ما يمكنهم ، على الأقل ، من موازنة حماقات السياسيين .

ومع ذلك فإن للموضوع من الخطورة ما يتجاوز نطاق اهتمام العلماء . فالمشكلة تتعلق بمصير النوع البشرى كله ، وهذه مسألة أخطر من أن تترك فى أيدى العلماء ، حتى ولو كان وعيهم عميقا ، وأخطر بالطبع من أن تُترك فى أيدى السياسيين أو أصحاب المصالح الاقتصادية . فعلى أى نحو إذن ينبغى على البشرية أن تواجه مثل هذه المشكلة الحاسمة ؟ هذا ما سنحاول مناقشته فى الجزء الأخير من هذا الفصل .

العلم والقيم الإنسانية :

تشير المشكلات السابقة كلها ، بصورة واضحة كل الوضوح ، إلى حقيقة أساسية هي أن التقدم العلمي المعاصر يسير في طريق تفجير النظم الاجتماعية التي ظل الإنسان يعيش في ظلها حتى اليوم . فمشكلة الغذاء والسكان لا تحل إلا على نطاق عالمي لم يتوافر الإطار اللازم له حتى الآن . ومشكلة البيئة سوف تخرج من أيدينا إن لم نواجهها بإجراءات تتجاوز نطاق أية دولة على حدة . ومشكلة الموارد الطبيعية تقتضي منا نوعا من التفكير في الحاضر وفي المستقبل يخرج عن إطار « الأنانية » و« المصلحة » و« حب الاستهلاك » التي تسود المجتمعات البشرية الحالية . ومشكلة الوراثة والتحكم في الإنسان تبدو في نظرنا شيئا مخيفا إذا تصورناها في إطار النظم السائدة الآن في العالم ، وأساليب التفكير التي تحكم العلاقات بين الدول أو بين فئات المجتمع الواحد . وأخيرا ، فإن مشكلة التسلح ، وهي أخطر المشكلات جميعا ، تضع أمامنا الخيار واضحا : فإما أن نمضي قدما في طريق تطوير أسلحة الدمار الشامل في ظل نظام المنافسة والعداوة الحالي ، فنقع جميعا في الهاوية ، وإما أن نعيد النظرة في أهدافنا ونستغل قدراتنا العلمية المتزايدة من أجل تحقيق رخاء لم تحلم به البشرية في أي عصر من عصورها. وهذا يقتضي تغييرا أساسيا في طبيعة النظم التي تسود المجتمع الإنساني . وباختصار فإن التقدم العلمي الذي نشهد بوادره القوية في هذه الأيام ، سيضعنا أمام « طريق السلامة » و « طريق الندامة » كما يقول التعبير الشعبي البليغ . وليس لنا من خيار سوى السير في الطريق الأول ، لأننا لو اخترنا الثاني فلن نكون هناك لكي نندم !

ولكن ، ما الذي يستطيع العلماء أن يفعلوه ، في موقف كهذا ، وما الذي يعجزون عن القيام به ؟ الواقع أن الآراء تختلف في هذا الموضوع ، بين

أولئك الذين يؤمنون بأن العلم هو الذى يستطيع أن يحل كافة المشكلات التى خلقها تقدمه السريع ، وأولئك الذين ينادون بضرورة الاستعانة بمصادر أخرى غير العلم لكى نعيد ذلك التوازن الذى أخل به العلم . وكل من هذين الرأيين يستند إلى حجج معقولة ، وإن كنت أعتقد ـ كما سأبين فيما بعد ـ أن الفرق بينهما ليس كبيرا إلى الحد الذى يبدو عليه للوهلة الأولى .

أما الرأى الأول ، الذى يذهب إلى أن العلم هو الكفيل بإصلاح ما أفسده التقدم العلمى ذاته ، فيمكن أن يبدو فى ظاهره متناقضا ، إذ أن التقدم العلمى إذا كان قد خلق مشكلات معينة ، فمن غير المعقول ، على ما يبدو ، أن تعالج هذه المشكلات عن طريق العلم نفسه ، لأن هذا مجال لا ينفع فيه المثل القائل : « وداونى بالتى كانت هى الداء » . ولكن هذا التناقض الظاهرى يختفى بسهولة إذا أدركنا أن معنى العلم ليس واحدا فى الحالتين . فالعلم المتقدم ، الذى خلق مشكلات عديدة ، هو العلم الطبيعى ، أما العلم الذى يمكنه أن يحل هذه المشكلات ، فهو العلم الإنسانى .

ولقد لاحظ مفكرون أن تقدم العلم ، فى الآونة الأخيرة ، يفتقر إلى التوازن.فهناك ميادين أحرز فيها تقدما هائلا ، هى التى تتعلق بالعالم الطبيعى ، على حين أن هناك ميادين أخرى لا يزال العلم يحبو فى أولها ، وهى الميادين الخاصة بالإنسان . ومن المستحيل أن يكون هذا التفاوت الشديد فى التقدم راجعا إلى مدى أهمية الميدان الذى يبحثه العلم بالنسبة إلينا . ذلك لأن أحدا لا يستطيع أن يزعم أن التنبؤ باليوم والدقيقة والثانية التى سيحدث فيها الكسوف التالى للشمس ، أهم فى نظرنا من الاهتداء إلى علاج لمرض السرطان ، أو أن أرسال قذيفة إلى مكان محدد على سطح القمر يهمنا أكثر من معالجة انحرافات الشباب ، أو أن كشف التركيب الداخلى للذرة أهم من الاهتداء إلى أساليب تحقق الاستقرار للاقتصاد

القومى . فمن حيث الأهمية يبدو لنا أن الموضوعات التى تمس الإنسان مباشرة هى الأهم ، ومع ذلك فإن العلم ما زال فى هذه الموضوعات أشد تخلفا منه فى الموضوعات الأخرى التى قد يكون بعضها متعلقا بظواهر بعيدة عنا كل البعد .

والتعليل الشائع لهذا التقدم غير المتوازن ، مستمد من طبيعة الميادين التى يبحثها العلم : فهناك ميادين أبسط من غيرها ، بمعنى أن الأسباب فيها موحدة الاتجاه ، لا تنطوى على تعقيد أو تعدد ، وتلك هى التى يحرز العلم فيها أعظم قدر من النجاح . أما الظواهر البشرية فإن الأسباب فيها شديدة التعقيد إلى حد لا يبدو معه أنها تؤدى دائما إلى نفس النتائج ، أو على الأصح أن حصر الأسباب التى تتحكم فى الظواهر البشرية الواحدة (كانحراف أحد الأحداث مثلا) هو من الصعوبة بحيث يصعب إخضاع كل جوانب الظاهرة للتحليل العلمى الدقيق ، ويظل فيها على الدوام « جانب مجهول » أو « لا يمكن التنبؤ به » ، مما يجعل العلم عاجزا عن أن يحرز فى مجال الظواهر البشرية نفس القدر من النجاح الذى يحرزه فى مجال الظواهر الطبيعية .

ومع اعترافنا بصحة هذا التعليل ، فلابد لنا أن نضيف إليه تعليلا آخر مستمدا من طبيعة الأوضاع السائدة فى العالم المعاصر . ذلك لأن التقدم العلمى يتوقف أيضا على الأهداف والمصالح السياسية والاجتماعية . فاطلاق قذيفة بها رواد فضاء إلى القمر والعودة بهم إلى الأرض سالمين ، هو على الأرجح أمر لا يقل تعقيدا عن الاهتداء إلى علاج لمرضى السرطان ، ولكن العلم ينجح فى تحقيق الهدف الأول ويتعثر حتى الآن فى تحقيق الهدف الثانى لأن المجتمع ذاته رسم سياسة معينة ووضع تخطيطا خاصا يؤدى إلى هذا النجاح ، وذلك نظرا إلى وجود مصالح استراتيجية أو دعائية يحققها الوصول إلى القمر ، على حين أن مرض السرطان لا يحقق نفس الأهداف .

ولا شك أن هذا الجانب المتعلق بأهداف المجتمع ومصالحه يمكن أن يعلل قدرا كبيرا من انعدام التوازن الذى يتصف به نمو العلم فى مرحلته الحالية .

وهكذا يعلق الكثيرون آمالا عريضة على قدرة العلم على اقتحام تلك الميادين التى ظل حتى الآن يعالجها معالجة هامشية ، ويؤكدون أن العلم لو استطاع تحقيق التوازن المفقود لأمكنه حل جميع المشكلات المترتبة على تقدمه السريع ، بل لما عاد هذا التقدم يخلق أية مشكلات للمجتمع الإنسانى . فلنتصور مثلا أن طريقة تنظيمنا للمجتمع قد وصلت إلى نفس القدر من الدقة الذى وصلت إليه قدرتنا على صنع العقول الالكترونية أو تحليل جزيئات المادة . عندئذ تختفى المشكلات التى أشرنا إليها من قبل تلقائيا ، إذ أن هذه المشكلات لم تتولد إلا نتيجة لحدوث تطورات سريعة فى فهمنا للعالم الطبيعى ، على حين أن المجتمعات البشرية لا تزال تسودها تنظيمات ارتجالية ، عشوائية ، يحكمها منطق المصالح ، ولا تُحل خلافاتها إلا عن طريق استخدام القوة العسكرية الغاشمة أو التهديد بها ــ أى أننا فى مجال التنظيمات نثبت أننا لم نتجاوز مستوى الحيوان كثيرا ، فى الوقت الذى يضع فيه العلم الطبيعى فى يدنا قوة هائلة ويكسبنا مقدرة فائقة على السيطرة على الطبيعة .

وهكذا يمكن القول إن تفكير الإنسان فى أهدافه العامة وفى طريقة تنظيم مجتمعه مازال يمر بالمرحلة « قبل العلمية » . ولو بلغ تحكمه فى هذا المجال نفس مستوى تحكمه فى الظواهر الطبيعية ، لاختفى القدر الأكبر من المصاعب التى يعانى منها عالم اليوم .

على أن أصحاب الرأى الآخر يرون أن هذا المطلب لا يمكن أن يتحقق على يد العلم وحده . فحين نتحدث عن طريقة توجيه حياة الإنسان وتنظيم مجتمعه ، نخوض مجال القيم والغايات الإنسانية ، وهو مجال يهم البشر جميعا ، لا العلماء وحدهم . وفى مثل هذا المجال يكون من الصعب على

العالم أن يقدم إلينا توجيها كاملا ، لأن تكوينه يحول بينه وبين التعمق فى أمور معنوية شديدة العمومية كتحديد الأهداف التى ينبغى أن يُستغل العلم من أجلها . ففى عصر التخصص المتزايد ، يصعب أن نجد العالم الذى يستطيع تخصيص الوقت والجهد الكافى للتفكير فى الأوضاع الإنسانية ككل ، بل إن النظرة المباشرة والضيقة تغلب على العلماء ، وهو أمر لا يعيبهم لأن طبيعة عملهم تقتضيه ، ولأنهم بدونه لا يستطيعون ، فى هذا العصر ، أن ينجزوا شيئا .

وإذن ، فتحديد الأهداف التى ينبغى أن يخدمها العلم أمر أسمى من أن يترك للسياسيين المحترفين ، وأوسع وأرحب من أن يُترك للعلماء المتخصصين ، وإنما الواجب أن يشارك فيه المفكرون والأدباء والفنانون والفلاسفة ، وكل من يهمه مصير الإنسانية ويفكر فى هذا المصير بنزاهة وتجرد .

وإذا كان البعض يذهبون فى تأكيد هذا الاتجاه إلى حد الدعوة إلى استبعاد العلماء استبعادا تاما من عملية التوجيه الاجتماعى هذه ، على أساس أن طغيان النزعة العلمية ، والإيمان المفرط بقدرة العلم ، هو واحد من أهم أسباب المشكلات التى يجلبها تطور العلم السريع فى عصرنا الحاضر ، فإننا نرى فى هذا موقفا متطرفا ، ونؤمن بأن العلماء ، إلى جانب المفكرين والأدباء وأنصار الإنسان بوجه عام ، ينبغى أن تكون لهم كلمتهم فى هذا المجال . ذلك لأننا لا نستطيع ، بعد أن قطعنا كل هذا الشوط البعيد فى طريق التفكير العلمى ، أن نحدد القيم العليا والغايات الأخلاقية والمستويات التى نريد أن يصل إليها الإنسان ، بطريقة تأملية خالصة ، وعن طريق مجرد التفكير فيها . فنحن فى هذه الأمور لا نحتاج إلى وعظ أخلاقى بقدر ما نحتاج إلى من يبصرنا بحقائق العصر ، ولا نستطيع أن

تعتمد على من يخاطبنا عن المثل العليا بطريقة مجردة بقدر ما تعتمد على من يحدثنا بلغة دقيقة تحلل الظواهر وتوضح أسبابها . ومن المؤكد أننا ، حتى فى هذا المجال ذاته ، لا نستطيع أن نستغنى عن تلك الأداة الفريدة التى اكتسبها الإنسان بعد كفاح طويل ، والتى تتيح لنا التفكير فى مشاكلنا فى إطار لا ينفصل عن الواقع . ومن الصعب إلى حد بعيد أن يقتنع الإنسان ، بعد كل هذا الشوط الذى قطعه فى طريق العلم ، بتعاليم من يريدون العودة به إلى عصر التفكير الذى لا يُبنى على حقائق واقعية ، والذى يعتمد على التأمل الاجتهادى غير المدروس .

ومن حسن الحظ أن عصرنا هذا قد عرف عددا لا يستهان به من العلماء الذين تمكنوا ، بالرغم من تفوقهم الساحق فى ميادين تخصصهم ، من أن يمتدوا بأنظارهم إلى ما وراء ميادين تخصصهم هذه ، ويستشرفوا الآفاق الواسعة والبعيدة للمجتمع الإنسانى ولمستقبل الحياة على هذه الأرض . هؤلاء العلماء هم الذين وقفوا يحذرون ، فى الخمسينات ، ومن أخطار الاشعاعات التى تجلبها التجارب الذرية ، وهم الذين ناضلوا من أجل تحقيق السلام فى فيتنام ، وحاربوا الصهيونية والعنصرية بكل أشكالها ، وهم الذين يدافعون عن حق الإنسان العادى فى بيئة نظيفة وحق المولود الجديد فى فرص متكافئة للحياة . بهؤلاء العلماء ينبغى أن تفخر البشرية ، لا لأنهم قدموا إليها الكثير فى مجال كشف أسرار الطبيعة فحسب ، بل لأنهم استطاعوا ، برغم جهودهم المضنية هذه ، أن يمتدوا بأبصارهم إلى أوسع الآفاق ، وأن يرسموا لنا صورة المستقبل كما ينبغى أن تكون . ولو وصل عالمنا إلى المرحلة التى يكون فيها لهؤلاء العلماء مع الفلاسفة والأدباء والفنانين والمفكرين الاجتماعيين والأخلاقيين ، كلمتهم المسموعة ، لأمكنه أن يوازن بين تقدمه العلمى وتنظيماته الاجتماعية ، وأن يحقق للبشرية ذلك

الرخاء ، وتلك الحياة الغنية ـ ماديا ومعنويا ـ التى يستطيع العلم « بقدراته الحالية » أن يحققها لنا ، لو كان لدينا التنظيم الذى يرقى إلى مستوى هذه القدرات .

الفصل السابع

شخصية العالم

العلم نشاط عقلي يقوم به علماء متخصصون ، ويتخذ طابعا لاشخصيا . والمقصود بالطابع اللاشخصي أن النتيجة التي يتوصل إليها العالم تصبح على الفور ملكا للبشرية جمعاء . صحيح أن هذه النتيجة هي ثمرة جهود « هذا الشخص بالذات » ، وأن ذكاءه وتعليمه وجهوده الخاصة هي التي أدت به إلى بلوغها ، ولكن الكشف العلمي بمجرد ظهوره ، يفقد صلته بالأصل الذي انتجه ، ويتحول إلى « حقيقة » يملكها الجميع ويعترف بها الجميع . وقد نظل نذكر اسم العالم الذي تم على يديه هذا الكشف ، ولكن هذا لا يتم إلا عندما نتحدث عن « تاريخ العلم » ، وهو شيء ينفصل عن العلم ذاته . ففي استطاعتنا أن نستخدم هذا الكشف الذي توصل إليه دون أن نذكر شيئا عن صاحبه ، بل إن هذا ما يفعله أغلب المشتغلين بالعلم إزاء معظم الكشوف التي يتعاملون معها ، لان اسم صاحب الكشف لا يغير ، في قليل أو كثير ، من حقيقته ، التي هي أول وآخر ما يهتم به البحث العلمي .

وهكذا يبدو أن « شخصية » العالم هي أقل الأشياء أهمية في العلم ، وأن البحث العلمي نشاط مستمر ، يقوم به أناس ينكرون شخصياتهم ، ولا يحرصون إلا على متابعة « السير في الطريق » . ومثل هذا الطابع « اللاشخصي » للعلم خليق بأن يجعل مشكلة البحث في « شخصية العالم » مشكلة ثانوية لا مبرر للاهتمام بها .

ومن ناحية أخرى فإن العلماء فئة شديدة التباين : فالاختلافات بينهم

واسعة إلى حد يبعث على الدهشة ، إذ نجد منهم من نبغ فى مقتبل عمره ، ومن لم يظهر نبوغه إلا فى مرحلة الشيخوخة المتأخرة ، ونجد منهم من يميل إلى البحث المتأنى ، ومن يدافع عن الانبثاق المفاجىء للأفكار الجديدة ، كما نجد بينهم زهادا من ناحية ومستمتعين بالحياة من ناحية أخرى ... إلى غير ذلك من الفوارق التى نجدها بين أفراد أيه فئة بشرية .

ومع هذا كله ، فهل يكون من الصعب أن نتلمس صفات مشتركة بين العلماء نستطيع أن نطلق عليها ، فى مجموعها ، تعبير « شخصية العالم » ؟ يبدو ، من استقراء حياة العلماء ، وتحليل طبيعة البحث العلمى ، أن هناك بالفعل مجموعة من الصفات التى يشترك العلماء فى الكثير منها ، والتى تكوّن فى مجموعها كيانا متميزا يستحق أن يطلق عليه اسم « شخصية العالم » . ولكننا حين نقول ذلك ينبغى أن نبادر على الفور إلى الاعتراف بأمرين : أولهما أن هناك دائما استثناءات ، وأن من السهل أن يجد المرء علماء لا تنطبق عليهم صفة ، أو مجموعة من الصفات التى نرى أنها هى المميزة لشخصية العالم - وهذا أمر طبيعى ، إذ أننا لا نستطيع أن ندرج أيه مجموعة من البشر فى قوالب متشابهة ، فما بالك إذا كانت هذه المجموعة تتألف من فئة متميزة عقليا عن بقية الفئات ؟ وثانيهما أن وجود هذه الصفات لا يجعل المرء عالما « بطريقة آلية » . فهذه الصفات تكوّن « الحد الأدنى » الذى لوحظ أنه موجود فى عدد كبير من العلماء . ولكن لكى يكون المرء عالما بحق فلا بد من أن يتوافر له ما هو أكثر بكثير من هذا الحد الأدنى : أعنى لابد أن يكون له تكوين من نوع معين ، وتفكير خاص ، ومعارف وقدرات خاصة على البحث . وهذه كلها أمور تتجاوز نطاق أى بحث يقوم به المرء عن « التفكير العلمى » بوجه عام ، لأنها تنقلنا إلى ميادين التخصص العلمى ذاتها .

فى هذا الاطار العام الذى نعتقد أن من الممكن الكلام فيه عن شخصية العالم ، سوف نتحدث عن مجموعة من العناصر التى نعتقد أنها من أهم مكونات هذه الشخصية . وإن لم يكن من الضرورى أن تتجمع كلها فى كل عالم على حدة .

العناصر الأخلاقية فى شخصية العالم

ليس المقصود من الأخلاق ، فى هذا الجزء من بحثنا ، هو تلك الأخلاق الشخصية التى تتعلق بطريقة سلوك العالم من حيث هو إنسان ، وإنما المقصود هو الأخلاق المتصلة بعمله العلمى ، سواء بطريق مباشر أم بطريق غير مباشر . فنحن لا يعنينا أن نبحث فى الطريقة التى يدير بها العالم شئون حياته اليومية ، الخاصة ، لأن هذه الشئون ملكه هو من حيث هو فرد ، ولكن إذا انعكست طريقه سلوكه فى حياته الخاصة هذه على عمله العلمى ، حتى ولو كان ذلك على نحو غير مباشر إلى أبعد حد ، فعندئذ ينبغى أن نعمل لها حسابا . وهذه التفرقة بين المسلك الشخصى والمسلك الذى يمس العلم تفرقه هامة ، لان الكثيرين ينسون أن العالم إنسان له كل ما للبشر من جوانب الضعف والانفعالات ، وربما النزوات ، وقد يكون فى حياته الخاصة بعيدا كل البعد عن الصورة التى يكونها عنه الناس باعتباره عالما ، إذ يتصور الناس عادة أنه لابد أن يسلك فى أموره اليومية ، أى أن يأكل ويشرب وينام ويحب ، بوصفه « عالما » ، ويتخيلون أن مهنته لابد أن تنعكس على أدق تفاصيل حياته . وهذا تصور واهم ، ربما أذكته فى نفوس الناس بعض الأفلام السينمائية أو الأعمال الأدبية التى تميل إلى أن تجعل للناس شخصية نمطية واحدة ، تسرى على جميع جوانب حياتهم . ولكن الواقع ، فى أغلب الأحيان ، يكذب هذا التصور ، إذ أننا نادرا ما نجد العالم الذى لا يسير فى جميع جوانب حياته اليومية كما يسلك سائر الناس ،

ويتعرض لسائر مظاهر الصواب أو الخطأ التى يتعرض لها غيره من البشر . غير أن هناك جوانب معينة من حياته تؤثر ، على نحو قليل أو كثير ، فى عمله العلمى وتتأثر به ، وهذه الجوانب هى التى تعنينا ها هنا .

فى هذه الناحية بالذات ، أعنى فى مظاهر حياة العالم التى تتصل من قريب أو بعيد بعمله العلمى ، يشيع تلخيص القيمة الأخلاقية العليا التى يتميز بها العالم فى كلمة واحدة ، هى « الموضوعية » . ولكن « الموضوعية » كلمة شديدة التعقيد ، تحتمل جوانب وأوجها متباينة ، ومن المستحيل فهمها على حقيقتها إلا إذا حللنا معانيها وجوانبها المختلفة بمزيد من الدقة . ومن هذا التحليل نستطيع أن نلقى ضوءا مفيدا على العناصر الأخلاقية كما ينبغى أن توجد فى شخصية العالم ، وكما توجد بالفعل فى شخصيات علماء كثيرين .

١ ـ الروح النقدية :

أول معنى للموضوعية هو أن تكون لدى المرء روح نقدية . ومعنى ذلك ألا يتأثر بالمسلمات الموجودة أو الشائعة ، وأن ينتقد نفسه ويتقبل النقد من الآخرين .

١ ـ فأهم ما يميز العالم قدرته على أن يختبر الآراء السائدة ، سواء على المستوى الشعبى العادى أو فى الأوساط العلمية أو كليهما معا ، بذهن ناقد ، لا ينقاد وراء سلطة القدم أو الانتشار أو الشهرة ، ولا يقبل إلا ما يبدو له مقنعا على أسس عقلية وعلمية سليمة . ولا يعنى ذلك أن يقف المرء موقف العناد المتعمد من كل ما هو شائع ، بل يعنى اختبار الآراء الشائعة واخضاعها للفحص العقلى الدقيق ، وربما عاد إلى قبولها آخر الأمر بعد أن يكون قد اطمأن إلى أنها اجتازت هذا الاختبار . أما لو تبين له ضعف أو تناقض أو تفكك فى

هذه الآراء ، فإنه يتمسك بموقفه الجديد بكل ما يملك من تصميم واصرار ، مهما كانت التضحيات التى يعانيها فى سبيل هذا الموقف .

ولو تناولنا بعض الأمثلة المشهورة فى هذا الصدد ، لوجدنا هذه الصفة مشتركة بينها جميعا . فحين وقف جاليليو ، وهو شيخ عجوز فى أواخر مراحل عمره ، أمام محكمة التفتيش فى روما مدافعا عن رأيه الجديد ــ الذى كان امتدادا لرأى كبرنيكوس ــ فى نظام العالم ودوران الأرض حول الشمس ، وحين وقف باستير وحده أمام علماء عصره مدافعا عن وجود تلك الكائنات الدقيقة التى تسبب التلوث والتعفن والأمراض ، أعنى الميكروبات ، وحين وقف فرويد أمام عواصف الاستنكار مؤكدا أن الدوافع الحقيقية لسلوك الإنسان قد تكون بعيدة كل البعد عن الدوافع الظاهرية التى يعلنها الإنسان على الملأ أو يعلنها المجتمع من خلال الإنسان ــ فى كل هذه الحالات ، التى يحفل تاريخ العلم بأمثالها ، كان هناك إدراك من جانب العالم لحقيقة جديدة تتصادم بعنف مع الحقائق الشائعة ، وتلقى مقاومة مستميتة من أوساط قوية ومسيطرة ، وكان العالم يقف وحده ، فى مبدأ الأمر على الأقل ، لا يملك ما يدافع به عن نفسه سوى قوة الاقناع التى تتسم بها حقيقته الجديدة ، ومع ذلك فقد استطاع ، آخر الأمر ، أن ينتزع الاعتراف بأفكاره ، ويحول مجرى العلم فى اتجاه جديد . وكم من كشف علمى تحقق لمجرد أن عالما تجرأ على أن ينقد المسلمات الشائعة ، ولا ينحنى أمام طغيان الانتشار أو جبروت القوى التى تدافع عن هذه المسلمات ، أو أمام تلك القوة التى تكتسبها الآراء السائدة نتيجة اعتياد الناس عليها زمنا طويلا .

وفى كثير من الأحيان كان نقد هذه المسلمات يصدم الناس صدمة عنيفة ، ولكن العالم لم يكن يأبه إلا للرأى الذى اقتنع به . وهكذا رأينا كشوفا عظيمة الاهمية تتحقق ، منذ القرن التاسع عشر ، لإن عالما تجاسر على ألا يتقيد بالمسلمة القائلة إن الخطين المتوازيين لا يلتقيان ، وإن مجموع زوايا المثلث ، بالتالى ينبغى أن يكون قائمتين ، أو لأن عالما أخر تحدى النظرة السائدة إلى المكان والزمان ، والتى تجعل كلا منهما حقيقة مطلقة ، فتجرأ على الربط بينهما فى وحدة واحدة ينكمش فيها الزمان إذا عُبر المكان بسرعة هائلة ، أو لأن عالما ثالثا لم يقتنع بأن الضوء ينبغى أن يكون « إما » جسيمات دقيقة ، و« إما » تموجات ، فجمع بين هذين المفهومين اللذين يبدو من المستحيل الجمع بينهما ، وقال بنظرية جسيمية ــ تموجية فى آن واحد . وهكذا أكدت فكرة « تحدى البديهيات والمسلمات » قيمتها فى مجال الفكر الفلسفى والاجتماعى والنفسى والسياسى ، وأصبحت هذه الفكرة من أهم السمات المميزة لعصرنا الحاضر .

ب ـ على أن العالم مثلما يعيد اختبار الأمور المسلم بها فى الأوساط العلمية أو الشعبية ، ويخضعها لمحكمة العقل وحده ، لا يعفى نفسه من النقد . فمن الجائز أنه هو نفسه قد وقع فى خطأ ، وفى هذه الحالة يتعين على العالم الحقيقى أن يبادر إلى الاعتراف بهذا الخطأ . وكثيرا ما يكون هذا الاعتراف أليما ، وذلك لأسباب واضحة : فمن السهل أن ينقد المرء الآخرين ، أما نقده لنفسه فمن أصعب الأمور . ولا يرجع ذلك إلى أسباب نفسية ، أو إلى الاعتزاز بالذات فحسب ، بل يرجع أيضا إلى صعوبة عملية النقد التى يمارسها المرء نحو ذاته . فحين يكون النقد موجها إلى الآخرين ، يكون ذهن الناقد ذهنا جديدا

« أضيف » إلى ذهن صاحب الرأى الذى ينقده . وكل ذهن جديد يستطيع أن يتأمل الموضوع من زاوية جديدة ، ويرى فيه جوانب ربما لم يكن صاحب الرأى الأصلى قدّرها أو أضفى عليها الأهمية التى تستحقها . أما فى حالة « النقد الذاتى » فإن الذهن الواحد هو الذى يضع الرأى الأصلى ، وهو نفسه الذى ينبغى أن يتأمل هذا الرأى الأصلى بنظرة ناقدة . ومثل هذا التأمل النقدى يبدو عسيرا فى هذه الحالة ، والأرجح أن يظل المرء متمسكا بنفس وجهة النظر القديمة ، لأن عاداته الفكرية وتكوينه الخاص يؤديان به ، غالبا ، إلى نفس النتائج التى انتهى إليها من قبل ، ولأن من الصعب أن ينسلخ المرء تماما عن طريقته السابقة فى النظر ، ويتأمل موضوعه بأعين جديدة .

ومما يزيد من صعوبة هذا النقد الذاتى ، أنه كثيرا ما يعنى هدم حصيلة عمل بذل فيه العالم جهدا شاقا ، ومراجعة شاملة لخطواته السابقة من جديد . فلو تبين أن هذا الهدم ضرورى لأن الآخرين قد اكتشفوا فى هذا العمل نقاط ضعف واضحة ، أو نقصا ظاهرا ، فعندئذ لا يكون امام العالم مفر من مراجعة عمله السابق . أما أن يقوم هو ذاته بالنقد الذى يؤدى به إلى تفنيد عمله الخاص وتبديد الوقت والجهد الذى بذله فيه ، فهذا ــ بلا شك ــ أمر شاق من الوجهة النفسية والأخلاقية . ومن المؤكد أن القليلين هم الذين تتوافر لديهم القدرة على مراجعة النفس بأمانة ، وإعادة النظر فى أعمالهم السابقة بحيث يستغنون عنها استغناء تاما إذا اقتنعوا بأن ذلك ضرورى . فهذه المراجعة تحتاج إلى مستوى أخلاقى رفيع ، وإلى إنكار للذات لا يقدر عليه معظم الناس ، الذين لا يقبلون بسهولة أن يقتطعوا من حياتهم ومن ثمار جهدهم ويتنكرون لها ، بمحض إرادتهم ، وكأنها لم

تكن . ولكن هؤلاء القليلين الذين يصلون إلي هذا المستوى الرفيع ، هم الذين ينهض العلم على أيديهم . وفى معظم الأحيان تثبت الأيام أن جهدهم السابق ، الذى تنازلوا عنه ، لم يضع هباء ، وأن عملية النقد الذاتى هذه قد تكون نقطة البداية فى كشف علمى أهم بكثير من ذلك الذى كانوا يعتزمون الوصول إليه من قبل .

ولسنا نود أن نترك موضوع النقد الذاتى قبل أن تشير إلى استخدام شائع لهذا التعبير فى أيامنا هذه ، وهو استخدام سياسى فى المحل الأول . والمفروض فيه أن يعيد المرء النظر فى مواقف سابقة له ، فى المجال السياسى ، وينقدها نقدا موضوعيا . ولكن ظروف العالم الذى نعيش فيه ، وطبيعة الصراع بين الأفكار فى هذا العصر ، تؤدى فى كثير من الإحيان إلى ابتذال معنى النقد الذاتى ـ إذ إنه كثير ما يصبح تعبيرا عن انتهازية رخيصة ، يحاول فيها المرء أن يتنصل من مواقفه السابقة لأن التيار السياسى قد تغير ، ولأن اتجاها جديدا وأشخاصا جددا قد قفزوا إلى السلطة ، فيغير الأذناب جلودهم ، تمشيا مع العهد الجديد ، باسم « النقد الذاتى » . كما أن هذا التعبير قد يُستخدم نتيجة لوجود قهر شديد ، يضطر معه المرء ، إذا كان قد أعرب من قبل عن آراء معارضة أو رافضة ، إلى سحب آرائه هذه والتنصل منها باسم « النقد الذاتى » ، خوفا من بطش السلطة أو خضوعا لضغطها . وفى كل هذه الحالات لا تكون لهذا النوع من « النقد الذاتى » المزيف أيه صلة بما نقوله ها هنا عن النقد الذاتى فى المجال العلمى ، لسبب بسيط هو أن النوع الأول لم يصدر بدوافع موضوعية ، أو لم يكن تعبيرا عن إرادة حرة .

جـ ـ وأخيراً ، فان تقبل النقد من الآخرين صفة أساسية ينبغى أن يتحلى

بها العالم . ذلك لأن لكل منّا عاداته الفكرية الخاصة ، وطريقته الشخصيّة فى معالجة الأمور ، وتكوينه الفردى المميز ، وهذا كله ينعكس حتما على عمله العلمى ، بحيث يعجز فى أحيان كثيرة عن رؤية جوانب الضعف أو النقص فيه ، ويحتاج إلى من يتأمل هذا العمل بعيون أخرى لكى يرى فيه مالم يره صاحبه . وعلى الرغم من أن الحقيقة العلمية ، عندما تثبت وتستقر ، تكون حقيقة واحدة يتفق عليها الجميع ، فإنها فى مرحلة تكوينها تحتاج إلى تضافر عقول كثيرة ، وإلى « حوار » بينها ، وهو ما أدركه قدماء الفلاسفة حين أكدوا أن « الجدل » ، بمعنى مشاركة أكثر من عقل واحد فى السعى إلى بلوغ الحقيقة ، هو طريق المعرفة .

وهكذا أصبح النقد جزءا لا يتجزأ من الممارسة العلمية فى جميع البلاد المتقدمة ، وأصبحت الدوريات والمجلات العلمية ، بل والصحف اليومية فى أحيان غير قليلة ، تخصص أبوابا ثابتة لنقد الأعمال المنشورة ، وأصبح العلماء أنفسهم يتلهفون على قراءة ما يُكتب عن أعمالهم ، لكى يعرفوا أين يقفون فى الوسط العلمى الذى ينتمون إليه ، ولكى يطلعوا على آراء العقول الأخرى فيما أنتجه عقلهم . وبفضل هذا التراث النقدى الذى استمر أجيالا كثيرة ، اكتسب النقد فى هذه البلاد المتقدمة نوعا من القداسة ، وازداد طابعه « موضوعية » ، وأصبح الناقد يشعر وهو يمسك قلمه بمسئولية لا تقل عن مسئولية القاضى وهو يصدر أحكامه . ولا شك أن المقارنة هنا ليست على سبيل التشبيه ، إذ أن الناقد هو بالفعل قاض فى الميدان العلمى ، والفارق الوحيد بين الاثنين هو أن القاضى لا يتناول إلا حالات الخروج على القانون ، أى الحالات السلبية وحدها ، على

حين أن الناقد يعالج الحالات الإيجابية والسلبية معا : إذ أن مهمته ليست إبراز العيوب فحسب ، بل وامتداح المزايا أيضا . وفيما عدا ذلك فإن الضمير النقدى ، فى البلاد المتقدمة ، قد اكتسب حساسية ورهافة لا تقل عن الضمير القضائى ، وكلاهما يصدر فى أحكامه عن دستور أو تشريع موضوعى : القاضى عن بنود القانون ، والناقد عن المنطق السليم والمعارف العلمية المستقرة .

وفى اعتقادى أن هذه الإشارة إلى ما أسميه « بالضمير النقدى » فى ميدان العلم ضرورية فى عالمنا العربى على وجه التحديد ، لأن هذا الضمير لم يتبلور بعد بالقدر الكافى فى أوساطنا العلمية . ومن الممكن التفكير فى أسباب متعددة لهذه الظاهرة ، ولكن أهمها فى رأيى سببان : الأول أن نهضتنا العلمية الحديثة قريبة العهد ، بحيث لم يصبح لدينا بعد « تراث » يجعل النقد جزءا أساسيا من حياتنا العلمية ، كما هى الحال فى البلاد المتقدمة . والسبب الثانى (وهو مرتبط بالأول ارتباطا وثيقا) هو ذلك الخلط الذى يسود كافة جوانب حياتنا ، بين ما هو خاص وما هو عام ، أو بين العوامل الشخصية والعوامل الموضوعية . هذا الخلط هو ، على سبيل المثال ، سبب ظاهرة « الوساطة » التى تتفشى فى أوساطنا الحكومية ، والتى هى فى حقيقتها تطبيق لمبدأ إكرام القريب أو الصديق (وهو مبدأ جميل فى حياتنا الخاصة) على الشئون العامة للدولة ، بحيث يزول الفارق بين طريقة سلوكنا مع المحيطين بنا فى الأسرة أو فى القرية أو فى المقهى ، وطريقة سلوكنا عند أداء الاعمال الرسمية .

وحين يسرى هذا الخلط على العلاقات بين العلماء ، تصبح نتائجه وخيمة : إذ أن العالم لا يعود قادرا على تقبل النقد من

الآخرين ، ويتصور أنه إهانة له أو هجوم شخصي عليه ، بينما الناقد نفسه قد يستخدم هذا النقد ، في أحيان غير قليلة ، لتصفية حسابات شخصية ، أو لمجاملة من له عنده مأرب . وهكذا يسلك الطرفان معا بطريقة تخلو من النزاهة والموضوعية ، ومن هنا كانت محنة النقد العلمي والفكري في بلادنا ... (أما النقد الأدبي والفني ، فحدّث عنه ولا حرج ، إذ أنه ، بالإضافه إلى ذلك ، ينصب على مجال فيه من المرونة والتحرر من القواعد الثابتة ما يعطي للعوامل الشخصية في النقد مجالا واسع) .

ولعل مما يزيد من حدة هذه المحنة ، أن وسائل النقد ذاتها غير متوافرة : فالمجلات والدوريات قليلة ، أو متعدمة في بعض المجالات ، وهي لا تخصّص إلا مساحة ضئيلة للنقد العلمي الجاد ، ولها العذر في ذلك لأن العملية نفسها لا تلقى استجابة كبيرة من الكتاب : فمَن منهم على استعدا لارهاق نفسه بقراءة كتاب أو بحث لشخص آخر ، والتنقيب بين المراجع عما عسى أن يكون قد أغفله أو أخطأ فيه ؟ إن قراءة أبحاث الآخرين ومؤلفاتهم ، على أية حال ، أمر يزداد ندرة بالتدريج ، لأن أعباء الحياة والعمل ، وربما الكسل أيضا ، تجعل كل باحث منشغلا بأبحاثه الخاصة ، ونادرا ما يقرأ بحوث الآخرين . هكذا يشعر كثير من الباحثين ، في العالم العربي ، بأنهم يكتبون لأنفسهم (وخاصة حين يكون الموضوع الذي يعالجونه جادا) . فبعد عمل مرهق قد يدوم سنوات متعددة ، يظهر البحث فلا يستجيب له أحد ، ولا يعلقّ عليه أحد ، ولا ينقده أحد ، حتى من المتخصصين في ميدانه . فنحن لا نقرأ لبعضنا البعض ، ومن ثم لا ننقد بعضنا البعض ، وهذا نقص فادح في حياتنا العلمية .

والوجة الآخر لموضوع النقد هو أن نعترف بفضل الآخرين على أعمالنا . فنحن ندين لمن نقرأ لهم بقدر كبير من معارفنا ، بل إن كثيرا من أفكارنا الشخصية التى يبتدعها كل منا وفى ذهنه أنه هو مصدرها الوحيد ، لا تثار فى أذهاننا إلا لأن قراءة بحث أو كتاب معين قد أوحى إلينا بها ، ولو بصورة غير مباشرة ، أو أثار فينا حاسة النقد والهجوم ، فيكون له الفضل فى هذه الحالة بدورها ، حتى ولو كان ذلك فضلا سلبيا . ومن هنا فإن العلماء والكتاب ، فى البلاد التى رسخت فيها التقاليد العلمية ، يحاولون بقدر ما فى وسعهم رد الفضل إلى أصحابه ، وربما رأيت المؤلف منهم يعدد فى مقدمة كتابه أسماء مجموعة ضخمة من الأشخاص ، بعضهم ناقشه مناقشة قصيرة حول الموضوع ، وأحيانا قد يذكر الأستاذ فضل تلاميذه الذين ألهموه ، بأسئلتهم واستفساراتهم ، كثيرا من أفكاره . أما الإشارة إلى الاقتباسات من المراجع الأخرى فقد أصبحت تقليدا ثابتا لا يخالفه أحد .

وفى هذه الحالة بدورها نجد أن هذا التقليد الجليل لم يستقر فى بلادنا تمام الاستقرار . بل إن مخالفته قد تتخذ فى بعض الأحيان أبعادا مؤسفة ، كما يحدث فى حالات « السطو » على أعمال الآخرين ، التى ينسبها المرء لنفسه دون وازع من ضمير . ومن المؤكد أن حياتنا العلمية لن تستقيم إلا إذا أصبح الاعتراف بفضل الآخرين ، حتى في الأمور البسيطة ، قاعدة لا يخالفها أحد ، وربما احتاج الأمر فى البداية إلى قدر من الشدة ، بحيث يلقى من يرتكب عملا من أعمال السرقة العلمية جزاء رادعا . وبعد ذلك يمكن أن يتحول السلوك العلمى القويم إلى عادة متأصلة فى النفوس ، فلا نحتاج إلى فرض جزاءات . ولكن النظرة المدققة إلى أوضاع التقاليد

العلمية فى العالم العربى لا توحى بالتفاؤل ، إذ يبدو أن الأجيال الجديدة أقل تمسكا بهذه التقاليد حتى من الأجيال السابقة ، ومن ثم فإن الخط البيانى للروح النقدية السليمة ، وللأخلاق العلمية بوجه عام ، يتجه إلى الهبوط ، وهو أمر مؤسف ينبغى أن نتداركه حتى لا تتسع الهوة بيننا وبين البلاد المتقدمة التى يزداد علماؤها تمسكا بالتقاليد العلمية جيلا بعد جيل .

٢ ـ النزاهـــة :

لسنا فى حاجة إلى أن نطيل الحديث عن صفة النزاهة ، بوصفها معنى أساسيا من معانى الموضوعية . ففى ثنايا الحديث عن الروح النقدية اتضحت لنا عناصر كثيرة ترتبط بصفة النزاهة ، مثل قدرة العالم على أن يقف من أعماله الخاصة موقفا نقديا ، وعلى أن يتقبل نقد الآخرين ، ولا ينسب إلى نفسه شيئا استمده من غيره . والواقع أن نزاهة العالم تتبدى أوضح ما تكون فى استبعاده للعوامل الذاتية من عمله العلمى . فحين يمارس العالم هذا العمل ، ينبغى عليه أن يطرح مصالحه وميوله واتجاهاته الشخصية جانبا ، وأن يعالج موضوعه بتجرد تام .

هذا التجرد هو الذى يجعل العلم يلجأ إلى وسيلة وحيدة للاقتناع : هى الدليل والبرهان الموضوعى . وقد يتخذ هذا البرهان شكل إجراء تجربة تثبت المبدأ العلمى الجديد على نحو حاسم ، أو يتخذ شكل تدليل منطقى قاطع ، ولكنه فى كل الحالات برهان يفرض نفسه على أى ذهن لديه القدرة على فهم الموضوع واستيعابه . وهذا هو الفرق الإساسى بين طريقة الاقتناع العلمى ، وطرق الاقتناع المألوفة التى نلجأ إليها كثيرا فى معاملاتنا اليومية ، والتى تحفل بعناصر ذاتية لا صلة لها بالتفكير العلمى من قريب أو من بعيد ، مثل

الاقناع عن طريق البلاغة اللفظية أو استخدام اللغة الانفعالية المؤثرة أو التلاعب بعواطف الناس أو اغرائهم واستثارة ميولهم ومصالحهم . فالعلم يعلّم الإنسان كيف يترك انفعالاته وتفضيلاته الشخصية جانبا ، وكيف ينظر إلى الأمور نظرة منزهة عن كل غرض ، ومن هنا كان للعلم تأثير أخلاقى لا يمكن إنكاره . ومن المؤكد أن الممارسة العلمية الطويلة والسليمة ، لابد أن تترك طابعها على طريقة تعامل العالم مع غيره من الناس ، وذلك على الأقل فى الأمور التى يقوم فيها صراع بين العوامل والميول الذاتية من جهة ، وبين الحقائق الموضوعية من جهة أخرى .

على أن الحديث عن صفة النزاهة والتجرد يفضى بنا إلى موضوع آخر له أهمية بالغة ، ولا سيما فى عصرنا الراهن ، وأعنى به موقف العالم من الربح المادى أو المال . ذلك لان نزاهة العالم تفترض منه أن يكون فى عمله العلمى ساعيا إلى الحقيقة وحدها ، بغض النظر عما يمكن أن يجنيه من ورائه من مغانم . وهذه مسألة تنبه إليها الفلاسفة منذ أقدم العهود : إذ أن أفلاطون قسّم البشر إلى محبى الكسب ، كالتجار والصناع ، ومحبى الشهرة ، كالحكام السياسيين أو القواد العسكريين ، ومحبى العلم أو المعرفة ، وهم العلماء والفلاسفة . وفى رأيه أن من ينتمى إلى الفئة الأخيرة لا يمكن أن ينتمى إلى الفئتين الأخريين ، وبخاصة الأولى منهما . ومنذ ذلك الحين أصبح من الأمور المعترف بها أن لذة العلم والوصول إلى الحقيقة تفوق أية لذة أخرى ، وتجعل صاحبها زاهدا فى تلك الأهداف الدنيوية الصغيرة التى يستميت الناس العاديون من أجل تحقيقها ، كهدف الربح المادى .

ولكن عصرنا الحديث ، وإن كان قد احتفظ بهذه التفرقة بين السعى إلى الحقيقة والسعى وراء المال ، قد أضاف أبعادا أخرى إلى هذا الموضوع . ذلك لأن تعقد الحياة الحديثة وكثرة مطالبها جعل من المستحيل أن يظل العالم فى

صورة ذلك الناسك أو الزاهد الذى يتعفف عن كل ما يتصل بالمال . ومن هنا طرأ قدر من التغير على الصورة القديمة ، بدليل أن المشروعات العلمية الناجحة كثيرا ما يكون من عوامل نجاحها الانفاق بسخاء على المشروع ، بمن فيه من العلماء والباحثين .

فهل يعنى ذلك أن التضاد القديم بين محبى الحقيقة ومحبى الكسب قد اختفى ؟ الواقع أن هذا التضاد لا يزال قائما . ولا يمكن القول إن هذا التضاد لا يزال قائما ، ولا يمكن القول أن العالِم الحقيقى إنسان يصلح للاشتغال بالتجارة (حتى فى عمله) أو يجعل من تكديس الأموال هدفا لحياته . قد نجد استثناءات قليلة هنا أو هناك ، ولكن معظم هذه الاستثناءات تتعلق بأناس لا تسرى فى عروقهم روح العلم بمعناها الحقيقى . ولا يزال من الصحيح أن العالم لا يطلب المال لذاته ، وإنما يطلبه بوصفه وسيلة فحسب : فسهولة العيش وقضاء المطالب المادية ، وربما بعض المطالب الكمالية ، يتيح للعالم أن يتفرغ لعمله العلمى بذهن خال من المشاغل . ومن هنا كان الوضع الأمثل عند العلماء هو أن تقوم الدولة بتلبية احتياجاتهم وتزويدهم بكل ما يلزمهم للبحث ، بحيث تصبح عقولهم مكرسة للتفكير فى المشاكل العلمية وحدها ، أما استغلال البحث العلمى استغلالا ماديا ، فأمر لا يكترث به العلماء .

ولا يمكن أن يسمى هذا زهدا بالمعنى الصحيح ، وإن كان فيه بالفعل كثير من عناصر الزهد . ذلك لأن العالم إنسان يحظى بمستوى عقلى يفوق المستوى العادى . وهناك متع كثيرة يسعى إليها الإنسان العادى وينفق من أجلها الكثير من المال ، لا يكترث بها العالم ولا يشعر ازاءها بأى استمتاع . فمن الصعب على كثير من العلماء ، مثلا ، أن يشعروا بلذة حقيقية من تلك السهرات الصاخبة فى الملاهى الليلية ، حتى لو كان يملك

المال الذي تتكلفه.. على حين أن التاجر أو رجل الأعمال قد يجد فيها متعة كبرى ، وقد يكون قدر كبير من سعيه وراء الربح مستهدفا حياة من هذا النوع . وهكذا يبدو تصرف العالم في هذه الحالة زهدا ، ولكنه في حقيقته استخفاف بأمور لا تثير في نفسه رغبة حقيقية من أجل الوصول إليها .

وهنا لا نستطيع أن نقول إننا ، في عصرنا الحديث ، قدتجاوزنا بكثير ما يدعو إليه أفلاطون . ذلك لأن هذا الفيلسوف اليوناني الكبير قد حَرم على العلماء ، في مدينته الفاضلة ، اقتناء الذهب والفضة « اكتفاء بما في نفوسهم من هذين المعدنيين النفيسين » . وهو قد دعا إلى قيام المجتمع أو الدولة بتوفير كل المطالب المادية للعلماء حتى لا يشغلهم شيء سوى بحثهم وراء الحقيقة . ولكن الصورة العامة التي رسمها لوضع العلماء في المجتمع المثالي ، كما تخيله ، لم تكن صورة زاهدة بالمعنى الصحيح . إذ أن العلماء كانوا يحصلون على كل مطالبهم الضرورية ، وكانوا يتمتعون جسديا ونفسيا بكل ما يميل إليه الإنسان السوي ، أما انصرافهم عن الاتجار أو الكسب فراجع إلى أن طبيعتهم ذاتها تأبى الانشغال بهذه الأمور .

ولكن ، ماذا نقول عن الشهرة ؟ هل صحيح أن العالم ، كما كان يشيع في العصور القديمة والوسطى ، إنسان يزهد في الشهرة ويبحث عن الحقيقة في صمت ، دون أن يهتم بأن يعرفه أو يسمع عنه أحد ؟ الواقع أن هذا الرأي يظل صحيحا إذا كنا تعني بالشهرة ذلك الضجيج الإعلامي والإعلاني الأجوف الذي يتمتع به نجوم السينما أو الرياضة البدنية أو بعض السياسيين . فالعالم لا يجد متعة في أن يشيع اسمه بين عامة الناس وسط أسماء تلك الشخصيات التي تهتم بها وسائل الإعلام الجماهيرية الحديثة ، والتي هي في معظم الاحيان شخصيات سطحية . ولكن هناك نوعا آخر من الشهرة يسعى إليه العالم بكل حماسة ، هو الشهرة في الوسط العلمي ذاته.

بل إن كل من مارس تجربة البحث العلمى على حقيقتها يعلم أن كلمة صدق يقولها عالم آخر ممتدحا فيها بحثه ، قد تكون أحب لديه من أموال الدنيا .
وهكذا يتحمس العالم للشهرة بمعنى اعتراف المتخصصين والعارفين بقيمة عمله ، أما الشهرة الجماهيرية السطحية فلا تهمه فى شيء ، لأنه على أية حال لن يستطيع ، مهما فعل ، أن يجارى مطربا عاطفيا أو لاعبا رشيقا فى اكتساب الشهرة بين عامة الناس .

وأخيرا ، فلعل موضوع المال هذا أن يثير مشكلة أصبحت تلقى فى السنوات الأخيرة اهتماما كبيرا فى بلاد العالم الثالث ، ومنها بلادنا العربية ، وكذلك فى الهيئات الدولية التى تعنى بشئون البلاد النامية ، وأعنى بها تلك المشكلة المعروفة باسم هجرة العلماء أو تسرب العقول . فنحن نعانى من رفض عدد كبير من أبنائنا الذين يتعلمون فى الخارج ، العودة إلى أوطانهم التى هى فى أشد الحاجة إلى خبرتهم وعملهم لكى تبنى لنفسها مستقبلا أفضل . ومن المعترف به أن قوة الجذب التى توجد لدى بعض الدول المتقدمة ، والتى تتمكن بواسطتها من أحتجاز اعداد كبيرة من علماء البلاد النامية ، هى من أهم العوامل التى تؤدى إلى مضاعفة معدل التقدم فى تلك البلاد ، وتباطؤ هذا المعدل فى البلاد التى يهاجر منها العلماء .

والتفسير الشائع هو أن المال عامل حاسم فى هجرة العلماء ، لا سيما وأن البلاد التى يهاجرون إليها قادرة على إغرائهم بأجور تزيد أضعافا مضاعفة عن أقصى ما يحلمون به فى بلادهم الأصلية . وقد يكون عامل المال ذا تأثير بالفعل فى بعض الحالات ، ولكن أغلب الظن أن هناك عوامل أخرى تنتمى إلى صميم العمل العلمى ، هى التى تدفع العلماء إلى ترك بلادهم الأصلية وتقديم خبراتهم إلى بلاد غريبة عنهم . وعلى

رأس هـذه العوامل ، وجود الجو الذى يـسمح للعالم بممارسة عمله على الوجه الذى يتطلع إليه . ففى أعتقادى أن عامل تحقيق الذات يقوم ، فى حياة العالم ، بدور يفوق بكثير جميع التطلعات المادية ، وإحساس العالم بأنه يحقق كل ما لديه من إمكانات ، وبأن فرص البحث مهيأة له بلا عوائق ، وبأن الجو العام ، فى المجتمع الذى يعيش فيه ، يسمح له بالمضى فى عمله العلمى دون أن تشغله الدسائس والمؤامرات والمشاغل التافهة ــ هذا الإحساس هو العامل الحاسم فى اختياره للمكان الذى يفضل أن يعمل فيه .

وأوضح مثل على ما نقول هو ما حدث لعلماء الصين : إذ كان عدد من هؤلاء العلماء قد هاجروا إلى الخارج ، وخاصة إلى الولايات المتحدة ، حيث تبوأوا مراكز مرموقة ، وكانوا يتقاضون مرتبات ضخمة . ولكن فى اللحظة التى دعاهم فيها الوطن إلى العودة ، عاد معظمهم بالفعل ، ولم يكن هناك أى وجه للمقارنة بين أحوالهم الجديدة ووضعهم القديم من الناحية المالية ، ولكن كان هناك الإحساس بأن الوطن فى حاجة إليهم ، وبأن المجتمع ينفق على البحث العلمى بأقصى ما يمكنه من سخاء ، وبأن أدوات البحث العلمى ، من أجهزة ومراجع ، متوافرة ، كما أن الجو العام يشجع على البحث ولا يضع أية معوقات أمام المشتغلين به . وبالفعل لاحظ المراقبون الذين زاروا هذا البلد ، حتى من بين خصومه أن الدولة تعامل العلماء ومراكز البحث معاملة تفوق بكثير مستوى التقشف العام السائد فى المجتمع . وهذا أقصى ما يحتاج إليه العالم : أن يشعر بأن بلده محتاج إليه ، وبأن نتائج بحثه لن تهمل وإنما ستعود على المجتمع بالنفع ، وبأن الدولة تحترم العلم وتخصص له كل ما فى طاقتها من امكانات ، وبأنه يشارك بصورة إيجابية فى مسيرة مجتمع يسعى بجدية من أجل النهوض . أما الكسب أو المال فيأتى فى مكانة ثانوية إذا تحققت هذه الأهداف

الرئيسية . ومن المؤكد أن المجتمع الذى يحترم العلم إلى هذا الحد لن يقبل أن يترك علماءه يعيشون فى مستوى هابط ، كما أن العالم ، من جهته ، لن يطلب لنفسه أكثر مما يطيق مجتمعه إذا ايقن أن هذا المجتمع جاد ، وأنه خلا من الفساد والانتهازية والوصولية والرغبة فى التسلق على أكتاف الآخرين وعلى حساب قوتهم الضرورى .

٣ ـ الحياد :

قلنا من قبل إن الموضوعية هى الصفة التى تلخص جميع جوانب الأخلاق العلمية ، وعرضنا لمعنيين من معانى الموضوعية : هما الروح النقدية والنزاهة . والمعنى الثالث للموضوعية هو الحياد ، وهو معنى عظيم الأهمية ، وإن كان يثير اشكالات ينبغى أن يتنبه إليها المرء حتى لا يسىء فهم هذا اللفظ الذى يُستخدم ، رغم وضوحه ، بمعان شديدة التباين .

إننا نصف الشخص الموضوعى بأنه محايد ، ونعنى بذلك أنه لا ينحاز مقدما إلى طرف من أطراف النزاع الفكرى أو الخلاف العلمى . فالعالم ينبغى أن يقف على الحياد ، بمعنى أن يعطى كل رأى من الآراء المتعارضة حقه الكامل فى التعبير عن نفسه ، ويزن كل الحجج التى تقال بميزان يخلو من الغرض أو التحيز . فالموضوعات التى يعالجها ، والأفكارالتى تقدم إليه ، تقف كلها أمامه على قدم المساواة ، دون أية محاولة مسبقة من جانبه لتفضيل إحداها على الأخرى . وعندما ينحاز العالم آخر الأمر ، فلابد أن يكون انحيازه هذا مبنيا على تقدير موضوعى بحت لإيجابيات الحجج وسلبياتها . والعالم محايد بمعنى أنه يترك تفضيلاته الذاتية جانبا : إذ أننا لا نستطيع بغير شك ، أن نتصور عالم نبات يهتم فى أبحاثه بزهرة معينة لمجرد كونه يحبها ، أو عالم حيوان يهمل نوعا حيوانيا معينا لمجرد أنه لا يطيق شكله .

ولكن معنى الحياد العلمي اكتسب في وقتنا هذا أبعادا أوسع من ذلك بكثير . وأول هذه الأبعاد ذو طابع أخلاقي واضح . فمن الشائع أن نجد كتابات تتهم العلم بأنه سبب الشرور التي تعانيها البشرية ، وخاصة بعد أن أدى تحالفه مع التكنولوجيا إلى تغيير وجه الحياة على نحو يرى فيه الكثيرون انحدارا لإنسانية الإنسان . ولكن من المألوف ، من ناحية أخرى ، أن نرى كتابا يمجدون العلم على أساس إنه هو القوة القادرة على أن تحقق الجنة الموعودة للإنسان على سطح هذه الأرض . وهكذا يتهم بعضهم العلم بأنه ينزع إلى الشر بطبيعته ، ويتغنى البعض الآخر به لأنه مصدر أعظم خير يستطيع الإنسان أن يحققه في حياته .

ولكن الرأي الأكثر شيوعا من هذين الرأيين ، هو القائل إن العلم « محايد » بين الخير والشر . فالعلم أداة تتيح للإنسان أن يفهم العالم المحيط به ، وأن يفهم نفسه ، على نحو أفضل ، ومن ثم فهو يزيد من قدرته على السيطرة على العالم الخارجي ، وعلى عالمه الداخلي الخاص . ولكن هذه القدرة « محايدة » بمعنى أنها لا تعدو أن تكون طاقة أكبر ، قابلة لأن تشكل في اتجاه الخير أو الشر . وهذه الطاقة قد تكون عقلية ، تتمثل في فهم أفضل للظواهر ، أو مادية ، تتمثل في مزيد من السيطرة على هذه الظواهر وتسخيرها لأغراض الإنسان . ولكن هذه الأغراض قد تكون متجهة إلى تحقيق السعادة والرخاء للبشر وقد تتجه إلى إرضاء نزوات حاكم مستبد أو تحقيق مصالح فئة جشعة أو ضمان التفوق لشعب مغتصب .

والأمر الذي يؤكد حياد العلم هذا ، أن العلم ذاته ليس مسئولا عن التصرف في النتائج التي يتوصل إليها . فالعالم ، في عصرنا الحديث ، يشتغل لحساب مؤسسة أوسع منه : قد تكون هي الدولة ، أو شركة تجارية ، أو على أحسن الفروض معهد علمي . وفي كل الحالات يكون القرار النهائي

الذي يحدد طريقة التصرف فيما يكتشفه العالم خارجا عن إرادته . والمثل الواضح على هذا هو القنبلة الذرية على نحو ما عرضنا من قبل . وهكذا نجد العالم محكوما بقوى خارجية من جميع جوانب عمله العلمي : فقبل أن يشرع في هذا العمل لابد أن يعتمد على مؤسسة كبيرة توفر له إمكانات البحث التي تزداد تكلفة وتعقيدا يوما بعد يوم . وبعد أن ينتهي من عمله العلمي ، ويتوصل إلى كشف أو اختراع جديد ، لا تكون له الكلمة أو سلطة اتخاذ القرار بشأن هذا الكشف ، بل تتصرف فيه المؤسسة التي يعمل لحسابها . وهذه المؤسسة يتحكم فيها ، غالبا ، سياسيون أو تجار (أو سياسيون تجار !) ومن ثم فهي تصدر قراراتها بطريقة لا شأن لها بالعلم ، وتحدد أهدافها وفقا لمصالحها الخاصة . وهكذا يضطر العلم إلى أن يقف على الحياد ، وهو في هذه الحالة حياد مرتبط بالعجز ، لأن العلم ، بقدر ما أصبح يتحكم في مصير العالم ، لا يملك مصيره بيده .

فإذا وجدنا العلم يؤدي إلى حروب وكوارث ، ويشجع على القسوة والجشع ، فلنعلم أن هذه ليست صفات مرتبطة بالعلم في ذاته ، وإنما هي نتائج تترتب على « طريقة معينة » في التصرف بنتائج البحث العلمي ، وكان من الممكن ، لو تصرفنا بهذه النتائج بطريقة أخرى ، أن يكون العلم خيرا ورخاء كله . أي أن طريقة استخدام العلم هي التي تحدد مدى أخلاقيته أو لا أخلاقيته .

هذا هو الوضع الشائع لمشكلة علاقة العلم بالأخلاق ، وهو أيضا المعنى المألوف لتعبير « حياد العلم » . ولكننا نستطيع أن نتأمل هذا الموضوع بنظرة أعمق ، فنجد فيه أبعاد أخرى غير هذه الأبعاد المألوفة والمعروفة . ذلك لأن صفة الحياد هذه يمكن ، من زاوية معينة ، أن تكون موضوعا للاتهام والإدانة ، ولا تكون على الدوام صفة مرغوبة في العلم . ويحدث

ذلك حين يعني الحياد عدم الاكتراث أو تبلد الفكر والمشاعر ، بحيث يستمر العالم في عمله بغض النظر عما يمكن أن يترتب عليه من خير أو شر . وفي هذه الحالة يكون كل ما يهدف إليه العالم هو مواصلة البحث العلمي ، والتغلب على التحدي الذي تواجهه به صعوبة ما ، والسعي إلى بلوغ أقصى النتائج الممكنة للعمل الذي بدأ يشتغل به . أي أن المضي في البحث العلمي يصبح غاية في ذاتها ، بغض النظر عن أية غاية أخلاقية أو لاأخلاقية يمكن أن يخدمها هذا البحث . مثل هذا الموقف يعد بدوره « حيادا » ، ولكنه حياد يتضمن في داخله نتائج خطيرة من الوجهة الأخلاقية . ذلك لأن من الممكن القول إن العلماء الألمان الذين كانوا يبحثون لكي يساعدوا « هتلر » على تطوير أداته الحربية لم يكونوا كلهم من الأشرار ، وإنما كان معظمهم مفتونا بأبحاثه مستغرقا فيها بصورة « حيادية » ، بحيث كان كل ما يهمه هو استطلاع جميع الآفاق المتاحة له حتى نهايتها . وهذه السلبية أو عدم الاكتراث بالنتائج التي يمكن أن تترتب على العمل العلمي تفتح الباب بسهولة لاستغلال العلماء أنفسهم من أجل تحقيق أشد الأغراض بعدا عن الأخلاق والإنسانية .

وعلى الطرف المضاد ، نستطيع أن نقول أيضا إن مكتشف البنسلين لم يكن بالضرورة إنسانا يستهدف غاية أخلاقية أو خيرة ، بل إنه وجد أمامه ، بالصدفة ، بابا مفتوحا يقود إلى طريق مليء بالمفاجآت الجديدة والمثيرة ، فكان كل هدفه هو السعي في هذا الطريق ومعرفة النهاية التي يمكن أن يوصله إليها . ومثل هذا السعي المستمر إلى مواصلة البحث لذاته ، يمكن في حالات كثيرة أن يعني وقوف العام بمعزل عن الأخلاق وعن قيمها ، وهو الموقف المسمى باسم Amoralism ، حيث لا يكون المرء أخلاقيا أو معاديا للأخلاق ، وإنما يقف خارج نطاق القيم الأخلاقية أصلا . وبالرغم من أن هذا

الموقف ليس فى ذاته شرا فإنه يمكن أن يؤدى بسهولة إلى الشر ، ويولد فى نفس العالم نوعا من تبلد الحس وجمود المشاعر .

ولقد دافع البعض عن هذا الموقف على أساس أن البحث عن الحقيقة لذاتها هو أمر محايد أخلاقيا ، أو لا شأن له بالأخلاق . وزكَّى هذا الدفاع ، على المستوى الفلسفى ، موقف مذهب فلسفى معاصر ، هو « الوضعية المنطقية » ، وهو مذهب يؤمن بأن القيم ، سواء أكانت أخلاقية أو جمالية ، تخرج عن نطاق العلم ، الذى يجب أن يكون « محايدا » ، على حين أن القيم تعبر بطبيعتها عن تفضيلات شخصية . وحين نعبر عن تفضيلاتنا نضع الأشياء فى سلم صاعد أو هابط ، أي أننا لا نضعها على مستوى واحد ، على حين أن العلم بطبيعته يعالج موضوعاته من نفس المستوى ، دون تحيز أو تفضيل . فإذا أردنا أن نجعل للقيم مكانا فليكن ذلك ، حسب رأى الوضعية المنطقية ، فى ميدان الفن أو الأدب ، أما فى العلم فلا يسود إلا « الحياد » التام الذى يستبعد كل القيم والتفضيلات الاخلاقية .

هذا المعنى للحياد العلمى ، فى المجال الأخلاقى ، مبنى على افتراض غير مؤكد ، هو أن الحقيقة لا شأن لها بالقيم الأخلاقية . ذلك لأن هناك وجهة نظر أخرى نعتقد أنها تستحق التقدير ، تذهب إلى أن الحقيقة هى ذاتها قيمة عليا ، وأن السعى إليها هو فى ذاته خطوة أساسية فى طريق الأخلاق . فالبصيرة التى نكتسبها بفضل الحقيقة ، والاستنارة التى تبعثها فى نفوسنا المعرفة ، هى بلا شك أمور أخلاقية أو مرتبطة مباشرة بالأخلاق . والتضحيات التى يبذلها العلماء من أجل تحقيق كشوفهم ، تنطوى على دوافع أخلاقية لا شك فيها : إذ لا يمكننا أن نتصور العناء والجهد والمكابدة ، التى يعانيها العالم ، إلا إذا كانت هناك روح معينة ، ذات طابع أخلاقى ، تدفعه إلى أن يتحمل ذلك كله ، ويتنازل عن النمط السهل المريح

الذى تسير عليه حياة الناس ، لكى يحيا حياة مكرسة للعلم وحده . والصراع ضد الجهل عمل أخلاقى جليل ، لا سيما إذا اقترن بتضحيات ناجمة عن التصدى للقوى التى تقف وراء الجهل وتسانده وتحارب كل من يسعى إلى نشر الحقائق . ولا جدال فى أن العالم الذى يحارب من أجل حقيقة يؤمن بها عن اقتناع ، أو الذى يكرس حياته من أجل كشف يبدد ظلام الجهل أو يحقق للإنسان مزيدا من السيطرة على الطبيعة ـ هذا العالم يقف فى صف واحد مع الأنبياء والمصلحين الذين لم تكن حياتهم مكرسة ، فى الواقع ، إلا لأهداف مماثلة .

ومن المسلم به أننا قد نجد علماء يفتقرون إلى الروح الأخلاقية كما ينبغى أن تكون ، بل قد نجد منهم من ارتكبوا فى حق الأخلاق أخطاء فادحة . ولدينا على ذلك مثال واضح فى شخصية فرانسيس بيكن Sir Francis Bacon الذى كان رائدا من رواد الروح العلمية الحديثة فى أوربا ، رغم أنه هو ذاته لم يكن عالما . فهذا المفكر الفذ ، الذى أدرك منذ وقت مبكر طبيعة البحث العلمى الحديث ، والاختلافات القاطعة بين المعرفة العلمية التى تستهدف السيطرة على العالم ، وتلك التى كانت فى العصور القديمة والوسطى تكتفى بمجادلات لفظية عقيمة ـ هذا المفكر كان إنسانا لا أخلاقيا إلى حد بعيد : إذ كان من شيمه الغدر بالأصدقاء ، وخداع الناس عن طريق الاقتراض منهم دون أن يسدد شيئا ، وقبول الرشاوى من المتقاضين فى محكمة يرأسها هو نفسه ، والانغماس فى دسائس القصور ومغامراتها . كل هذه كانت مساوىء أخلاقية مؤسفة ، ولا سيما حين تصدر عن فيلسوف محب للحقيقة . ولكننا نستطيع أن نقول ، من وجهة نظر أخرى ، إنه لم يكن إنسانا لاأخلاقيا تماما . فقد كانت أخطاؤه كلها تنتمى إلى ميدان السلوك الشخصى فى الحياة الخاصة أو العامة ، ولكنه كان فى

تفكيره العلمي شخصا أخلاقيا بكل ما تحمله الكلمة من معنى . فهو لم يكن يزيف الحقائق أو يجامل أحداً في الحق ، ولم يكن يتردد في مهاجمة أقوى السلطات العلمية في عصره إذا تبين له أنها عقبة في وجه المعرفة الجديد التي يدعو إليها . وهو قد تحمل في سبيل ذلك تضحيات عديدة ، بل ربما كان جزء كبير من انحرافه ، على المستوى الشخصي ، راجعا إلى رغبته في أن يحصل على منصب رفيع يساعده على تحقيق المشروعات العلمية الكبرى التي كان يحلم بها .

وهكذا فإن السعي المستمر إلى الحقيقة ، الذي تتميز به حياة العالم ، يؤدي به إلى اعتياد الصدق وعدم التفريط في القيم المعنوية المرتبطة به ، مهما كان مستوى أخلاقية العالم في حياته الخاصة . بل إن القدرة على الاحتفاظ بموقف « الحياد » ، بمعنى التجرد والتنزه والبعد عن التحيز والهوى ، هي في ذاتها موقف أخلاقي لا شك فيه ، ومن هنا فإن التعبير القائل إن العلم « محايد أخلاقيا » يمكن ، من وجهة نظر معينة ، أن يعد تعبيرا غير كاف لوصف طبيعة العلم . فالحياد نفسه موقف أخلاقي ، أو هو انحياز إلى الأخلاق ، إذا فهمناه بالمعنى الذي أشرنا إليه منذ قليل ، لا بمعنى الوقوف موقف المتفرج ازاء الاخلاق ، أو الاستعداد لتقبل الخير والشر معا ، على النحو الذي يُفهم به هذا اللفظ عادة . وهكذا يكون الجهد العلمي هو ذاته نوعا من الجهاد الاخلاقي ، ويكون التحلي بقدر معين من القيم الأخلاقية صفة أساسية للعالم ـ هذا طبعا إذا كان عالما بالمعنى الصحيح .

العلم والأخلاق في العصر الحاضر :

في العصور السابقة كان هناك حد فاصل بين السعي إلى المعرفة والسلوك العلمي ، أو بين الفهم النظري للظواهر وإرضاء الإنسان لملكة حب

الاستطلاع عنده من جهة ، وبين القواعد الاخلاقية التى يتفاهم الناس ويتلاقون على أساسها من جهة أخرى . فالعلم ــ كما أوضحنا فى فصل سابق ــ كان طوال جزء كبير من تاريخه نشاط نظريا صرفا ، وكان من الطبيعى عندئذ ألا يقترب من مجال الأخلاق ، بل أن يكون هناك اختلاف جوهرى بين الاستخدام النظرى للعقل ، فى المعرفة ، واستخدامه العملى فى الأخلاق . أما فى عصرنا الحاضر فقد أصبح التداخل وثيقا بين المجالين ، بحيث أصبح العلم يتدخل فى تفكيرنا فى مشاكلنا الأخلاقية ، كما أصبحت الأخلاق تسعى إلى توجيه العلم ، أو على الأقل تستهدف اختباره بطريقة نقدية .

على أن هذا الانتقال ، من الانفصال التام بين العلم والأخلاق إلى التداخل الوثيق بينهما ، لم يحدث فجأة ، وإنما حدث على مراحل متعددة ، ومهدت له ظروف كثيرة . وفى وسعنا أن نلخص أهم مراحل الانتقال هذه فيما يلى :

١ ــ فى مطلع العصر الحديث انهار المثل الأعلى القديم للمعرفة ، وهو « العلم لأجل العلم » . وبدأ ظهور مفهوم جديد للعلم ، يدور حول فكرة السيطرة على الطبيعة والوصول إلى مزيد من التحكم فى العالم الخارجى .

٢ ــ بعد فترة غير طويلة أخذ العلم يسعى إلى تحقيق هذا الهدف نفسه فى مجال الإنسان ، أى أن يحقق ، بالنسبة إلى عالمنا الداخلى ، نفس القدرة على الفهم ، وعلى السيطرة ، التى تحققت لنا بالنسبة إلى الطبيعة .

٣ ــ كان هذا الانتقال إلى هدف جديد للعلم ، غير المعرفة النظرية المنقطعة الصلة بالواقع ، يعنى من الوجهة النظرية ، التقريب بين مجالى المعرفة العلمية والتطبيق العلمى ، لأن العلم أصبح هو ذاته نوعا من السلوك ، وسعيا إلى التغيير .

٤ ـ وكان معناه ، من الوجهة العملية ، إثارة مشكلات تتعلق بكيفية استخدام العلم والغايات التى ينبغى أن يخدمها ، والجوانب التى يطبق فيها ، والنتائج المترتبة على الكشوف العلمية بالنسبة إلى حياة الإنسان . كل هذه كانت أسئلة جديدة لم يكن من الممكن أن تظهر فى ظل التصور القديم للعلم ، وكان من المحال أن نجد لها نظيرا عند فلاسفة مثل أفلاطون وأرسطو ، خاضوا جميع ميادين الفكر ، ولكنهم ظلوا ينظرون إلى العلم على أنه تأمل محض ، ويضعون بينه وبين حياة الإنسان العملية واليومية حواجز لا يمكن عبورها .

٥ ـ وكان اقتحام العلم لميدان « النفس الإنسانية والمجتمع البشرى » ، إيذانا ببدء عهد جديد يقترب فيه العلم من صميم المشكلات العلمية للإنسان . صحيح أن أقطاب علم النفس وعلم الاجتماع كانوا ، ومازالوا ، يلحون على ضرورة الاحتفاظ بالطابع « الموضوعى » لأبحاثهم ، ويؤكدون أنهم يحللون الظواهر ويصفونها كما هى موجودة بالفعل ، ولا شأن لهم بما « ينبغى » أن تكون عليه ، ويضعون فاصلا حادا بين دراسة الواقع كما هو كائن ودراسة القيم التى تنقلنا إلى مجال « ما ينبغى أن يكون » . هذا كله صحيح ، ولكن الأمر الذى لا يمكن إنكاره هو أن العلم حين اقترب من ذلك المنبع الذى تصدر عنه القيم كلها ، أعنى النفس الإنسانية والمجتمع البشرى ، كان لابد أن يتداخل مع تأثير الأخلاق .

٦ ـ وفى عصرنا الحاضر ازداد هذا التداخل وثوقا ، ذلك لأن التغلغل المتزايد للتطبيقات العلمية والتكنولوجية فى حياتنا ، جعل العلم يتصل اتصالا مباشرا بمشكلات حيوية ، بل مصيرية ، مثل مشكلة البقاء أو الفناء ، ومشكلة التلوث ، والتزايد السكانى ، والأزمات الغذائية ، وكلها أمور تقع على الحدود التى تربط بين العلم والتكنولوجيا من جهة ، والأخلاق

من جهة أخرى .

وهكذا تطورت الأمور بحيث أصبحنا لا نجد مفرا من البحث فى النتائج الأخلاقية للعلم ، وأصبح العلم فى عصرنا الحاضر قوة تؤثر فى حياتنا ومسلكنا العملى ، لا مجرد إرضاء لحب استطلاعنا ، وزال الحد الفاصل بين وظيفة العلم فى القاء الضوء على ما هو كائن ، ووظيفة الأخلاق فى إرشادنا إلى ما ينبغى أن يكون .

ولقد اعترفت البلاد المتقدمة علميا بهذه الحقيقة لإنها لمستها عن قرب من خلال تجارب مباشرة أدى فيها التقدم العلمى والتكنولوجى إلى اثارة مشكلات أخلاقية لها خطورتها الكبرى . ونستطيع أن نضرب لذلك مثلا واحدا كان له بالفعل أصداء واسعة فى تلك البلاد ، هو حبوب منع الحمل . فقد ظهرت هذه الحبوب بوصفها مثلا واضحا لقدرة العلم على التدخل فى مجرى الحوادث الطبيعية ، وتنظيم حياة الإنسان ، وتمكينه لأول مرة من أن يتحكم فى نسله . وكان ذلك انتصارا علميا عظيما له تأثيره الهائل فى جميع أرجاء العالم ، ويكفى أنه أتاح لملايين الأسر ألا تنجب أطفالا غير مرغوب فيهم ، بينما كانت نسبة كبيرة من الإنجاب ، فى كل التاريخ السابق للبشرية ، لا ترجع إلى رغبة حقيقية فى جلب أطفال جدد إلى العالم . ولكن هذا الانتصار العلمى الكبير ، الذى حقق للإنسان السيطرة على عملية من أهم عملياته البيولوجية ، وبدا أنه يبشر بعهد يتم فيه تنظيم النسل على مستوى عالمى مخطط ، كانت له نتائج أخلاقية هائلة . ذلك لأنه أحدث انفصالا بين الجنس ، من حيث هو ممارسة ، وبين انجاب الاطفال ، أى أنه أصبح من الممكن أن يمارس الجنس دون خوف من الحمل . ونظرا إلى أن هذا الخوف كان ، فى كثير من المجتمعات البشرية ، هو الدافع الحقيقى إلى التمسك بالعفة ، فإن زواله كان يعنى زوال سبب رئيسى للتمسك بالقيم

الأخلاقية المتعلقة بالجنس . وهكذا اتسع نطاق الممارسات الجنسية الحرة ، في المجتمعات الصناعية المتقدمة ، على أوسع نطاق ، لا سيما وأن الرقابة الأسرية القوية ، والنوازع الدينية التي تميز المجتمعات الشرقية ، كانت ضعيفة أو منعدمة في البلاد المتقدمة . وترتب على ذلك انهيار كثير من القيم الأخلاقية التقليدية ، واختفاء الزواج بشكله القديم اختفاء شبه تام ، وظهور أنواع من العلاقات الحرة التي كان من المستحيل أن تنتشر من قبل . وما هذا إلا مثل واحد للتغييرات الأخلاقية الأساسية التي يمكن أن تترتب على الكشوف العلمية الحديثة .

وطبيعي أن يؤدي هذا المثل ، وغيره ، إلى اثارة مشكلة « مسئولية العالم » في العصر الحاضر . ذلك لأن العالم كان ، تقليديا ، يقوم بالبحث النظري أو التطبيقي وليس في ذهنه إلا هدف واحد ، هو إنجاز ما بدأ . ولكن الوعي المتزايد بالنتائج الأخلاقية والاجتماعية التي يمكن أن تترتب على كثير من الكشوف العلمية في هذا العصر ، جعل من الضروري أن تضاف إلى أعباء العالم مهمة أخرى ، هي أن « يفكر » في تلك النتائج قبل وأثناء قيامه ببحثه ، وربما أن يمتنع أصلا عن مواصلة البحث إذا أيقن بأن نتائجه ستكون وخيمة .

ولقد تفاوتت الآراء في مشكلة « مسئولية العالم » . فهناك من يضيّقون تلك المسئولية إلى الحد الأدنى ، فيرون إنها تقف عند حدود معمله أو مختبره ، وأن العالم لا شأن له بما يحدث خارج هذه الحدود . وهناك من يوسعون هذه المسئولية إلى أقصى حد ، فيؤكدون أنها تمتد في عصرنا الحاضر إلى المجتمع بأسره . ولكل من الفريقين ، وكذلك لمن يقفون موقفا وسطا بينهما ، حججه التي يدعم بها موقفه . ومن الواضح أننا ميالون إلى تأكيد مسئولية العالم ، وأننا نصفق بحماسة حين نجد عالما كبيرا يخرج من

إطار عمله العلمى الخالص لكى ينبه الرأى العام فى العالم إلى خطر يوشك أن يحدثه العلم ، أو حماقة تتزلق إليها البشرية نتيجة للتقدم التكنولوجى . ولكن المسألة ليست دائما بهذه البساطة .

فهناك حالات لا يستطيع المرء أن يكون فيها على يقين من أن تدخل العلماء فى اتخاذ القرارات الكبرى المتعلقة بمصير المجتمع لابد أن يكون خيرا على الدوام . وهناك دول تولى علماءها وخبراءها ثقة زائدة ، وتوكل إليهم أمورها ، فلا تجد النتيجة مشجعة على الدوام . وقد ظهر ذلك بوضوح فى عصرنا الحاضر فى الحملة على ما يسمى « بالتكنوقراطية » . ولفظ « التكنوقراطية » يعبر عن نوع من أنواع الحكم ، كالديمقراطية ، التى تعنى حكومة الشعب أو الأغلبية ، والأرستقراطية ، التى تعنى حكومة الأقلية . أما التكنوقراطية فهى حكومة الفنيين الأخصائيين ، أو هى بمعنى أوسع سيطرة هؤلاء الفنيين وتحكّمهم فى اتخاذ القرارات الكبرى فى المجتمع . هذا النوع من السيطرة ثبت بالتجربة إنه لم يكن خيرا على الدوام .

ذلك لأنه قد تبين أن هذا التكنوقراطى ، الذى هو فى الأغلب عالم متخصص ، أو خبير ذو تجربة واسعة ، ينظر إلى الأمور بمنظور أضيق مما ينبغى ، ينحصر فى إطار اختصاصه وحده . وقد يكون ذلك مفيدا ، بل هو بلا شك ضرورى فى المسائل المتخصصة التى لا تمس إلا نطاقا ضيقا من مصالح الناس ، أما فى المسائل المصيرية ، المتعلقة بمصالح المجتمع ككل ، فإننا كثيرا ما نجد التكنوقراطيين عاجزين عن تأمل الأمور من منظور شامل ، لأن مهنتهم تغلب عليهم ، ونظرتهم العلمية المتخصصة تحجب عنهم رؤية الحقائق الكبرى للمجتمع العريض . ومن هنا فإن هؤلاء التكنوقراطيين كثيرا ما يتخذون قرارات ضيقة الأفق ، وكثيرا ما يجد المجتمع نفسه مضطرا إلى اللجوء إلى « السياسيين » غير المتخصصين ، لكى يصلحوا ما

أفسده العلماء الحاكمون . صحيح أن السياسى لا يملك تلك المعرفة المتخصصة التى يتميز بها هؤلاء العلماء ، ولكنه يتميز عنهم ، على الأقل ، بشمول النظرة ، وبالإحساس بنبض الجماهير ، معرفة وقع القرارات الحاسمة عليها .

وبطبيعة الحال فإن الوضع الأمثل هو أن يكون العالم ذا وعى سياسى فى الوقت نفسه . وهذا أمر يتحقق بالفعل لدى عدد من العلماء الكبار الذين يفخر بهم عصرنا هذا ، والذى لم يمنعهم عملهم العلمى الشاق ، وانهماكهم فى كشوفهم الحاسمة ، من أن يمتدوا بنظرتهم بحيث تتسع لمشاكل العالم الكبرى ، وتدرك وضع الإنسان فى المجتمع المعاصر ، وتنفذ إلى الأسباب العميقة للأزمات التى يعانيها ، وإلى الحلول الفعالة لهذه الأزمات . ولكن أمثال هؤلاء العلماء قلة ، والغالبية الساحقة تنشغل بعملها العلمى إلى الحد الذى يحجب عنها رؤية كثير من حقائق العالم المحيط بها . ومن الصعب أن يعيب المرء على هذه الغالبية قصور نظرتها فى الأمور المتعلقة بالسياسة والأوضاع الاجتماعية ومشكلات الإنسان ، إذ أن العمل العلمى يزداد تعقيدا على الدوام ، ومن الطبيعى أن يكون فى المشكلات المهنية الخاصة ما يشغل العالم بما فيه الكفاية .

ومع ذلك كله فإن العالم فى عصرنا الحاضر ينبغى أن يكون لديه حد أدنى من الوعى بالنتائج المترتبة على عمله العلمى ، وهذا يرجع إلى أن طبيعة العلم ذاتها قد أصبحت تقتضى ذلك . فحين تتغير وظيفة العلم ، من نشاط لا يؤثر إلا تأثيرا محدودا ، إلى نشاط مصيرى يمتد تأثيره إلى كافة جوانب الحياة البشرية ، يكون من الطبيعى أن تتغير نظرة المشتغل به ، من الاطار المهنى الضيق ، إلى الميدان الإنسانى الشامل . ولو تأملنا العالم المحيط بنا لوجدنا أن الظروف الواقعية ذاتها فى هذا العالم ، تحتم وجود

تداخل وثيق بين العلم والسياسة ، مفهومة بأوسع معانيها ، أى بمعنى التنظيم الشامل لأوضاع المجتمعات البشرية . فلم يعد فى استطاعة العالم أن يمضى فى حياته العلمية مستقلا ، ويبحث المشاكل التى تهمه أو التى يريد كشفها ، بل إنه أصبح ، كما قلنا من قبل ، مرتبطا على الدوام بمؤسسات أكبر منه ، هى التى تقدم إليه الإمكانات ، وتزوّده بالأدوات المعقدة المكلفة التى أصبحت شرطا أساسيا للبحث العلمى فى العصر الحاضر . وينطبق هذا على مختلف أنظمة الحكم القائمة فى العالم : ففى البلاد الاشتراكية يرتبط البحث العلمى بخطة الدولة ، وهى خطة سياسية فى المحل الأول ، تحدد للعلماء مجالات البحث المطلوبة ، ومقدار التمويل والتسهيلات التى ستقدمها الدولة إليها . وفى البلاد الرأسمالية يشتغل عدد كبير من العلماء فى مؤسسات ذات أهداف تجارية مباشرة . وحتى العاملون فى الجامعات ، يقومون بكثير من مشروعاتهم لصالح هذه المؤسسات . بل إن المرتبات التى يحصل عليها علماء الجامعات ومعاهد البحث ، يأتى جزء كبير منها من مساهمات المؤسسات الصناعية والتجارية فى ميزانيات الجامعات والمعاهد . ومن الطبيعى أن تفرض هذه المؤسسات اهتماماتها الخاصة على مجالات البحث ، فضلا عن أنها لا تود أن يخرج المشتغلون بالعلم عن إطار السياسة العامة التى تحافظ على مصالح هذه المؤسسات . وإذا كان يبدو أن تحكّم « الخطة » التى تضعها الدولة ، فى النظام الاشتراكى ، هو الأقوى ، فإن حقيقة الأمر هى أن المؤسسات ذات الأغراض التجارية تحل محل الدولة فى رسم السياسة المطلوبة للبحث العلمى فى المجتمعات الرأسمالية ، لأنها تمول نسبة كبيرة من مشروعات البحث العلمى عن طريق التبرع بأموال طائلة تخصم من الضرائب المستحقة عليها ، وبذلك تضمن سيطرتها دون أن تخسر شيئا ، وتضمن فى الوقت نفسه استمرار المبادىء العامة التى تتمشى مع

مصالحها .

ولكن ، بالرغم من أن الاعتبارات السياسية تتحكم فى العلم الحالى إلى هذا الحد ، فإن كثيرا من المجتمعات تطالب العلماء بألا يتدخلوا فى السياسة ، وتضع كثير من المؤسسات والجمعيات العلمية هذا الشرط على كل عالم مشتغل بها . فالمطلوب من العالم أن يكون طاقة لمعرفة ، تعمل جهات أخرى على توجيهها وتحديد الأهداف الاجتماعية التى ستخدمها . وإذا شاء العالم أن يعبر عن آرائه السياسية والاجتماعية ، فعليه أن يفعل ذلك بوصفه مواطنا عاديا ، لا بوصفه عالما . وهذا هو الشرط الأساسى « لموضوعية » العالم كما تفهمها مجتمعات كثيرة . وهذا أمر مؤسف ، لأن معناه هو أننا نعمل منذ البداية على استبعاد المنهج العلمى من بحث الموضوعات التى تمس صميم حياة الإنسان ، أعنى الموضوعات السياسية والاجتماعية والأخلاقية ، مع أن هذه الموضوعات قد تكون فى أمس الحاجة إلى أن تُبحث بالأساليب الفكرية السليمة . فحين نعالج هذه الموضوعات متوخين أن نبحث عن الأدلة النزيهة فى كل حالة ، ونبتعد عن أساليب الديماغوجية والتهويش ، وحين نفكر فى سياستنا وشئون مجتمعنا تفكيرا يخلو من الانفعالية ولا يعترف إلا بالحجة المنطقية ، وحين نختبر النظريات التى تنظم وفقا لها حياتنا الاجتماعية عن طريق التطبيق ، كما يفعل العالم فى تجاربه المعملية ، وحين نبحث عن العلاقات السببية الحقيقية بين الظواهر الاجتماعية ، حين نفعل ذلك كله ، فنحن بغير شك نسدى خدمة جليلة إلى قضايا الإنسان المصيرية فى مجتمعاتنا . وفى هذه الحالة يكون العلم قد أثبت وجوده فى المجال السياسى والاجتماعى ، مما يبدد تلقائيا تهريج المشعوذين والأفاقين الذين يتحكمون فى هذا المجال الحاسم بأساليب لا تمت إلى العلم أو التفكير السليم بأية صلة .

ولكن المهم فى هذه الحالة هو أن يكون العلم نزيها بحق ، وأن تعطى له فرصة التعبير عن نفسه دون ضبط أو تأثير ، وهو على أية حال شرط يصعب إلى حد بعيد تحقيقه فى معظم المجتمعات المعاصرة . .

ثقافة العالم

أدى بنا البحث فى الجوانب الأخلاقية لشخصية العالم ، الى تناول مشكلة « مسئولية العلماء » فى العصر الحاضر . وقد تطرقنا عند معالجة هذه المشكلة الأخيرة إلى موضوع حيوى ، هو مدى الوعى السياسى والاجتماعى الذى يجب أن يتصف به العالم فى وقتنا هذا . وهذا الموضوع الأخير يمثل فى الواقع جانبا واحدا من مشكلة أعم بكثير ، هى : إلى أى حد ينبغى أن يخرج العالم فى هذا العصر عن حدود تخصصه ؟ هذه المشكلة هى التى سنعالجها فى صورتها العامة ، ضمن اطار بحثنا الحالى فى « ثقافة العالم » .

والواقع أن هذه المشكلة قد اكتسبت فى وقتنا الحالى أهمية كبرى ، كما أصبحت فى الوقت ذاته مشكلة شديدة التعقيد ، لأن العلم يسير على نحو متزايد ، فى خطين أو طريقين متضادين ، وإن كان كل منهما لا يقل ضرورة عن الآخر . فالعلم يتجه إلى المزيد من التخصص ، مما يؤدى إلى تضييق النطاق الذى يدور فى داخله تفكير العالم واهتمامه ، ولكنه يكتسب فى الوقت ذاته أهمية إنسانية واجتماعية متزايدة ، مما يحتم على المشتغلين به أن يمتدوا بأنظارهم إلى الآفاق الإنسانية الواسعة . وكلتا الحركتين ، كما هو واضح ، مضادة للأخرى . فعلى أى نحو إذن ينبغى أن تتشكل شخصية العالم فى هذا الميدان ؟ وما نوع الثقافة التى ينبغى أن يكتسبها العالم فى عصرنا الحاضر حتى يكون مستجيبا لمقتضيات هذا العصر ؟

إن فى وسعنا أن نعالج موضوع ثقافة العالم على مستويين : الأول منهما هو المستوى العلمى البحت ، والثانى هو المستوى الإنسانى العام . والمستويان متداخلان إلى حد بعيد ، ولكن من المفيد أن نفرق بينهما مؤقتا ، مع إدراكنا إنهما لا يكوّنان إلا جانبين فى شخصية واحدة ينبغى أن تتصف بالتكامل والاتساق بين مختلف عناصرها .

١ ـ من المسلم به أن التخصص فى العلم يزداد بحيث تظهر على الدوام فروع جديدة لعلوم كانت موحدة ، وفروع للفروع ، كما يضيق باطراد نطاق الميدان الذى يستطيع العالم أن يقول إنه « متخصص » فيه ، أى أن يتكلم عنه ، ويبحث فيه ، عن ثقة . هذا التخصص قد أفاد العلم فائدة كبرى ، إذ أنه هو الذى أتاح ذلك التراكم الهائل للمعرفة ، الذى يتميز به عصرنا الحاضر ، والذى قلنا من قبل عنه إنه يؤدى إلى تضاعف مجموع المعرفة العلمية فى كل عدد قليل من السنوات . ولا شك أن هذا التخصص المتزايد مرتبط بالازدياد الكبير فى عدد المشتغلين بالعلم ، لأن هذه الزيادة ضرورية لمواجهة التخصصات والتفرعات التى تظهر بلا توقف .

على إنه إذا كان هذا التخصص المتزايد قد أفاد العلم فائدة لا شك فيها ، فإن فائدته بالنسبة إلى تكوين العلماء أنفسهم ، وبالنسبة إلى شخصية المشتغل بالعلم ، هى شىء يمكن أن يكون مثارا للجدل . ذلك لأن العالم الذى يكرس حياته كلها لمجال شديد الضيق فى فرع من فروع العلم ، يتحدد تفكيره بهذا المجال ويعجز عن الخروج عنه ، لاسيما وأن مقتضيات البحث العلمى ، وكمية المعلومات اللازمة له ، تزداد دواما فى أى ميدان ، مهما كان ضيقة . وهكذا يمكن أن يصبح كثير من المشتغلين بالبحث العلمى أشخاصا ذوى إنسانية ناقصة ، وأبعاد ضيقة : فهم ينّمون إلى أقصى حد ملكة واحدة من ملكاتهم ، فى ميدان محدود جدا ، بينما تظل بقية الملكات

بلا نمو ، وربما ازدادت تخلفا . وقد شبّه الفيلسوف الألمانى نيتشه هذا المتخصص بإنسان يتألف من أذن أو أنف هائلة الحجم ، وبقية جسمه ضئيل إلى جانبها ، هذا على الرغم من أن التخصص فى عهد نيتشه ، الذى يفصلنا عنه قرن كامل ، كان أقل مما هو الآن بكثير .

ويمكن القول إن العالم الذى يريد أن ينجح فى ميدانه مضطر ، فى وقتنا هذا ، إلى أن يعرّض نفسه لهذا الخطر : فإزاء ثورة المعلومات والانفجار المعرفى ، وإزاء ذلك الطوفان المتعاظم من الأبحاث والمقالات والكتب العلمية ، يجد العالم نفسه أمام أحد أمرين : إما أن يحرص على استيعاب ما يكتب فى ميدان تخصصه ، حتى لا يكرر شيئا توصل إليه غيره من قبل ، وحتى يلم بأحدث التطورات فيه ، فيجىء ذلك على حساب تنمية قواه الخلاقة ، وإما أن يمارس قدراته الإبداعية ولا يكرس وقتا أطول مما ينبغى فى قراءة ما هو موجود بالفعل ، فيكون مهددا بتكرار بحث أجراه غيره ، أو بالبدء من جديد فى طريق سبق أن سلكه آخرون .

ولكن هذا التخصص المتزايد لا يمثل ، فى الواقع ، إلا وجها واحدا من أوجه التطور العلمى الحديث . فمع استمرار التخصص وتفرعه ، يوجد اتجاه إلى كشف العلاقات بين الفروع المتباينة ، وإلى إجراء بحوث مشتركة بين عدة فروع Interdisciplinary Research أى أن التكامل يعوض جزئا على الأقل من تأثير التخصص ، ويصبح لزاما على العالم ـ وخاصة من كان عالما كبيرا ـ أن يتوصل إلى نظرة متكاملة إلى عمله : فإذا كان متخصصا فى فرع من البيولوجيا مثلا كان عليه أن يلم ببقية فروعها ، وأن يعالج مشكلاتها من منظور الكيمياء والفيزياء والرياضيات ، الخ ، ومع ذلك فإن لهذا التكامل حدودا لا يتعداها ، إذ إنه يتعلق ببعض الفروع التى تتصل بصورة مباشرة ، أو غير مباشرة ، بموضوع التخصص ، ومن المستحيل أن يكون تكاملا

« موسوعيا » . فقد اختفى منذ وقت طويل ذلك المثل الأعلى الذى ظل يمارس تأثيره حتى القرن الثامن عشر عند فيلسوف مثل « ليبنتس » الذى كان قادرا على استيعاب معظم معارف عصره والإبداع فيها . وإذا كنا نجد اليوم من آن لآخر شخصيات تتصور إنها قادرة على الإحاطة بمختلف جوانب المعرفة البشرية ، وتستعرض معلوماتها أمام الناس فى مختلف فروعها ، فلنعلم أن الجانب الأكبر من هذه المعلومات ناقصة أو زائفة ، وأن العملية كلها استعراضية جوفاء لا تنطلى إلا على البسطاء وغير المتخصصين .

وهكذا تكون هناك حدود « للتكامل » تجعله محصورا فى نطاق معين ، وتظل الغالبية العظمى من المشتغلين بالبحث العلمى عاجزة حتى عن بلوغ هذا التكامل المحدود ، وتزداد أمام أعيننا باستمرار أعداد أولئك الذين يطلق عليهم البعض اسم « الهمجى المتعلم The Learned Savage » ، وهو شخص لم تكتمل صفات الإنسان فيه لأنه لا يحمل من زاد الدنيا إلا المعلومات المتعلقة بميدان ضيق ربما لم يكن الإنسان العادى قد سمع عنه فى حياته .

ومما يزيد من فداحة المشكلة ، أن أمثال هؤلاء المتخصصين محدودى الأفق هم ، فى الأغلب ، أناس مترفعون عن غيرهم ، يتحدثون فيما بينهم لغتهم الغامضة الخاصة ، ويتصورون أن تخصصهم فيها يكسبهم امتيازا على كل من عداهم ، مع إنهم لو خرجوا عن ميدانهم الأصلى قليلا لأصبحوا مكشوفين تماما أمام الغير . أمثال هؤلاء « العلماء الجهال » قد يكونون أحيانا أسوأ من الجهلاء غير المتعلمين ، لأن الأخيرين على الأقل ليست لديهم ادعاءات ، على حين أن الأولين يتصورون أن معرفتهم فى ميدانهم الخاص تبيح لهم أن يعدوا أنفسهم « عارفين » فى الميادين الأخرى . وكثيرا ما نجد هؤلاء الأشخاص يكوّنون مادة طريفة لسخرية مؤلفى الروايات

والمسرحيات الهزلية ، حين يصورونهم وقد تظاهروا بمعرفة كل شىء وهم فى الواقع لا يفقهون شيئا مما يخرج عن ميدانهم الخاص ، أو حين يسخرون من ميلهم إلى تطبيق لغة تخصصهم واصطلاحاته الفنية على ميادين لا شأن لها به على الإطلاق ، أو لا يعجزون عن مواجهة موقف من مواقف الحياة المعتادة ، لإنهم لم يعرفوا كيف يلائمون بين عقولهم التى تشكلت فى قالب ضيق واحد ، وبين مقتضيات هذه الحياة .

٢ ـ أما المستوى الثانى ، الذى يرتبط بالمستوى السابق ارتباطا وثيقا ، فهو المستوى الإنسانى العام . ذلك لأن التخصص المفرط لا يؤدى فقط إلى عزل المشتغل بالبحث العلمى عن كافة جوانب المعرفة الأخرى ، بل يعمل أيضا على توسيع الفجوة بين العلم والإنسان ، إذ يحوّل العلم إلى أداة فنية مفرطة فى التعقيد ، وإلى مجموعة من الإجراءات التى تقتضى تدريبا وتعليما مكثفا ، ومن ثم يتباعد العلم تدريجيا عن الإنسان فى وجوده المتكامل المحسوس ، وفى مشاكله الواقعية العينية ، ويزداد الباحث العلمى عجزا عن رؤية الصورة الكلية للحياة الإنسانية ، لإنه يفنى عمره فى قطاع شديد الضآلة من قطاعات عالم الطبيعة أو الإنسان . وإذا كان العلم فى طبيعته الأصلية ، يستهدف أساسا أن يزيد الإنسان وعيا بإنسانيته ، عن طريق زيادة معرفته وتوسيع أفقه الفكرى ، فيبدو أنه يتجه الآن ، بعد أن أحرز كل هذا القدر من التقدم ، إلي عكس هدفه الأصلى ، أى إلى إقامة حواجز لا يمكن عبورها بين الاشتغال بالعلم وبين المنابع الأصلية للحياة الإنسانية .

ومن أجل هذا لم يكن يكفى العالم ، الذى يريد أن يُبقى على روابطه الإنسانية ، أن يكون أوسع اطلاعا فى فروع المعرفة الأخرى ، التى تتصل بميدان تخصصه اتصالا مباشرا أو غير مباشر ، بل إنه فى حاجة إلى نوع من

الثقافة الإنسانية التى تبعد عن العلم المتخصص بعدا تاما . وهذا مطلب يبدو تحقيقه عسيرا فى ضوء الجهد الضخم الذى يقتضيه البحث العلمى فى وقتنا هذا ، والذى لا يكاد يترك للعالم فراغا لشىء غيره . ولكن الأمر اللافت للنظر هو أن عددا غير قليل من العلماء الكبار الذين يفخر بهم عصرنا الحاضر ، كانت لديهم مثل هذه الاهتمامات ، إذ كانوا يحرصون على أن تظل لديهم هذه النافذة المفتوحة المطلة على عالم الأدب أو الشعر أو الموسيقى أو الفلسفة ، وكانوا يجدون متعة كبرى فى العودة من آن لآخر إلى أحد ميادين الإنسانيات ، بالمعنى الواسع لهذه الكلمة . وربما قدم البعض مبررات لذلك بالإشارة إلى أن مصلحة البحث العلمى ذاته تقتضى ذلك : إذ أن الخروج من آن لآخر عن مجال التخصص يتيح للمرء أن يعود إليه بعد ذلك بعقل أكثر تفتحا ، وبرؤية أشد خصبا ، مما لو كان منغمسا فيه بلا توقف ، كما أن العقل العلمى فى حاجة إلى فترات من الراحة لاستعادة نشاطه وحيويته . وهذه مبررات صحيحة بغير شك ، ولكنها ليست كافية ، إذ أنها ترتد فى نهاية الأمر إلى العلم المتخصص نفسه ، وتجعل من العناصر الثقافية فى شخصية العالم مجرد « وسيلة » يستعين بها على تحقيق هدفه الأول والأخير ، وهو الوصول إلى نتائج أفضل فى ميدان تخصصه . وواقع الأمر أن كثيرا من هؤلاء العلماء الذين يحرصون على تأكيد الروابط بينهم وبين ميادين الإنسانيات ، لا يتخذون من الثقافة مجرد وسيلة تعينهم فى عملهم العلمى ، بل يرونها غاية فى ذاتها ، ويُقبلون عليها لأنهم يحبون الثقافة ويستمتعون بها بالفعل ، لا لكى تكون وسيلة لقضاء فترة فراغ أو جسرا يعبرون عليه من بحث علمى إلى آخر .

هذا الاقبال على الثقافة لذاتها ، من جانب العلماء الكبار ، لا يمكن تفسيره إلا على أساس وحدة الإنسان . فالروح الإنسانية ينبغى أن تظل

محتفظة بوحدتها مهما ضاق نطاق اهتمامها الأصلي . والتخصص الدقيق لا ينفي على الإطلاق أن العالم إنسان ، وإنه بالتالي قادر على أن يتذوق ويستوعب الجوانب الإنسانية في الثقافة بالإضافة إلى اهتمامه العلمي . وإذا كان تقدم الحضارة الإنسانية قد حتم التفرع في ميادين نشاطنا ، وجعل هذه الميادين تتشعب أساسا إلى ميدان علمي وميدان أدبي أو إنساني (أو إلى ما أطلق عليه « سنو Snow » تلك التسمية المشهورة : « الثقافتين » ، العلمية والأدبية) وإذا كان قد حتم تفرعا موازيا لذلك في ملكات العقل الإنساني ، فلابد أن نتذكر على الدوام أن أصل هذا كله ومنبعه الأول روح إنسانية واحدة . وهؤلاء العلماء الذين يحتفظون بتعلقهم بالميادين الإنسانية والأدبية هم الدليل القاطع على وحدة هذا المنبع الذي ينبثق منه كل نشاط عقلي وروحي للإنسان .

والواقع أن الروابط ، وجوانب التشابه ، بين النشاط الذي يمارسه الإنسان في العلم وفي الفنون والآداب أقوى مما يبدو للوهلة الأولى . وحسبنا أن نتأمل هنا دور « الخيال » في هذين الميدانين . ذلك لأننا نتصور عادة أن الخيال ملكة ذهنية لازمة للفنان والأديب وحدهما . على حين أن العالم ، الذي يأخذ على عاتقه مهمة وصف الواقع على ما هو عليه ، دون أية إضافة من عنده ، لابد أن يستبعد الخيال من مجال عمله . ولكن حقيقة الأمر أن العالم ، وإن كان يلتزم بالفعل بتلك النظرة الواقعية ، يجد مجالا خصبا لممارسة ملكة الخيال في صميم عمله العلمي . وحين نتحدث هنا عن « العالم » ، فنحن لا نعني المشتغلين العاديين بالعلم ، الذين يتعين على كل منهم أن يلقي الضوء على جانب معين من جوانب مشكلة علمية ، والذين يقومون بالمهام الروتينية المألوفة في البحث العلمي ، وإنما نعني العلماء الكبار ، أي أولئك الذين يتغير بفضلهم مجرى العلم ، ويتوصلون إلى

كشوف أو نظريات علمية ثورية .

ذلك لأن هؤلاء العلماء الكبار هم الذين يستطيعون ، بفضل النظريات التي يتوصلون إليها ، أن يجمعوا بين عدد هائل من الوقائع والظواهر في إطار واحد ، ويعبروا عن جوانب شديدة التعدد بصيغة واحدة . ولكي يصلوا إلى هذه الصيغة يلجأون إلى عالم وهمي ، هو عالم الرموز والمعادلات الرياضية الذي لا يوجد في الواقع الفعلي ، بل يوجد في ذهن العالم وحده . ولو تأملنا النظرية التي يتوصل إليها العالم الكبير ، بعد أن تكتمل ، لوجدناها نموذجا فريدا لعمل متناسق أشبه بالعمل الفني الرائع . ذلك لأن أهم ما يميز الفن هو الانسجام والتوافق ، وهذا التوافق يؤلف بين عناصر متباينة في وحدة متناغمة . والنظرية العلمية مشابهة لذلك إلى حد بعيد : فحين توصل عالم مثل نيوتن إلى نظرية الجاذبية ، واستطاع أن يجمع علاقات الأجسام الكونية كلها ، سواء منها الحجر الذي يسقط على الأرض ، والقمر الذي يدور حول المريخ في صيغة واحدة تتسم بالبساطة الشديدة ، كان في ذلك أشبه بمن يبدع عملا فنيا رائعا . ومن المؤكد أن قدرة النظرية على تفسير مجال شديد الاتساع ، وضم عدد هائل من الظواهر في وحدة واحدة ، تعطي مكتشف النظرية ، وكذلك كل من يطلع عليها ويفهمها ، إحساسا جماليا واضحا . صحيح أن هذا الإحساس الجمالي ، في حالة الأعمال الفنية ، يكون متعلقا بأشياء محسوسة أو ملموسة ، وأنه في حالة النظرية العلمية يكون متعلقا « بالمجردات » ، أي بالعلاقات الذهنية غير المحسوسة بين الظواهر ، ولكن التشابه بين الحالتين واضح ، لأنه ينصب في هذه الحالة على جمع ما هو مشتت في وحدة متآلفة .

ونستطيع أن نستشعر في أنفسنا الإحساس الجمالي الذي تبعثه الفكرة العلمية المجردة إذا رجعنا إلى ما يفعله التلميذ الذي يدرس الحساب أو

الهندسة فى المدارس العادية . فحين يعمل هذا التلميذ على حل مسألة حسابية أو تمرين هندسى ، قد يلجأ إلى خطوات مطولة معقدة ، يرهق فيها نفسه حتى يصل فى النهاية ، وبعد تعقيد شديد ، إلى الحل المطلوب . ولكنه قد يهتدى إلى هذا الحل ، فى حالات أخرى ، بطريقة مختصرة توصل إلى الهدف مباشرة وتوفر عليه عددا كبيرا من الخطوات . وحين يتأمل المرء هذا الحل المباشر المختصر ، يجد فيه نوعا خاصا من الجمال ، هو جمال عقلى مجرد ، تعبر عنه بساطة الحل وسهولته ، على حين أن الحل المعقد المطول ، وأن كان بدوره حلا ، يثير فى النفس إحساسا بالقبح والافتقار إلى التوافق والانسجام .

ولقد كان إدراك النظام الرياضى الذى تسير عليه القوانين الطبيعية ، فى مطلع العصر الحديث ، باعثا لعدد من أقطاب العلم فى ذلك العصر إلى أن يروا فى الكون عناصر جمالية تتحكم فيه . وهكذا تصور كبلر Kepler العالم الفلكى المشهور ، أن النسب الهندسية الرشيقة البسيطة هى التى تسيطر على الكون . وعندما وجد أن الظواهر الطبيعية الشديدة التعقيد ذات بناء هندسى محكم ، وقابلة للتعبير عنها بمعادلات بسيطة ، بهره هذا الكشف إلى حد إنه تصور أن الله « مهندس » الكون ، بمعنى أنه هو الذى يشرف على جعل الحوادث الطبيعية المعقدة خاضعة لنسب رياضية بسيطة . ولم يكن ذلك راجعا إلى أن نقص فى إيمانه ، بل إنه كان يؤمن حقا بأن المعجزة الالهية الكبرى فى هذا الكون هى الإحكام والتوافق والاتساق الرياضى الذى تتمثل عليه القوانين المتحكمة فى مساره . وتكرر ظهور هذه الفكرة ، التى تربط بين الله وبين الرياضة أو الهندسة ، لدى كبار الفلاسفة فى ذلك العصر ، مثل ديكارت وليبنتس . وكان الجميع يؤمنون بأن فى الكون انسجاما عقليا مجردا وتناسبا فى العلاقات بين الظواهر ، هو الذى تتمثل

فيه أعظم الآيات الإلهية .

وهكذا كان التداخل وثيقا بين التجريد العلمي ، متمثلا في أعلى مظاهره وهي الرياضة ، وبين الخيال الذي يسعى إلى كشف الجمال في كل شيء ، وكان كل كشف جديد يثير لدى العالم حساسية جمالية متزايدة ، بقدر ما يوسع نطاق معرفته ويؤكد سيطرة العقل على الطبيعة .

والحق إننا لا نحتاج إلى أن نذهب بعيدا لكي نؤكد وجود رابطة وثيقة بين العلم وملكة الخيال في الإنسان : ذلك لأن حالات الإبداع العلمي ذاته تؤكد هذا الارتباط تأكيدا قاطعا . فالطريقة التي يظهر بها الكشف العلمي في ذهن العالم قريبة كل القرب من تلك التي تظهر بها فكرة العمل الفني في ذهن الفنان . ولو رجعنا إلى ما كتبه العلماء أنفسهم عن حياتهم الخاصة ، وعن الظروف التي توصلوا فيها إلى كشوفهم ، لوجدنا أن الكثيرين منهم كانوا يهتدون إلى فكرة الكشف الجديد بصورة مفاجئة ، وربما هبطت عليهم الفكرة أثناء النوم ، أو في غفوة أو حلم يقظة ، وربما أثارها شيء بسيط لا يكاد يثير في الإنسان العادي أية فكرة ذات قيمة : كما هي الحال في قصة التفاحة التي سقطت على نيوتن أثناء جلوسه ساهما في الحديقة ، والتي أوحت إليه بقانون الجاذبية (إذا كانت هذه القصة صحيحة) . وهنا لا نكاد نجد اختلافا بين طريقة ظهور نظرية جديدة في ذهن العالم ، وطريقة هبوط « الوحي » على الشاعر بأبيات قصيدة جديدة ، أو ظهور لحن موسيقي جميل في ذهن الفنان .

بل إن التشابه لا يقتصر على هذا الانبثاق ، الذي هو أشبه بالالهام أو الاستنارة المفاجئة الكاشفة ، وإنما يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك . فعلماء النفس يقولون إن مثل هذا « الالهام » لا يأتي عفوا ـ وهم على حق في ذلك ، إذ أن الفواكة وغيرها كانت تسقط على رءوس الناس منذ ألوف السنين

دون أن يستنتج أحد من ذلك شيئا ، كما أن ملايين الناس قد غمروا أجسامهم في الحمامات وارتفعت المياه فيها دون أن يستخلصوا من ذلك أي قانون مثل قانون الطفو (كما تحكى القصة المشهورة الأخرى عن العالم اليوناني الكبير « أرشميدس ») . فلا بد لظهور هذا الالهام المفاجيء من إعداد طويل ، وانشغال دائم بموضوع معين ، ومستوى معين من التفكير . وهذا يصدق على العالم وعلى الفنان معا ، إذ أن القدرة التلقائية على الإبداع دون اعداد سابق مستحيلة في حالة العالم ، كما أنها أصبحت الآن شبة مستحيلة في حالة الفنان بدوره .

وهكذا يمكن القول إن المنبع الذي ينبثق منه الكشف العلمي الجديد ، والعمل الفني الجديد ، هو منبع واحد ، وأن الجذور الأولى والعميقة للعلم والفن واحدة ، ومن ثم فإن العالم الذي ينمي في نفسه حاسة التذوق الفني أو الأدبي إنما يرجع ، في الواقع ، إلى الجذور الاصلية لمصدر الابداع في الإنسان ، وربما كانت رعايته لملكة الخيال في ذهنه سببا من أسباب ابداعه في العلم ، وخاصة لأن النظريات العلمية الكبرى تحتاج إلى قدر غير قليل من الخيال حتى تخرج بصورتها المتناسقة المترابطة . صحيح أن العالم يظل يلاحظ ويراقب ويسجل الظواهر ويجري التجارب عليها ، ولكنه حين يبدع نظريته العامة يقوم بتلك « القفزة » المشهورة التي تتخطى الظواهر المشاهدة وتقتحم عالما كان مجهولا حتى ذلك الحين . وهو في تجاوزه للواقع الملاحظ يحتاج إلى كل ذرة من قدرته التخيلية . فلا عجب أن نجد أقطاب العلم يقتربون من الفن اقترابا شديدا في طريقة إبداعهم ، وفي جرأتهم على استكشاف المجهول .

وبعد هذا كله ، فإن وجود الفن بوصفه عنصرا من عناصر ثقافة العالم ـ مع ملاحظة أن كلمة « الفن » تستخدم هنا بأوسع معانيها ، أي بالمعنى الذي

يشتمل على الفنون المعروفة والشعر والأدب ـــ يجعل من العالم إنسانا أفضل . وإحساس العالم بنبض الإنسانية ، واكتسابه رقة المشاعر التى يبعثها الفن فى النفوس ، قد أصبح شيئا ضروريا فى عصرنا الحاضر بوجه خاص ، حيث يؤدى التخصص المفرط إلى جفاف فى الروح لا تبلله إلا قطرات من نبع الفن ، وحيث تهدد العالم قوى تريد أن تستغل كل إبداع علمى لأغراض معادية للإنسان ، وهى قوى لا يستطيع أن يصمد أمامها إلا علماء يحرصون على حفظ روابطهم بكل ما هو شريف ورقيق وصاف فى النفس الإنسانية .

خاتمة

حين نتأمل بعمق مسار التفكير العلمى عبر العصور ، وحركته التى تزداد توثبا ونشاطا فى عصرنا هذا على وجه التخصيص ، وحين نمعن الفكر فى السمات التى يكتسبها العقل البشرى نتيجة للتقدم العلمى المتلاحق ، ونحاول أن نستشف شكل العالم الذى سيؤدى إليه استمرار هذا التقدم فى المستقبل ، وإذا لم يقدر لعالمنا هذا أن ينتحر عن طريق العلم نفسه ، فى حرب نووية أو بيولوجية لا تبقى ولا تذر ــ حين نمتد بأنظارنا إلى هذه الآفاق المقبلة للعالم فى ظل التقدم العلمى ، فإن المرء لا يملك إلا أن يرى أمامه ، فى المستقبل ، صورة عالم متحد ، تختفى فيه كثير من الفواصل التى تفرق بين البشر فى وقتنا الحالى ، وتجمعه أهداف وغايات واحدة ، وإن لم تتلاشى مظاهر التنوع الخصب التى لابد منها لكى تكتسب حياة الإنسان ثراء وامتلاء .

وحين نقول إن النتيجة التى يؤدى إليها مسار هذا التفكير العلمى ، فى رحلته الطويلة الشاقة ، هى توحيد الإنسانية ، فنحن نعلم تمام العلم أن هذه النتيجة مازالت بعيدة عن أن تتحقق . ولكن الأمر الذى نود أن نؤكده هو أن كل العوامل التى تقف حائلا دون هذا التوحيد تتعارض مع الطبيعة الحقيقية للعلم ، ومن ثم فإن التفكير العلمى ينبغى أن يزيحها جانبا آخر الأمر .

ولكن ، ما هى هذه العوائق التى تقف فى وجه استخدام العلم لصالح الإنسانية جمعاء ، بدلا من أن يُستخدم ـ كما هو حادث فى الوقت الراهن ـ أداة للتفرقة بين البشر ، وزيادة قوة فئات أو مجتمعات معينة على حساب الباقين ؟ إن من المعترف به أن العلم كان ، منذ بداية تقدمه فى العصر الحديث ، يخدم شتى أنواع المصالح والجماعات البشرية ، ولكننا اليوم نستطيع أن نشير إلى طريقتين واضحتين فى استخدام العلم ، تؤدى كل منهما ، بطريقتها الخاصة ، إلى إرجاء اليوم الذى سيصبح فيه العلم قوة موحدة تخدم الإنسانية بلا تفرقة . هاتان هما : النزعة التجارية والنزعة القومية فى استخدام العلم .

***

أن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن العلم فى كثير من المجتمعات المعاصرة مازال يستخدم استخداما تجاريا ، ومازال البحث العلمى فيها يعد سلعة تخضع لمتطلبات السوق وتخدم أغراضه . بل إن بعض العلماء ، ممن يقعون فريسة لأوهام « الاقتصاد الحر » على النحو الذى كان يدعو إليه آدم سميث فى القرن الثامن عشر ، مازالوا يؤمنون بأن هذا الطابع التجارى للعلم هو خير وسيلة للنهوض به ، إذ يؤدى إلى احتدام المنافسة بين المؤسسات التجارية التى تقوم بتشغيل العلماء ، مما يوفر للعلماء شروطا أفضل تعينهم على التقدم فى بحوثهم ، ومن ثم تكون الحصيلة النهائية مزيدا من الكشوف العلمية الناتجة عن هذا التنافس .

ولكن ، مثلما تبين بعد وقت غير طويل ، أن النظام « الاقتصاد الحر » ، إذا ترك يسير تلقائيا دون ضابط ، يؤدى إلى عكس الغرض الذى كان يتصوره مفكروه وفلاسفته الأوائل ، ويوقع الإنسان فريسة للاستغلال بدلا من أن يخدم مصالحه المادية ، فكذلك اتضح أن للاستخدام التجارى

للعلم عيوبا فادحة ، أوضحها تشتيت جهود العلماء وتبديدها . ذلك لأن المشكلة العلمية الواحدة قد تصبح عندئذ موضوعا لبحث فى عدة مؤسسات تتنافس فيما بينها ، وتسعى كل منها إلى أن تسبق الأخريات ، فتضيع بذلك جهود عدد كبير من العلماء فى بحوث متقاربة ، وربما متكررة . ولو كان هناك تخطيط موحد لأمكن تركيز الجهود على نحو أفضل من أجل الوصول إلى أفضل وأسرع حل للمشكلة . وفضلا عن ذلك فإن العلم ، فى ظل الاستغلال التجارى ، يمكن أن يصبح موضوعا للاحتكار . فنظام براءات الاختراع يعطى المؤسسة التى تشترى حق استغلال كشف معين ، الحرية فى استخدام هذا الاختراع ، أو عدم استخدامه ، وقد يظهر كشف علمى أو تكنولوجى هام ، دون أن يعلن على الملأ ودون أن ينتشر بين الناس ، لأن فى نشره إضرارا بمصالح تجارية ضخمة . وهكذا تحدد المؤسسات التجارية توقيت الانتفاع من عدد كبير من الكشوف الجديدة ، وربما اشترت حق الانتفاع بهما كيما تحجبها نهائيا عن الظهور ، إذا كانت تهدد استثماراتها الكبرى ، أى أنها تشترى الاختراع لكى تخنقه ، أو تعلنه فى الوقت الذى تقتضيه مصالحها هى ، لا حاجة المجتمع اليه . ومن هذا القبيل ما أشيع وقتا ما من أن محركا جديدا للسيارات ، أبسط وأقل تكلفة بكثير من المحركات الحالية ، قد اخترع واشترته شركة كبرى لكى تحجبه وتحمى استثماراتها الهائلة المبنية على نظام المحركات الحالى .

على أن العيب الأكبر فى الاستغلال التجارى للعلم هو المبدأ نفسه ، أعنى إخضاع البحث العلمى للاعتبارات التجارية . ذلك لأن العمل العلمى الكبير شىء أعظم وأشرف من أن يقوّم ويخضع للمقاييس التجارية بالمال ، بل إن هذا التقويم المالى يكاد يكون ، من الوجهة العلمية ، مستحيلا : ذلك لأن كل عمل علمى لا يقتصر الفضل فيه على صاحبه فحسب ، بل إنه

يرتكز في الواقع على جهد جميع العلماء السابقين في ميدانه ، ولو حاولنا أن نحصره في شخص مكتشفه لاعترضتنا في هذه الحالة صعوبات أخرى : إذ أن العمل العلمي الجاد لا يستغرق من حياة العالم أوقاتا معينة ، هي تلك التي يقضيها في معمله أو مكتبه ، وإنما يستغرق تفكيره كله ، وربما حياته السابقة بأكملها ، التي كانت كلها إعدادا وتهيئة لهذا الكشف . ومن هنا كان من العسير حساب وقت العمل اللازم له ، على عكس الحال في أنواع الإنتاج الأخرى التي تخضع للتقويم المادي .

إن من الصحيح بالفعل ـ دون أية محاولة للكلام بلغة إنشائية أو لتملق المشاعر بطريقة بلاغية ـ أن هناك أمورا أسمى وأرفع من أن يعبر عنها بلغة التجارة والمال . فالكشف العلمي الذي تعم نتائجه الإنسانية كلها ، شأنه شأن العمل الفني الرفيع الذي يسعد الإنسان ويسمو به في كل مكان ، هي نواتج للعبقرية البشرية لا يصح أن تقاس بالمقاييس المادية . ومع ذلك فإن الحقائق المريرة في عالمنا المعاصر تقول بعكس هذا ، وتؤكد أن العلم يُستغل ويقوّم تجاريا ، وأنه يُستخدم لتحقيق أرباح لمؤسسات معينة ، تجني منه أضعاف ما أنفقت عليه ، وتستخدمه لتحقيق أهداف مضادة لتلك التي يتجه إليها عقل العالم ، ذلك العقل الذي لا يحركه إلا السعي لخدمة البشرية كلها ، لا لتحقيق مصلحة فئة واحدة من فئاتها .

أما النزعة القومية في العلم فربما كانت أشد خفاء من النزعة التجارية التي تعلن عن نفسها صراحة وبلا مواربة . ذلك لإن دول العالم المعاصر ، وأوساطها العلمية ، لا تكف عن ترديد القول إن العلم لا وطن له ، وأنه يتخطى الحدود القومية ، مثلما يتخطى الحواجز السياسية والعقائدية . فمن المستحيل أن نتصور ، مثلا ، كيمياء رأسمالية أو فيزياء اشتراكية ، مثلما أن علم الاحياء الإنجليزي لا يمكن أن يكون ، في أسسه الرئيسية ، مختلفا

عن علم الاحياء الصينى . فالحقيقة العلمية تفرض نفسها على العقل ، فى أى مكان أو زمان ، بقوة المنطق والبرهان وحدها ، أى أن هذه الحقيقة بطبيعتها عالمية ، ولا مجال فيها للتفرقة القائمة على أسس قومية .

ولكن إذا كان هذا هو ما يعلنه الجميع ، فإن الممارسات الفعلية تختلف عن ذلك فى كثير من الاحيان اختلافا بينا . ففى نفس الوقت الذى يؤكد فيه الناس عالمية العلم ، تظهر لديهم اتجاهات تتحدى هذا الاعتقاد الأساسى ، وتؤكد أن النزعة القومية مازالت مسيطرة على عقول الناس فى هذا المجال بدوره . ويظهر ذلك بوضوح قاطع حين نقرأ الكتب التى تصدر عن مؤلفين ينتمون إلى الدول المتقدمة علميا : فالأمثلة التى يضربها المؤلف الفرنسى لعلماء أو لاكتشافات علمية هامة ، نجد أغلبها مستمدا من علماء فرنسيين . وحين يتحدث الانجليزى عن تاريخ العلم فكثيرا ما يبدو للقارىء كما لو كان هذا التاريخ قد كتب على أيدى العلماء الإنجليز ، وقل مثل هذا عن الالمان ، وربما عن الأمريكيين ، وهلم جرا . وكثيرا ما لاحظت أن علماء ومؤرخى الدول الغربية ، حين يتحدثون عن الهندسة اللاأقليدية ، يبرزون دور « ريمان Riemann » الألمانى ويقللون من دور « لوباتشفسكى Lo-batchevsky » ، على حين أن الروس يرفضون حتى أن يوضع هذا الأخير على قدم المساواة مع الأول ، لأن مواطنهم كان أسبق من زميله زمنيا ، ومن ثم فإن له فى نظرهم الفضل الأول فى وضع هذه الهندسة .

وكم من مرة قرأت كتابا فرنسيا فوجدته حين يعرض لنظرية التطور ، يتحدث عن بيفون Buffon ولامارك Lamarck أكثر مما يتحدث عن دارون ، وحين يتكلم عن الكيمياء ، فإن « لافوازييه » يحجب عنده أية شخصية أخرى ، وربما تكلم فى الفيزياء عن باسكال أكثر مما يتكلم عن نيوتن .

وفى عصرنا الحاضر تختلط النزعة القومية بالانحياز الايديولوجى ، فيدافع الكتاب الاشتراكيون عن العلم الذى يظهر فى ظل ايديولوجية اشتراكية ، أو على يد عالم له اتجاهات اشتراكية ، بينما يميل علماء البلاد الرأسمالية إلى الإقلال من دور هؤلاء الأخيرين ، وتأكيد فضل نظامهم على العلم . فمنذ العهد النازى فى ألمانيا نجد العلماء الألمان يتجاهلون « فيزياء أينشتين » زمنا طويلا ، لأنه غادر ألمانيا هاربا من النظام ، وأدى هذا التجاهل إلى تقدم الإنجليز والامريكيين عليهم فى هذا المجال . وفى العهد الستالينى كان عالم الأحياء المشهور « ليسنكو Lyssenko » هو الحاكم بأمره فى ميدانه ، لأنه عرف كيف يوفق ، بطريقة لا تخلو من التلاعب ، بين النظريات البيولوجية وبين الفلسفة المادية الديالكتيكية ، ولذلك كانت نظرياته مدعمة بسلطة الدولة ، وكان خصومه ــ على المستوى العلمى البحت ــ خصوما للدولة ، ومعرضين لكل ضروب الاضطهاد . ومازلنا نجد فى الاتحاد السوفيتى اهتماما كبيرا بأفكار « تسيولكوفسكى Tsiolkovsky » الذى تحدث عن الصواريخ وغزو الفضاء بإسهاب منذ أوائل القرن العشرين . كما نجد من يؤكد أن اختراعات كثيرة ، منها التليفزيون مثلا ، كان أول من توصل إليها روسيا ، أما فى أمريكا فهناك حرص شديد على تأكيد الدور الرائد لعلماء ومخترعين ربما لم يكن العالم الخارجى يعرف عن كشوفهم إلا أقل القليل ، مثل بنجامين فرانكلين وفولتون Fulton . ولا ننسى أن سفن « أبولو » التى هبطت مركباتها على سطح القمر قد حرصت على أن تغرس فى تربته العلم الأمريكى .

ويصل اصطباغ العلم بالصبغة الايديولوجية فى الصين إلى حد أن العقيدة الماوية تحكمت فى شروط اختيار المشتغلين بالعلم ، وفى ظروف عمل العلماء . ففى الصين المعاصرة ظهرت ، منذ سنوات قليلة ، حملة عنيفة ضد

العلماء المتخصصين المتفرغين الذين وُصفوا بأنهم يكوّنون « صفوة » متعالية ، لا تعرف كيف تجمع بين نظرياتها العلمية وبين ظروف حياة الشعب . واتجهت الدعوة ، بجدية شديدة ، إلى السماح للإنسان « الاشتراكي » العادي بدخول الجامعات ومعاهد البحث ، مؤكدة قدرته على تحصيل العلم الرفيع والوصول إلى كشوف جديدة فيه ، وكان هذا تحديا جريئا حتى لمبدأ « التخصص » ذاته ، الذي يبدولنا مبدأ مستقرا منذ بداية العصر الحديث . وعلى الرغم من غرابة فكرة اشتغال العامل العادى أو الفلاح البسيط بالأبحاث العلمية الرفيعة ، فإنها تؤخذ هناك بجدية شديدة ، وقد كانت واحدة من الأسباب التي أدت إلى تغييرات أساسية فى مناصب الدولة الكبرى وقتا ما .

أما إذا انتقلنا إلى عالمنا العربى ، فإنا نجد كتابنا حريصين ، بطبيعة الحال ، على تأكيد الدور الذى قام به العلم العربى فى العصور الوسطى ، ويصل هذا الحرص إلى حد تأكيد ريادة كثير من العلماء العرب فى ميادين علمية غير قليلة . وربما بالغ البعض فأكدوا أن أصول عدد من النظريات المعاصرة ، كنظرية النسبية مثلا ، موجودة لدى العرب فى العصور الوسطى ، وهو تأكيد واضح البطلان ، لا لأن العرب كانوا أقل من غيرهم ، بل لأن ظهور نظرية كهذه يحتاج إلى تطور معين فى العلم ، ولا يمكن تفسيره إلا فى ضوء ظروف عصر معين كان العصر الذى ظهر فيه العلم العربى مختلفا عنه كل الاختلاف .

من هذه الأمثلة كلها يتبين لنا بوضوح أن النزعات القومية أو الايديولوجية مازال لها تأثيرها القوى ، حتى فى أرقى المجتمعات المعاصرة ، فى نظرتنا إلى العلم . ونحن لا نعنى بذلك التنديد بتدخل هذه النزعات فى العلم : إذ أن من المشروع ، فى بعض الحالات على الأقل ، أن

يفخر شعب ما ، أو نظام ايديولوجيى معين ، بعلمائه ، ويهتم بتأكيد الدور الذى قاموا به أكثر مما يهتم بدور الآخرين ، ولكن ما نعنيه من إيراد هذه الأمثلة هو أننا جميعا نعلن على الملأ أن العلم ملك للإنسانية كلها ، وان حكمنا عليه ينبغى أن يكون موضوعيا ونزيها ، وأن العالم الكبير مواطن للعالم كله ، لا لوطنه فحسب ، ولكننا نتصرف عمليا على نحو مغاير ، ونحتفظ فى أحكامنا على العلماء وعلى إنتاجهم بكثير من الأفكار التى تنتمى إلى الإطار القومى أو الايديولوجى ، وهو إطار بعيد كل البعد عن النزعة العالمية التى تتجاوز حدود الأوطان أو المذاهب الفكرية .

***

وهكذا يمكن القول إن كثيرا من مظاهر العلم ما زالت تتأثر بنزعات مضادة للنزعة العالمية ، ومع ذلك فإن العالم يتجه ، رغما عن كل شىء ، إلى مزيد من التوحد بفضل العلم . فالتكنولوجيا الحديثة ، التى هى نتاج مباشر للعلم ، خلقت عالما تتقارب فيه المسافات ، وتتشابه فيه الأفكار والعادات ، وتهدم فيه بالتدريج كل الحواجز التى تفرق بين البشر ، ويوما بعد يوم يزداد تأثير تلك « الثقافة العالمية » التى خلقتها وسائل الإعلام الحديثة ، والتى تجعل الشاب فى الشرق الأقصى لا يختلف فى مظهره وفى هواياته عن نظيره فى غرب أوربا ، والتى تنشر فى العالم كله ألوانا متقاربة من الفنون الجماهيرية تزيل الفوارق بين الأذواق إلى حد بعيد .

ولقد عاب الكثيرون على هذه « الثقافة العالمية » سطحيتها وابتذالها ونزعتها التجارية ، وكانوا على حق فى ذلك . ولكن إذا كان مضمون هذه الثقافة مبتذلا ، نتيجة لظروف المرحلة الراهنة من تطور العالم ، فإن ما يهمنا هو المبدأ نفسه ، أعنى وجود ثقافة على مستوى عالمى . ولابد أن يأتى اليوم الذى تُستغل فيه هذه الامكانات الهائلة من أجل نشر ثقافة ذات مستوى

إنسانى رفيع على نطاق العالم كله . وهذا ما تنبهت إليه الهيئات الدولية ، وعلى رأسها منظمة اليونسكو ، التى تمثل هى نفسها مظهرا هاما من مظاهر التوحيد الثقافى بين البشر ، والتى تبذل جهودا كبيرة من أجل صبغ الثقافة العالمية بصبغة أرفع من تلك التى تتسم بها الثقافة التجارية الحالية .

إن توحد العالم بفضل التقدم العلمى ليس هدفا مرغوبا فيه فحسب ، بل هو هدف لا غناء عنه من أجل بقاء البشرية . وقد بينا ، عند الحديث عن الأبعاد الاجتماعية للعلم المعاصر ، كيف أن المشكلات الخطيرة التى يواجهها العالم فى الوقت الراهن تشير كلها إلى اتجاه واحد للحل ، هو الاتجاه العالمى . وعلى العكس من ذلك فإن تجاهل الحلول التى تتم على مستوى عالمى ، أو إرجاءها ، لابد أن يؤدى إلى كارثة للبشرية . وهذه حقيقة أدركها كثير من المفكرين المعاصرين الذين رفع بعضهم شعار : أما عالم واحد ، أو لا عالم على الإطلاق !

ولكن هل يعنى ذلك أن العلم وحده ، وبقواه الخاصة ، هو الذى سيؤدى إلى هذا التوحيد ؟ إن الكثيرين ، ولا سيما فى المعسكر الغربى ، يؤمنون بذلك . فهم يعتقدون أن التقدم العلمى والتكنولوجى يستطيع ، هو وحده ، أن يقرب بين الاتجاهات المتباينة فى هذا العالم ، حتى فى أشد الحالات تنافرا ، كما هى الحال فى التضاد الايديولوجى بين الرأسمالية والاشتراكية . ففى رأى هؤلاء أن حرص الدول التى تأخذ بهذين النظامين المتعارضين على اتباع أحدث الأساليب العلمية والتكنولوجية ، هو فى ذاته كفيل بأن يحقق تقاربا بينها قد يؤدى آخر الأمر إلى الغاء التعارض المذهبى بينها . أى أنهم يرون أن الصراع الايديولوجى سيخلى مكانه فى النهاية للتقدم العلمى ، ولما كان هذا التقدم متشابها فى الحالتين ، فإن الأمر سينتهى بهذه المجتمعات المتعارضة إلى التقارب . غير أن مفكرى المعسكر

الاشتراكى لا يميلون إلى هذا الرأى ، لأن الصراع الايديولوجى هو الذى يقرر فى النهاية ـ حسب رأيهم ـ مصير العالم . صحيح أنهم يعترفون بالأهمية القصوى للتطورات العلمية والتكنولوجية المعاصرة ، غير أنهم يرون أنها ليست هى الحاسمة ، بل إنها تخضع للإيديولوجيا التى تعطى هذه التطورات اتجاهها ومعناها ، ويؤكدون أن نظرية « التقارب » القائم على أساس العلم والتكنولوجيا أنما هى محاولة من المفكرين الغربيين للتستر على الفوارق الإيديولوجية الأساسية بين النظامين العالميين ، ولتمييع الصراع الحاسم بينهما .

وأيا ما كان الأمر ، فمن المؤكد أننا لا نستطيع فى عصرنا الحاضر أن نفصل على نحو قاطع بين العوامل الإيديولوجية والعوامل العلمية والتكنولوجية ، لأن التأثير بين الطرفين متبادل . فالعلم يتأثر بالاتجاه الإيديولوجى للمجتمع ، إذ تتحدد فى ضوء هذا الاتجاه أهداف العلم والأولويات التى تعطى للأبحاث العلمية ، كما يتحدد فى ضوئه مركز العلم وسط أنواع النشاط الأخرى التى يقوم بها المجتمع . ولكن الأيديولوجيا ذاتها تتأثر بالعلم ، لأن نوع الصراع الإيديولوجى الدائر فى عصرنا الحاضر يتحدد إلى مدى بعيد بالشكل الذى وصلت إليه المجتمعات المعاصرة بفضل العلم ، ولا سيما فى ميدان الإنتاج ، وهو الميدان الرئيسى الذى يدور فيه الصراع الايديولوجى .

وهكذا نستطيع أن نقول ، مرة أخرى ، إن العالم يتجه إلى التوحد بفضل العلم ، حتى لو أخذنا بالرأى القائل إن هذا التوحد لن يقرره إلا الصراع الايديولوجى . وحين نتأمل صورة الإنسانية فى المستقبل ، فلن يملك المرء إلا أن يتصورها وهى تفكر بعقلية عالمية ، وتراعى مصلحة الإنسان فى كل مكان ، بغض النظر عن فوارق اللون والجنس والوطن والعقيدة . وعندئذ

فقط سيكون التفكير العلمى لدى البشر قد استعاد طبيعته الحقة ، بوصفه بحثا موضوعيا نزيها عن الحقيقة ، يعلو على كل ضروب التحيز والهوى ، ويزن كل شىء بميزان واحد ، هو ميزان العقل .

مراجع

— J. D. BERNAL: Science in History. 4 vols. 3rd ed. Pelican 1969.

— J. BRONOWSKI: The Common Sense of Science. Pelican 1960.

— M.R. COHEN: Reason and Nature. Free Press, Glencoe, 1959.

— RENÉ DUMONT: L'Utopie ou la Mort. Paris (Seuil) 1974.

— JEAN FOURASTIÉ: Les Conditions de l'esprit scientifique. Paris, NRF, (Collection "Idées") 1966.

— J. FRANEAU: La Pensée scientifique. Bruxelles, Editions Labor, 1966.

— N. R. HANSON: Patterns of Discovery. Cambridge U.P., 1958.

— J. LALOUP: La Science et l'humain. Paris (Casterman) 1960.

— ERNEST NAGEL: The Structure of Science. N.Y., Harcourt-Brace, 1961.

— ERNEST NAGEL: Sovereign Reason. Free Press, Glencoe, 1954.

— KARL POPPER: The Logic of Scientific Discovery. N.Y., Basic Books 1959.

— Proceedings of the XVth World Congress of Philosophy Vol. I. Sophia, 1973.

— A. D. RITCHIE: Scientific Method. Littlefield & Adams. N.Y., 1960.

— H. ROSE & S. ROSE: Science and Society. Pelican 1971.

— B. RUSSELL: The Impact of Science on Society. Allen & Unwin, 1967.

— The Scientific & Technological Revolution (several authors) Moscow, 1972.

— S. TOULMIN: The Philosophy of Science, Hutchinson's University Library, 1953.

— G. VOLKOV: Man and the Challenge of Technology, Moscow, 1972.

— C.H. WADDINGTON: The Scientific Attitude. Pelican 1948.

— W. WIGHTMAN: The Growth of Scientific Ideas. Yale U.P. 1953.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٩٦٧/١٩٩٦

I.S.B.N- 977 - 01 - 4840 - 7